

منشورات المكتبة الخاصة

شمس عَمري

رواية

جمال شاهين

دار المأمون
للنشر والتوزيع

منشورات المكتبة الخاصة

٢٠٢٣/ ١٤٤٤

روايات اجتماعية

جمال شاهين

شمس عمري

بسم الله الرحمن الرحيم

شَمسُ عَمري

تأليف

جمال شاهين



٨١٣,٩

شَمس عَمري / الروايات العربية // العصر الحديث

جمال شاهين / مؤلف من الأردن

الطبعة الأولـى

١٤٢٧ هـ/ ٢٠٠٦ م.

رقم الإجازة المتسلسل لدى دائرة المطبوعات والنشر : ١٧٩١/ ٦/ ٢٠٠٦

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية : ١٧٤٠ / ٦ / ٢٠٠٦



العبدلي – عمارة جوهرة القدس

تلفاكس : ٤٦٤٥٧٥٧ – ٦ –٠٠٩٦٢

ص.ب ٩٢٧٨٠٢ عمان ١١١٩٠ الأردن

E-mail : daralmamoun@maktoob.com

ردمك : ٨ – ١٤ – ٤٦٢ – ٩٩٥٧ ISBN

عمري

منذ شهور قد انقضت والشاب عمري ناصح يستيقظ فجرا عندما يرتفع آذان الفجر عاليا في المسجد القريب من قصرهم فيلا ناصح الخابي ، وهذا الصحيان اليومي يتكرر كأنه على موعد معه، ومن النادر أن يفوته سماع صوت المؤذن لصلاة الفجر في مسجد الحي ، فيجلس على سريره بضع دقائق ثم يعود للنوم ثانية وهو يتساءل : أيوجد أحد يصلي في هذا المسجد ؟! ولماذا أصلا بنوا هذا الجامع هنا ؟! ..آ .. فلربما للصلاة على أموات الحي .. ربما

ويغفو وهو يردد هذه الاستفهامات ، ثم تطور هذا الحال بعد حين فصار ينهض من فراشه ويجلس في شرفة مطلة على المسجد، فيشاهد بعض الناس يتحركون نحو بيت الله في ظلام الليل فيصيبه العجب من هؤلاء، كان عمري يرى الدين والصلاة وغيرها أشياء قديمة أشياء بالية .. تراث .. من مخلفات الماضي .. فهو منذ خرج للدنيا لم يشاهد والديه يصليان في يوم ما سافر لبريطانيا بعد نجاحه في الثانوية العامة التوجيهي لدراسة التجارة والإدارة في جامعة لندن، فعرف المدنية والمدينة الغربية، وبعد سبع سنوات أمضاها هناك في بلاد الضباب وأي ضباب ؟ ! عاد لأرض الوطن .

فأخذ مشهد مراقبة المسجد والمصلين عند الفجر يتكرر معه في أغلب الأحيان والأيام .. فتدثر ذات فجر بثياب سميكة ، ومشى إلى المسجد فدخله وصلى مع الناس من غير وضوء ولا طهارة ، فهو لا يعرفها، وإن تعلم شيئا منها في الصغر أو سمع به في المدرسة، فهو الآن لا يفقه ولا يعي من ذلك شيئا ، لقد كان يدرس كأبناء طبقته في مدارس أجنبية، فمادة التربية الإسلامية كانوا يمرون عليها مرور الكرام وللنجاح فقط .

بعد أن استقر في البلد على أثر عودته من لندن كان هناك دافع باطني يدفعه للصلاة .. للإسلام الذي هجره بل الذي لا يعرفه .. إنه شغوف بمراقبة وملاحظة بعض عمال المصنع الذين يصلون ويتعاطف معهم ويشجعهم على الصلاة ويسمح لهم بالصلاة في وقتين الظهر والعصر، والتوقف عن العمل للصلاة، ويتهاون معهم رغم تعاليه وكشرة وجهه أمامهم .. إنه يحب

المصلين، وفي قرارة نفسه يتمنى أن يصير مثلهم ، لقد ملّ من حياة العبث واللهو والنساء بل قرف ذلك كله وملّه قبل عودته من بريطانيا من أرض الغواية ..

كان الوضع رهيبا عليه في المسجد رهبة الإيمان وتلاوة القرآن .. أناس من طبقة راقية يفارقون أسرتهم الدافئة ليصطفوا وراء الإمام الذي يشدو بهم بحركات وصوت من القرآن .. القرآن إنه كتاب الله للمسلمين .. فيهمس لنفسه: يوجد إذن في الحي خلق يصلون، لم يكن المسجد فارغا، فيه بشر يعبدون الله ! وتهمس شفتاه أثناء العودة للبيت: أحقا هناك جنة ونار ؟ وكيف هما ؟!

كان كل أسبوع يترك الشرفة مرة واحدة متسللا إلى المسجد، ويردد بين حناياه وهو مفعم بالتوتر والوجل والقلق : لماذا لا أتوب ؟! كيف أتوب ؟! ماذا أفعل ؟ أتكلم مع الشيخ ؟ لا .. أأشتري بعضا من الكتب ؟!

كان عمري الخابي يفكر ويتعجب من حياة الأسرة كلها، وجدها في نظره حياة عبثية، لا أهداف عظيمة ومهمة أمامهم، والده ناصح الخابي هدفه في هذه الحياة المزيد من الثروة .. المزيد من اللهو حسابات تكبر في البنوك .. رحلات سياحية لأوربا وأمريكا .. إشباع الجسد فقط، أما الروح فليس لها شيء .. ولكن والده غير ملحد فهو يؤمن بالله، بل يراه يتبرع لبعض الجمعيات الإسلامية بالمال .. بل يتذكر أنه قد تبرع لتشييد المسجد المقام في هذا الحي .. هذا المسجد المجاور إنه لا يحارب الدين، إنه لا يعادي الإسلام .. ولكنه لا يمارس الإسلام .. لا صلاة ولا زكاة .. ولا حج ولا صوم رمضان .. أليست هذه أركان الدين كما سمعت الشيخ الإمام يتحدث ذات صباح ؟!

فعمري ابن هذا الأب، فلما نجح في الدراسة الثانوية أرسله لبريطانيا للحصول على شهادة إنجليزية بدراسة التجارة والأعمال المالية وكسب وتعلم لغة الإنجليز، وهو الابن البكر، ولقد كان بين يديه هناك المال والحرية المطلقة .. فدرس واشتغل؛ ولكنه خلال تلك السنوات السبع زاد عبثه ولهوه، وتعرف على فتيات وغانيات المجتمع في لندن وضواحيها، فحب وانحب،

شرب الشراب المسكر، سافر فرنسا وجنوبها، فعرف ملاهي ونوادي لندن وباريس، تفرج على مسارح تلك المدن وحاناتها، تعلم العلم الأكاديمي، حصل على شهادة الجامعة، وتعلم معه حياة المجون من شبابها وبناتها، طرد من عمله أكثر من مرة، فطلب منه والده العودة للبلاد فعاد بعدما سدد عنه الأب الغني كل ديونه، فاشتغل مع والده بعد حين، بعد سنة من الإحباط والانهيار استسلم واقتنع بالعمل مع سيادة الوالد ناصح وأخيه ناجح، فالسيد ناصح الخابي يملك عددا من المصانع في البلاد .. فبعد ثلاث سنوات وهو يعمل تحت إشراف الوالد ناصح جعله نائبا له في مصنع إنتاج السجاد والموكيت والخيوط، فأصبح الابن الأكبر لناصح باشا الشاب عمري نائبا للمدير .. نائب والده .. والمصنع بالمقياس التجاري في البلاد ناجح .. إنتاج جيد وتوزيع وتسويق جيد، وقد استطاع عمري أن يقود المصنع بنجاح ، وإن لم يكن النجاح الذي يطمح ويحلم به ناصح الخابي، فقد أمضى الشاب سنتين أو أكثر في إدارة مصنع السجاد، فقد كان والده يطمع أن يضيف خطوط إنتاج أخرى للمصنع ليتمكن من التصدير إلى الأقطار المجاورة ..

كما ذكرنا كان عمري يتسلل لصلاة الفجر مرة واحدة في الأسبوع، يتحرك كما يتحرك الناس خلف شيخ الصلاة .. فذات نهار أدخل إلى مكتبه حيث إدارة المصنع شابا شيخا متدينا من عمال المصنع ذا لحية طويلة، وظن العامل حسن أن هناك شكوى عليه أو مشكلة ما .. فأشار عمري لحسن بالجلوس، ولما أغلق الفراش الباب عليهما، قال عمري للشاب المتدين بعد الترحيب والتحية: يا أخ حسن! .. كيف الصلاة ؟ وماذا تفعلون في الصلاة ؟

بهر حسن لهذا الاستفهام، ووجم لحظات قبل أن يفيق من الدهشة وقال لنفسه وهو ينظر في عيني نائب المدير : مسلم يسأل عن كيفية الصلاة وماذا تفعل في الصلاة ؟! ثم أجاب مديره : ماذا يقصد السيد المدير بكيف الصلاة ؟ !

كان عمري يسأل حسنا وهو قائم فجلس قريبا منه وقال : يا أخ حسن ! .. أنا .. أنا أريد أن أتعلم كيف أصلي صلاة صحيحة ؟!صدق يا أخ حسن أنني لا أعرف كيف تكون الصلاة ؟

أراكم تقفون وتنحنون وتسجدون وتتحدثون عن الوضوء .. ولا تستغرب جهلنا بذلك رغم حملنا للشهادات والجامعات ..

فقال الشاب العامل : ألم تتعلم ذلك في المدارس ؟!

فقال عمري كأنه محتجا : أيّ مدارس يا أخي ؟! .. أنا قضيت ثلث عمري في بريطانيا .. ولكني أحس بحيرة .. بضيق .. أحيا في ظلام .. أريد أن أتوب ..

تألم حسن المدهوش مما يسمع وقال : معك حق ، مدارس هذه الأيام لا تعلم الدين والقرآن لدي كتب عن الصلاة والوضوء .. سآتيك بها ..

فقال عمري : أريد أن أسمع .. لا أريد القراءة الآن

فرد حسن : تسمع وتـقرأ

ـ سوف أفعل

فقال حسن وهو يهم بالقيام : العمل يا سيدي والعمال ؟

ـ لا تقلق .. بضع دقائق كل يوم .. إنني أتألم من داخلي يا حسن .. ضقت بهذه الحياة ومللت الملذات ..

فقال حسن : أنا لي صديق طيب وطالب علم، فما رأيك أن تزوره بعد انتهاء الدوام وتتعرف عليه فهو أقدر مني على مساعدتك

فقال عمري : أريد أن أعرف ما تعرفه أنت الآن .. كيف تتوضأ ؟ كيف تصلي ؟ .. وسوف أقرأ وسوف أقابل صاحبك .. أنا عطش جدا للإيمان والصلاة

أخذ حسن يشرح لنائب مدير المصنع كيف الصلاة ، وحدثه عن صفة الاغتسال من الجنابة ، ثم الوضوء للصلاة ، وعلمه أساسيات الصلاة وهيئاتها ، ثم أخذ يتردد على مكتبه كل يوم مدة نصف ساعة تـقل ولا تزيد يعلمه مما يعلم ويمارس ، وكان عمري قد طلب من حسن أن لا يحدث أحدا بما يعلمه ؛كأنه خائف من الناس أو من نفسه ، فعاهده حسن على ذلك بناء على رغبته ، وعلى أثر تلك اللقاءات فقد أصبح الشيخ حسن العامل صديقا لابن المدير البكر وكثر

تردد عمري على المسجد لصلاة الصبح ، فما زال يستيقظ من نومه عندما يسمع صوت المؤذن ، وكثر الهمس في المصنع حول صداقة عمري نائب المدير بالعامل حسن ، بل كان أحيانا يركب حسن مع عمري بسيارته يوصله لأقرب موقف سيارات ليعود إلى أهله ، وأحيانا أخرى يوصله لبيته بنفسه مما زاد من الإشاعات والتكهنات حول هذه الصداقة سواء في المصنع حيث العمال أم في مكاتب الإدارة ، والكل يتطلع ويتشوق لمعرفة أسرارها ، واستمر حسن يتردد على عمري في مكتبه مدة قد تقترب من الشهرين حتى أصبح السيد عمري متقنا للصلاة والوضوء ، وكان سعيدا بذلك ثم التقى وتعرف بصديق حسن الشيخ علي الحمد الذي أخذ يشرح له أركان الإيمان والإسلام ومسائل الاعتقاد والآداب ، مما أدهش عمري عندما سمع بآداب النوم والطعام والسفر والسلام وغير ذلك من مواضيع وفقه ، وكبر تعلق عمري بحسن وصاحبه علي ، وكان مسرورا بصحبتهما ورفقتهما ، وذات يوم عندما عاد عمري للبيت التقى بأمه في صالة البيت فقالت الأم : إيه يا عمري ! .. لم تعد تكثر من الجلوس معنا ..أمس تركتنا والضيوف ودخلت للنوم .. ومتى ينام عمري مبكرا مما أدهش بنات عمك ؟ !

فقال بلطف: لم أعد أحب السهريا أمي ..إنني في حيرة .. لماذا نعيش ؟ ! لماذا نأكل ونشرب ونلهو ؟؟

ردت الأم باستغراب : لماذا نعيش ولماذا نلهو ؟! ما هذه الأسئلة يا بني؟ هل بك مرض ؟؟ أنا لي فترة طويلة ألاحظ عليك الشرود والقلق .. وكثيرا ما أراك عند الفجر تجلس عند الشرفة وحتى في شدة البرد والمطر ..

فقال : إني حائر يا أماه .. هل خلقنا فقط للعبث والمزح والسهر ؟ أليس هناك آخرة ؟!

فقالت الأم بقلق : احذر أن يكون كلام أم سعيد حقا ؟

فقال بشرود : أم سعيد عمتي ؟! وما هو كلامها ؟

فقالت بلهجتها القلقة : إن صاحبا لابنها خالد يراك تتردد على المسجد عند صلاة الفجر

ضحك عمري وقال : وهل هذا عيب ؟! .. لي زمن أتردد على المسجد وأصلي الفجر .. روحي

تطلب الصلاة يا أمي ..

رفعت الأم من صوتها وقالت : ويلك ! أجننت يا فتى فالصلاة للعجايز وكبار السن ؟! .. أنا لما سمعتها تتكلم بذلك ضحكت منها وقلت لها كل الناس يصلون إلا عمريا .. فعمري ابن لندن وابن المدنية ..

فقال عمري مسايرا سذاجة أمه : وهل المدنية تمنع الصلاة يا أمي ؟ ! .. الصلاة شيء مهم في حياة الإنسان .. البوذيون يصلون .. !

فقالت الأم : إنك تتكلم بجد ؟ هذه أمور لا نحب رؤيتها في البيت .. أنا لما حدثتني بدرية عن أشرطة كاسيت القرآن الموجودة في غرفتك ظننتها لأحد عمالك ..

فقال عمري : أمي إنني بحاجة للراحة الآن أجلي الكلام لوقت آخر ..

فقالت : هذا أمر خطير لا يؤجل .. هذا البيت ليس مكانا للعبادة

جحرها عمري بطرف عينيه قائلا : إنك تتكلمين بلسان الشيطان ..

وانسحب إلى حجرته وألقى بنفسه على السرير ثم راح في سبات عميق .

حسن

كان المدير العام لجميع شركات ومصانع الخابي الأستاذ ناصح الخابي يتابع نشاطات مصنع السجاد عن طريق ولده عمري ، وعن طريق التقرير المالي الذي يعده كبير محاسبي المصنع أسبوعيا ويقدمه إلى مكاتب الشركات الرئيسية ، وكان أيضا يتلقى تقريرا إداريا من السكرتاريا للمصنع وشؤون العمال والموظفين ، ولقد كانت الآنسة العانس نسرين غانم من قدماء موظفي المصنع ، فهي بذكائها وخبرتها تعرف كل نشاطات وإنتاج المصنع ، فكان أحيانا يتصل بها السيد ناصح ليسمع منها أخبار المصنع وعلاقات العمال والإدارة ، وكان السيد المدير يحب أن تكون علاقات العمال بالإدارة علاقات جامدة في حدود العمل والإشراف فقط ، لذلك كان المدير متضايقا من علاقات نائبه في المصنع بالعامل حسن وغيره وذات صباح عندما دخل عمري مكتبه وجد أمرا بنقل العامل حسن إلى مصنع آخر أو فصله من العمل ، فطلب السكرتيرة وسألها من أتى بهذا الطلب ؟ فأجابت وصل مع البريد من الإدارة العامة

فقال باقتضاب : مع السلامة ومزق الطلب ورماه في سلة النفايات كأنه لم يتلقه ، ثم تابع قراءة الخطابات الأخرى ومراسلات الشركات وطلباتها ويشرح عليها باللازم ، ثم نزل ومعه مدير الإنتاج المهندس رياض نحو ماكنات النسيج والتصنيع ، فمكث بين العمال بضع ساعات ، ثم رجع للمكتب ومعه رفيقه حسن فشربا الشاي ، ثم غادر الشركة عائدا للبيت ، ولم يكد يدخل غرفته الخاصة حتى رن جرس الهاتف ، وكان المتحدث والده ناصح وتحدث معه بغضب : لماذا تركت المصنع يا عمري ؟ ! .. لقد دهشت عندما أخبروني بأنك انصرفت للبيت، منذ متى وأنت تترك الشغل للغرباء ؟!

ـ باختصار يا أبي إنني متعب فقلت لمدير الإنتاج المهندس رياض إنني أشعر بإرهاق .. ورياض هو أنا ، ألم تقل لي ذلك مرارا وهو ليس غريبا عن العمل .. ؟

ـ حسنا .. لما أراك مساء نتكلم ، فأنا لم تعد تعجبني أفعالك هذه الأيام

ضحك عمري وهو يقول : لما تعود إن شاء الله .. أسمع هذه الأفعال التي لا تعجبك

فتمتم الأب بكلمات أخرى غاضبة وأغلق الهاتف ، ووضع عمري السماعة من جانبه وهو

يقول : لماذا يكرهون التوبة .. الصلاة ؟؟! .. وهل العلمانية التي يتمسكون بها تمنع الناس من الصلاة ؟ إنهم قوم ظالمون .. ما ألذ الكلام الذي أسمعه من الشيخ علي والشيخ حسن !! إنني عطش وجائع لمثل هذا الكلام الروحاني

ثم نهض فصلى الظهر ورقد ، فهو على موعد مع محاضرة إسلامية في نادي الصلاح ، وتبسم وهو يتذكر ذلك وقال : والله صرت أحضر محاضرات دينية بدلا من حفلات الأغاني والرقص

*****

فعندما عاد عمري من الدرس الديني بعد صلاة العشاء ،كان والده قد خرج هو وزوجته إلى حضور حفلة عيد ميلاد إحدى بنات أصدقائه ، فحمد الله على عدم لقاء الوالد فأخلد إلى النوم وكان من عادته الاستيقاظ فجرا فيتسلل إلى الجامع لصلاة الصبح ، ولما تنقضي الصلاة يعود ويطلب من الشغالة حسنية كوبا من الحليب ، ثم يقرأ حزبا من القرآن ، ثم يخرج من حجرته فيجلس في حديقة الفيلا ساعة من الزمن ، ولما تصل عقارب الساعة إلى السابعة صباحا ينطلق إلى المصنع ، فهذا ديدنه منذ تحرك الإيمان والهداية في قلبه ، فيصل قبل مجيء العمال فيجلس مع رجال الحراسة والأمن ، المكلفون بحماية المصنع ، فيداعبهم ويمزح معهم ، وقد يشرب الشاي معهم مما يثير عجبهم ، لقد كان عمري قبل سنة بل شهور لا يحب إلقاء السلام على أحد ، ولا يحب الكلام مع أحد ، ولهم منذ شهور يحسون ويدركون التغير الذي حدث لعمري ؛ ولكنهم لا يعرفون سر ذلك التحول الحقيقي .. فهناك أقوال وإشاعات تتردد في ثنايا المصنع ، منها أنه سيترك المصنع لإدارة مصنع آخر من مصانع والده فيحب أن يترك طابعا وأثرا حسنا لدى الناس البسطاء في آخر ايامه بينهم ، ومنهم من يقول إنه غضبان من والده فيحب أن يغير التقاليد السائرة بين الإدارة والعمال من الجفاء والصلابة ، ويقولون أقوالا أخرى ، ولم يتحدث أحدهم على أن الدين والتوبة هي التي جعلته يتغير ويتواضع للجلوس والحديث مع الحراس والعمال ويشرب الشاي بصحبتهم ، ويمزح معهم ولا يتطلع إليهم من عل ، وما هو إلا إنسان بسيط مثلهم ؛ ولكن الله ابتلاه واختبره بنعمة المال والثراء والغنى وابن المدير ، هذا لم يدر في خلد أحد من العمال والحراس إلا حسن الذي عاهده على الكتمان وعدم التحدث عن توبته وتركه

للمعاصي ، وكذلك لم يعد يحمل السكرتيرة نسرين غانم في سيارته عند انصرافه من العمل ، بل يتأخر في المصنع أحيانا كثيرة حتى تنصرف الأوانس والسيدات ، لقد كانت نسرين غانم تظهر نفسها مالكة للمصنع لأنها من أوائل الموظفات اللواتي عملن في المصنع وهو قيد الإنشاء والتأسيس قبل أكثر من عشر سنوات ؛ ولأن السيد ناصحا يعتمد عليها فكانت ترى نفسها المديرة الفعلية للمصنع ، ولولا أن عمريا استلم منصب نائب المدير لظلت ترى نفسها في تلك الصورة ، لم يعد الشاب يتكلم كثيرا مع فتيات المصنع أو يغازلهن كما كان يفعل معهن قديما عندما كان يرى فتاة حلوة ، التغير والانقلاب بدأا يظهران على طباع وأخلاق عمري ؛ وحتى الدوام الوظيفي كان من النادر أن يدخل المصنع قبل العاشرة صباحا بعكس هذه الأيام .

إذن أصبح الشاب ابن الثلاثين ربيعا يتابع الجميع بل يتقبل الأخطاء والأعذار بكل سهولة ، لم يعد يصرخ ويرفع صوته ويصب غضبه على من يرتكب خطأ في المصنع ، فقد أصبح يتدبر الأمر ويحاول إصلاحه بدون غضب بل يضغط على مدير الإنتاج للعفو والمسامحة ، والإنتاج لم يتأثر بنقص وغش بهذا الأسلوب اللين .

وفي ذلك الصباح لم يحاول انتظار خروج الوالد لسماع بعض طلباته وتعليماته ، فلما حان وقت انطلاقة الصباح ركب سيارته متجها إلى المصنع كعادته الجديدة ، فجلس مع رجال الأمن والحماية وشرب الشاي معهم ، ولما أقبل الفراشون وفتحوا المكاتب دخل إلى مكتبه ، وقد كان على المكتب مذياع صغير ففتحه على إذاعة القرآن الكريم وشرع يستمع اليه بتأمل ، فلما شعر بدخول موظفي السكرتاريا والإدارة إلى مكاتبهم أغلقه وانتظر دخول السكرتيرة عليه بملفات وبريد وأعمال المكتب لهذا النهار .. وكأنه فوجئ بدخول الآنسة نسرين ، فعادة أول من يدخل عليه صباح كل يوم سكرتيرته ريما ، وإذا كان هناك أشياء مهمة تتبعها الآنسة نسرين .. فرحب بها وعلى وجهه السؤال .. فوضعت الأوراق على المكتب وقالت : الآنسة ريما طلبت إجازة أمس ووافق عليها المهندس رياض .. وربما تستقيل ..

فهتف باستغراب : تستقيل ! ولماذا ؟!

ـ تقول إن هناك مشروع خطبة وزواج والخطيب المتقدم لها لا يحب لها العمل كسكرتيرة

فقال بهدوء : عقبال عندك يا آنسة نسرين ..

وقبل أن يتابع كلامه قالت : يا ليت يا أستاذ عمري !

وتابع عمري قائلا : إن شاء الله .. فريها فتاة مهذبة .. كم أسأت لها قديما ؟ ولا أظن إلا أنها راضية عني في الأيام الأخيرة ..

فضحكت نسرين وقالت : كل العمال يتحدثون عن التغيير الجاري لنائب المدير .. فلم يعودوا يسمعون صوتكم المرتفع وشتمك ونفرزتك ؛ وهم يتساءلون بينهم ما الذي قلب الأستاذ عمري إلى هذه الهيئة الحسنة ..

فتبسم وقال بدون أن يشعرها بما وراء الكلام : الإيمان!!

فقالت باسمة ومتشككة : فكلنا مؤمنون ، وهل نحن كفار يا حضرة الأستاذ ؟ !

فضحك أو تبسم وقال : ماذا في هذه الأوراق التي وضعت على المكتب ؟ بل قبل ذلك .. اتصالات أمس ؟

فأخرجت ورقة من ثوبها وقالت : اتصالات كثيرة أجاب عليها المهندس رياض ؛ ولكن أهمها تلفون حضرة الوالد المدير العام .. فلقد اتصل وسأل عن نقل ذلك العامل ..

فقال عمري وهو ينظر في وجهها : وماذا قلت له يا عزيزتي ؟!

قالت وهي تنظر في عيني عمري بقلق وحيرة : أولا قلت له إنك غادرت المصنع إلى البيت كما أخبرتنا .. وثانيا قلت له إنك لم تنقل العامل ولم يتصرف نائب المدير بعد ..

هز عمري كتفيه وهو يسمعها ، فلما صمتت قال : ما هي أسباب نقل هذا الشاب أو طرده كما تريدون ؟

فقالت بنبرة تهكمية : كما نريد .. بل كما يريد المدير العام السيد ناصح

فضحك عمري ورد : وهل يعرف حضرة الوالد المدير الشاب العامل حسنا ؟ .. فالوالد المدير يأتي المصنع في الأسبوع مرة ، ويمكث ساعة أو ساعتين على الأكثر ثم يغادر ، وأحيانا لا يرى ولا يقبل مقابلة أي عامل .. يا آنسة نسرين ..

فقالت بقلق وتوتر : ماذا تقصد ؟!

فقال بنبرة فيها حدة : أقصد يا آنسة نسرين ! ما هي الشكوى التي رفعت للوالد عن حسن ليطلب فصله ؟! .. أم لأنني استدعيه لأسأله عن العمال وأحوال العمال ؟

فقالت بدهشة وضيق : أنت تستدعيه من أجل ذلك .. ؟!

فقال وهو يحدق النظر في عينيها : وإلا لماذا أجتمع به كل يوم؟

فقالت بحيرة : لست ادري ! اسأل الوالد عن سبب نـقله أو فصله ؟

فقال : بالتأكيد سوف أسأله .. أنا لم أجلس معه أمس .. على كل حال عودي لمكتبك ريثما أطلع على هذه الملفات والخطابات ..

خرجت نسرين من مكتب عمري محتارة ومدهوشة من كلام عمري وهي تقول لنفسها : يا لك من ولد ذكي !! إذن حسن جاسوسك على العمال .. وأنا كنت أظنه يعلمك الصلاة والوضوء .. آه .. إنك داهية خبيث يا عمري ! ابن أبيك ! .. عرفت كيف تلعب بحسن ؟!.. دخلت عليه من باب الصلاة والتوبة .. أليس بذلك يتحدثان ؟ ! .. هذا ما سمعته أذناي .. عليّ أن اصلح الخطأ حالا قبل أن ينقل حسن أو يطرد

فخرجت من مكتبها واتصلت بالسيد المدير ، ونقلت له الصورة الخاطئة التي نقلتها له عن حسن ، فاستغرب المدير من ذلك وقال : لا بأس .. سوف أتجاهل المطالبة بنقل حسن لمصنع الزيوت ..

وتجاهلت نسرين عين ناصح في المصنع الشيخ حسنا ؛ فهي تعتقد الآن أنه عميل عمري بين العمال ، وما الحديث عن الصلاة والإسلام والتدين والخلوات ما هي إلا غطاء أمام عيون وآذان العمال ولكنها عادت تهمس قائلة مترددة في الاستنتاج : ولكن عمرياً قد تغير فعلا .. هل هذا كله تمثيل في تمثيل ؟! .. الله أعلم .. أمر محير !

زواج نوال

كانت العلاقة الحسنة بين حسن وعمري قد عظمت ، وأصبح عمري ابن المليونير الفتى الثري صديقا للشاب العامل الفقير في مصنع السجاد ، نسي عمري الفارق الطبقي بينهما ، ووجد راحة وحلاوة في صداقة حسن أكثر مما وجدها في أبناء عمه وأبناء أصدقاء أبيه والعائلة ، فقد وجد أن العلاقة بينه وبين حسن علاقة حب في الله ، ليس هناك مصالح مادية تربطهما .. وقد استطاع معالجة مشكلة حسن بسرعة وذكاء، فهو يعرف بكل يقين أن الآنسة نسرين عين والده في المصنع ، وهذا لا يخفى على أي رجل يملك ذرة بسيطة من العقل والفطنة .. لأنها تعطي نفسها أكبر من حجمها في المصنع بحجة أنها من أقدم الموظفات .. وعمري لا ينكر قدراتها الكبيرة في داخل الإدارة والاجتماعات والعلاقات العامة .. فقد استطاع أن يوحي إليها بأن حسنا عين له بين العمال ينقل له أقوالهم ونشاطهم .. وعمري لا يقتنع بجودة هذا الأسلوب في السيطرة على إدارة المصنع .. فكانت القاعدة عنده حسن الإنتاج وحسن التوزيع هما كفاءة العمال والإدارة ؛ فإذا كان هناك إنتاج مقبول فمعنى ذلك أن العمال يؤدون واجباتهم وينفذون خطط العمل المرسومة .. ولكنه يعرف نفسية الآنسة وأنها عين والده عليهم فجاءها من هذا الباب فأوحى إليها أن حسنا عينه ورجله عند العمال ، فتقبلت ذلك بسهولة ، ولذلك أسرعت بتصحيح الأمر مع السيد ناصح ، فسر عمري من نفسه وعلق قائلا : المريض يظن أن كل الناس مرضى مثله .

وهكذا استمرت العلاقة داخل المصنع طيبة بين حسن وعمري ، وأما نسرين فقد قتلها الشك والوسواس بصدق نوايا عمري ، ذات مساء عندما رجع نائب المدير للبيت استقبلته أمه بالترحاب على غير العادة ، أو فقل من النادر أن يدخل البيت ويصطدم بأمه فإنها يجد في استقباله الشغالة حسنية ، فأمه إما في زيارة صديقة أو نادي أو جمعية أو في استقبال صديقة ، فقال باستغراب : أمي في انتظاري .. هذا أمر عجيب يا أم عمري ؟! لابد أن هناك شيئا مهما لتجلسي في الصالة لاستقبالي ؟!

فأخذتها الضحكة وقالت باسمة : دائما أنت هكذا تحب المداعبة .. أهلا بولدي الحبيب ..

فعلا يوجد شيء مهم سيحدث الليلة هنا في البيت ولك أيها الولد الحبيب . .

فقال : على كل حال .. سأدخل الحمام لاغتسل ثم أعود فأسمع هذا الأمر المهم والخطير

فقالت : اذهب فنحن في انتظارك قبل حضور الضيوف

كان عمري غير مقتنع بكل أفعال أمه ، وكان يرى أنها كلها أفعال لتضييع الوقت ولا فائدة ترجى منها ، وإنما هي كلام ودعوات وحقوق النسوان ، فكان يرى كل ذلك كلام ببغاوات لا أكثر ولا أقل ، فقد عاش في بريطانيا وكان يسمع ويرى مثل هذه الجمعيات والحركات ، وكان يردد قائلا : لو أنهم حريصون فعلا على حقوق وحياة الإنسان المغلوب على أمره ما صنعوا سلاحا ولا قنابل ذرية .. وسيطرة وحروب ..

اغتسل عمري وأزال عرق اليوم عن البدن ودخل حجرته الخاصة ، وكان يدرك أن أختيه وربما أمه يعبثون في مكتبه الصغير وأوراقه ، فكان لا يكترث للأمر والتفتيش ويهمله ويراه من باب الفضول ، فنام نصف ساعة من الزمن ، واستيقظ على صراخ أمه فنهض وهو يقول : يا أمي ماذا جرى في الكون ؟ !

فصاحت وهي مازالت تقف عند باب الغرفة : أنا ظننت أنك ما زلت في الحمام .. وأنت نائم هنا .. قد حضرت امرأة عمك عزيزة وبناتها نوال وأنعام فتعال سلم عليهن

فجلس على حافة السرير وهو يقول : بعد قليل

ولكنه رأى البنات قد دفعن الباب ودخلن وهن يعلقن ويمزحن معه فقالت إحداهن : إيه يا عمري .. سمعنا أنك قد صرت شيخا .. أليس ذلك مبكرا ؟ !

فقال بحدة ولم يعجبه دخولهن عليه الحجرة بهذه الصورة : الموت عندما يأتي لا يسأل عن المبكر والمتأخر ..

فوجمت الفتيات العاشقات للمرح ، فكلمة الموت وإن يرددها الناس يوميا ولكن لها في بعض الأحيان وقع على النفوس فهمسن : الموت !!

وقالت نوال : الموت يا عمري .. ما بك نحن نحدثك عن ... عن ماذا ؟ !

فقالت أنعام : عن الشيوخ والصلاة ..

فقال عمري وهو يقف : أهلا ببنات عمي .. أهلا وسهلا ..

فقالت نوال : ألا تصافحنا فقد سمعنا ...

فقال : ما دام قد قلتي عني شيخا فكيف يحق للشيخ أن يصافح النساء ؟ !

فقالت نوال: والله عجيب حالك يا عمري!.. كدت أصدق أنك شيخ ، فعندما تحدثنا بدرية الجميلة عن تدينك أسخر وأهزأ منها وأظن أنها تبالغ .. أنت ناقصك لحية ..

فقال باسما : قريبا .. يا مرحبا .. اسمحن لي بغسل وجهي ..

فقالت أنعام متضاحكة : واسمح لنا بالعبث بمحتويات غرفتك

فقال : افعلن ما تشأن عسى الله أن يتوب عليكن ..

فقالت نوال متضايقة : ويلك .. لم نتمتع بالدنيا بعد ..

فقال : وهل التدين يمنع التمتع بالدنيا .. يا قمر آل الخابي .. ؟

فقالت أنعام ضاحكة : بعدك تردد كلمات حلوة يا عمري بيك

فقال ضاحكا : سأغسل وجهي وأذهب لتحية امرأة عمي السيدة عزيزة

مشى نحو حوض الغسيل وغسل يديه ووجهه ثم سار لتحية امرأة عمه فحياها ورحب بها ثم التفت لأخته قائلا : أين أمك يا قمرية ؟

فردت أخته قائلة : تتحدث بالتلفون مع .. مع ..

فعاد يرحب بامرأة عمه ويسألها عن العم ناجح وابن العم صابر ، فالسيد ناجح شقيق والده له ولد واحد فقط وأربع بنات منهن اثنتان متزوجات نهى ونهال ، وعمري منذ اهتدى وأصبح يحافظ على الصلاة لم يحاول فرض نفسه وما وصل إليه من هدايات وقناعات على أفراد البيت لم يحاول أن يتدخل في لباس أختيه وأمه ، وكان يتجنب الإفاضة بالحديث عن الصلاة والإسلام فقد ترك ذلك للأيام ، ولما حضرت أمه رحبت بابنها البكر وقالت وكلها ضحك : أين البنات يا أمير ؟

فأشار إلى حجرته ثم قال كأنه فطن لشيء ما : أمي العزيزة عندما دخلت البيت ذكرت لي أن هناك أمرا مهما .. فما هو هذا الشيء المهم يا أمي الغالية ؟؟

نظرن إليه جميعهن لحظات وأخذن بالضحك والابتسام ، وسمع أنعام القادمة تقول : إيه يا عمري .. ألم يحدثك العم العزيز بالموضوع ؟!

فالتفت إليها مقطبا وقال : لي أسبوع لم أجلس مع أبي .. ما هي إلا دقائق .. إذا التقينا في المصنع ما هو الموضوع يا آنسة أنعام ؟؟ .. يبدو أنكم كلكم تعرفون بالموضوع إلا أنا ..

فقالت الأم مريم صادق : أنت لم تعد تسمع مشاريعنا وأخبارنا .. أنت تعيش في عالم بعيد عنا كأنك ما زلت في لندن ..

فقالت أنعام : باختصار يا بيك لقد اتفق عمي ناصح ووالدي ناجح على اقترانك بالآنسة المحترمة نوال .. التي توردت وجنتاها من الخجل ، وهي لما سمعت أبي يصارحها بذلك كاد رأسها أن يصل للسماء من الفرح والسعادة ..

فصاحت نوال : اسكتي ما أطول لسانك يا ابنة عزيزة ..

وكان عمري ينظر بعينيه إلى جميع العيون ثم قال : أمعقول هذا ؟! فأبي لم يفاتحني بذلك ولو على الهاتف .. !

فقالت قمرية أخته الكبرى : ماذا تقصد ؟ !

فقال بصوت ناعم : لا أقصد شيئا ولكن كيف تتفقون على أمر مهم كهذا دون أخذ صوتي ؟ أين الديمقراطية ؟!

فأجابت أمه : الأمر حدث بين والدك وعمك منذ يومين ولم أشاور فيه أنا ولا امرأة عمك هم اتفقوا وقرروا وما علينا إلا التنفيذ .. ونوال فتاة تحبك من أيام ذهابك إلى لندن ، وهي قد أنهت دراستها الجامعية وتعمل في مصرف السيد طارق صديق والدك

فقال موجها كلامه لنوال : يا نوال هذا زواج وليس لعبة ..

فقالت أمه : الليلة سنحتفل احتفالا صغيرا بموافقتكم .. لذلك سيأتي أبوك وعمك مبكرين من أجل المشاركة في هذا الحفل

فنهض عمري قائما وهو يقول : سأدخل للصلاة .. فقد سمعت المؤذن ينادي .. ألا تصلين يا نوال يا ابنة عمي العزيز ؟

فقالت بدهشة وهي تنظر في عينيه : أصلي !!

فقال باسما او متهكما : الصلاة .. ألا تعرفينها ؟ألم تدخلن عليّ وتقلن إنني صرت شيخا ؟ .. فالشيخ يصلي .. وزوجة الشيخ أيضا تصلي..

فردت عزيزة : اذهب فصلي .. سوف تصلي نوال يا عمري بيك .. سأعلمها الصلاة يا شيخ عمري

فالتفت إلى امرأة عمه وقال وهو يبتعد : ولا تنسي أن تشتري لها ثياب الصلاة وغطاء شعر الرأس

وتركهن واجمات حائرات فترة حتى قطعت أنعام الصمت قائلة : والله سوف تكونين أجمل فتاة يا نوال وأنت تغطين شعر رأسك ! .. وستخف زيارتك (للكوافير) إن لم تنقطع نهائيا وستتضايق ماري .. إذا فقدت زبونا آخر

فتبسمت الفتيات للتعليق الساخر وقالت قمرية : ومن هو الزبون الأول ؟

فأجابت أنعام قائلة : السيدة رشيدة .. لقد رحلت إلى أمريكا عند أولادها، فماري دائما تتحدث عن خسارتها لهذه الزبونة ، فقد كانت تتردد على الصالون في الأسبوع مرتين أو ثلاث غير المناسبات والسهرات ..

وقالت عزيزة لمريم : يا مريم بدأت أخاف من عمري .. لا أدري كيف أنتم ساكتون عنه لليوم ؟! .. منذ متى ونحن نرى مصلين في بيوتنا ؟

فقالت بدرية قبل أن ترد أمها : وهل الصلاة حرام يا امرأة عمي ؟

فأجابت عزيزة : لا أقصد ذلك ؛ ولكن عشرات السنين مرت ولم نر أحدا يصلي في بيوتنا منذ تزوجت عمك ناجحا ما رأيته يسجد لله سجدة واحدة .. وكذلك أبوك ناصح باشا

فقالت بدرية : أنا أقرأ كل الكتب الصغيرة التي يحضرها عمري .. وقد سمعت بعضا من الأشرطة (الكاسيت) التي ملأت غرفته .. حتى أنني فكرت أن أصلي مثله ..

فصاحت أمها مريم فيها : ما هذا الكلام يا بدرية ؟! فلنحول البيت إلى معبد ونستأجر إماما

فقالت أنعام ضاحكة وهازئة : الإمام موجود .. الشيخ عمري

جرت الموافقة المبدئية من كلا الفريقين وأصبح عمري خطيبا للآنسة نوال ابنة عمه الموظفة في البنك ، كان عمري يتجنب الصدام المباشر مع أبيه في هذه الفترة ، ورضي بالزواج بهذه الطريقة التي رسمها الأخوان ، ولقد كانت نوال الفتاة الحسناء سعيدة بهذا الزواج ، وكانت ترى أن عمريا هو فارس أحلامها وزوج المستقبل ، الحسن والرجولة والثروة كل ذلك موجود فيه ، ولكن التغيرات الأخيرة في شخصية عمري كانت غريبة على البيئة التي يعيشون فيها ، فهم عندهم انفتاح اجتماعي كبير على الأصدقاء والحفلات والنزهات ، وكانت تحلم بزوج يدور ويلف بها في مدن وعواصم الدنيا لترى العالم ، لذلك انقبضت نفسها وهي عائدة للبيت في ذلك المساء ، وهي تعد زوجها القادم بالصلاة ، إنها لا تدري كيف تصلي ؟ منذ ولدت لم تر أحدا في البيت يصلي ويصوم ، هذه الكلمات لا يرونها إلا في الأفلام والمسلسلات فكانت منقبضة ومهمومة وهي تتخيل أنها ستضع على رأسها غطاء خمارا .. نوال صاحبة الجمال والحسن والبهاء تغطي رأسها .. إنها مصيبة .. أخذت تتصور الفتيات المحجبات التي مررن بها أثناء دراستها في الجامعة ، فكانت تستغرب من حملهن كل هذه الثياب على أبدانهن وكانت تحب المزح والسخرية منهن ، فقالت لنفسها وهي تتذكر تلك المشاهد والصور : أخشى أن ألبس هذه الثياب يوما ما .. كنت أرى أن عمريا آخر واحد في الدنيا يتغير .. ولكنه يصلي منذ زمن وها هو رمضان على الأبواب .. فهل سيطلب مني الصيام ؟!

بدأت تفكر بالحياة القادمة وكلها خوف ووجل ، وعادت تقول لنفسها أثناء العودة للبيت في تلك الليلة التي يجب أن تكون من الليالي الجميلة في حياتها : منذ تغير عمري وسمعنا أنه تاب إلى الله لم نعد نسمع أنه ذهب للسينما .. للمسرح .. لم يشاهد في حفلة عيد ميلاد لم نره في مرقص إنني لم أكن أرى ذلك .. هل وقعت في ورطة ؟ .. إنه قد قال لي أثناء الوداع .. نوال هل ستصلين مثلي ؟ .. هل ستتوبين مثلي ؟ فقلت له باستسلام ودون تردد أو حتى تفكير : أنا افعل ما تريد وما تشاء .. أنا سأكون زوجتك وحبيبتك .. فرددت : أتوب .. ما معنى أتوب ؟ وأتوب من ماذا ؟ ثم سمحت لنفسها بالسوأل قائلة : هل عمري الزوج المناسب لك يا نوال ؟ .. الصلاة هل تمنع الرحلات ؟ أليس حلمي أن أزور كل مدن العالم ؟ هذا الحلم بدأ يتلاشى .. أنا لم أتزوج

بعد .. ما زال لدينا وقت لإنهاء كل شيء .. ويذهب عمري من حياتي .. آه يا دنيا .. عمري الذي تمنيته كثيرا .. كم تخيلت نفسي واياه ونحن نحلق حول العالم ؟! .. سنتمتع بثروات الآباء لقد تحدث معي قبل مغادرتهم وأعلمني أنه سيتصل بي عند الفجر لأقوم للصلاة .. كيف هي الصلاة ؟ .. عمري ما تعلمت ذلك ولا فكرت بذلك يوما .

كان تفكيرها بالصلاة يشكل لها هما كبيرا فهي تظن أن الصلاة صعبة ومعقدة أو كأنه صعود جبل عال .. لذلك فما كادت تدخل البيت وتدخل غرفتها مع شقيقتها أنعام وتلبس ملابس النوم وتضع نفسها على السرير الخاص بها فتقول لشقيقتها أنعام التي سبقتها للغرفة : إني خائفة من هذا الزواج ؟!

فقالت أنعام وكانت تدرك الصورة الجديدة لعمري وتعرف أحلام أختها نوال : معك حق لم يعد عمري عمريا الذي نعرفه .. المرح والمزح والكذب والغزل واللعن وحتى الوقاحة

فقالت نوال وكلها تفكير وقلق : ألم نلاحظ نحن كل ذلك كل هذه الشهور الفائتة ؟

فأجابت أختها : كانت عيوننا مغمضة .. فنحن منذ ما يقارب التسعة أشهر لم نر عمريا في فندق في مهرجان في صالة رقص أو موسيقى أو مسرح .. لقد كان على عيوننا نظارات سوداء

فعادت نوال تهمس : إني خائفة منه !

ـ هو ليس وحشا .. هو ابن آدم .. هو حبيب القلب .. كم ألف مرة سمعتك تتمنين الاقتران به ؟ .. ها هي الأمنية قد تحققت .. فاصبري .. وتغيري كما يريد منك .. ألم يتغير هو ؟ .. فهو ابن لندن ..وكم حدثنا عن مغامراته ونزواته هناك ، وها هو قد تغير يا نوال .. لا تفكري بالتخلي عنه .. ولا تدعي هذه الفكرة تكبر في نفسك .. حتى لا تندمي غدا يا حبيبتي .. وأنت يمكنك أن تعيديه إلى التقاليد والعادات التي شببنا عليها

فقالت : إنه يريدني أن أصلي

ـ صلي.. أو كلما سألك صليت قولي صليت

ـ أكذب عليه

ـ الحياة كلها كذب .. وهل هي أول مرة تكذبين ؟ !

ـ قد يعرف .. ولما نتزوج سيعرف كذبي .. سيغضب .. وأنت تعرفين غضبه .. فكيف عندما نكون زوجين ؟

فقالت أنعام : عليك بتغييره يا حبيبتي .. لا تفكري الآن بتركه لأنك تحبينه

فحدقت نوال بنظرها في السقف وقالت : أنا ألبس الحجاب والخمار ؟ ! .. إنني لا أكاد أصدق ذلك !

فضحكت أنعام وقالت : عليك أن تصدقي يا جميلتي .. الدنيا تتغير

ابتعاد عمري

بالتأكيد التغير من التبرج والسفور للحجاب الشرعي في مجتمع أو عائلات كلها على هذا النمط أمر صعب وغريب ، فلم يكن الأمر على نوال بسيطا وهينا كما نكتب في هذه الأوراق ، فأمر الحجاب عندهم أمر يدل على التخلف والرجعية والجهل والتعصب وغير ذلك من الأسماء الكبيرة في بابها ، لذلك إذا لم ينبع التغير من ذات ونفس الشخص ، فأمر الانقلاب صعب وقاس عليه وعلى من حوله ، فنوال لم تكن عندها هذه الرغبة وهذا النمط من الحياة الجديدة ؛ ولكن حبها لابن عمها الشاب لم يسعفها من رؤية ذلك الانقلاب في حياة عمري ، والتخلي عن السفور والتبرج بضغط من الآخرين ليس بالأمر الهين ، وعمري لما بدأ يشتد في قلبه الإيمان لم يكن يرى أن نوالا هي الزوجة المناسبة له ، كان يحلم بفتاة متدينة متمسكة بالصلاة والجلباب الشرعي ، فهو يريد زوجة جاهزة ملتزمة بأمر الله ، هذا عندما كان يفكر بزوجة المستقبل والزواج ، وكم من مرة سمع صاحبيه حسنا وعليا يشجعانه على الزواج .. فيقول : مهلا أيها الأحباب .. كان يريد أن يطمئن على أن توبته ليست نزوة عابرة أو سحابة صيف زائلة ، لذلك كان يشك شكا كبيرا أن تتقبل نوال ما تقبله هو وتخلع عنها ثياب الجاهلية ، فوضع الأسر لا يشجع على ذلك التوجه ، ستجد نفسها شاذة في العائلة ، وكان يحدث نفسه فيقول : أريدها هي أن تطلب فسخ الخطبة ، لا أريد أن يغضب مني والدي وعمي بسببها .. وإذا التزمت بما تعهدت سأقبل الاقتران بها .. وأسأل الله أن يوفقها ويهديها للصواب .. ويجعل في قلبها الشجاعة للصمود

فلما جلس مع حسن وعلي وحدثهما بقصة الخطبة التي رتبها الوالد ناصح ، فقال حسن بعد التهنئة والتبريك : والله جميل هذا يا أستاذ ! فتكون قد أنقذت نـفسا من الضياع والهلاك .. ولكني بصراحة أشك في بنات العائلات الكبيرة الغنيات أن يتركن السفور ويتغيرن بسهولة فحتى عندما تتدين فتاة منهن تراها أو تسمع عنهن .. فتراهن يأتين بموضات غريبة ويلصقن بالشرع موضات غريبة ، ولا يبحثن عن الأفضل والصواب .. وعلى كل حال نتمنى لها التوفيق والهداية .. فأنت تستحق فتاة تقف معك في مشوار الحياة وتكون معك ليس ضدك

وأخذ علي الحمد يتكلم عن أهمية التغير في حياة المسلم العاصي، وإن جرى ذلك التغير تدريجيا ولكن على أن يكون التائب راغبا فعلا بترك الحرام والكبائر ، فالله يسدده وينصره على مخالفيه ومثبطيه فقال ناصحا : عليك أن تتدرج معها يا عمري .. رويدا رويدا فشرائع الإسلام كثيرة فابدأ بالأول فالأول .. فالمرأة الصالحة خير متاع الدنيا

فقال عمري : أرجو أن يستجاب لدعواتكم ، إنني أرغب بامرأة صالحة

*****

كان ناصح الخابي قد علم من زوجته عن صلاة عمري وتردده على المساجد ، فكان يعتقد أن ذلك سينتهي بعد حين ، ولما تحدث مع أخيه ناجح بذلك الأمر ، عرض عليه أخوه أن يزوجه من إحدى بنات العائلة ، فربما الزواج يردعه عما هو مندفع إليه من صلاة وعبادة ، فوقع الاختيار على نوال ابنته لما بينهم من كلام قديم في ذلك الأمر ، وبما أن الشاب كما يعلمون عنه أنه غير متعلق بفتاة معينة ، ومثله الآنسة نوال ، فرأيا تزويجهما على أن ذلك خطوة وأمل قد تعيد الشاب إلى حظيرة العائلة من الاختلاط والمجون ، هذا التفكير البسيط في رأيهم قد يحل المشكلة التي ترفرف حولهم ، ففي نظرهم أن نوالا قد تستطيع إعادة عمري إلى جادة الصواب والأعراف المتبعة في العائلة ، ولكن عمريا كما عرفتم بدأ الهجوم قبلهم فوافق على الزواج ، ومن أول لقاء حث نوالا على الصلاة، بل كان يتصل بها عند وقت الفجر موقظا لها لتقوم إلى الصلاة ، فتتظاهر أنها تفعل ذلك وتشكره على حماسه وحبه .. وبعد حين يسير ضجرت الفتاة من ذلك ، فشكت ذلك لوالدها ، ففكر قليلا قبل أن يرد قائلا : إيه يا بنية ! نحن أحببنا اقترانكما لتنقذيه مما هو فيه من دجل وشعوذة وخبل .. فأخشى الآن أن يفسدك

فقالت بحيرة وامتعاض : لقد خربط حياتي .. أنا لا أعرف الصلاة ، ولا أريد أن أعرفها ، فكلما يتصل بي ويقول صليت أدعي أني صليت .. كلما أذهب لبيتهم لزيارة امرأة عمي والبنات آخذ معي الخمار غطاء الرأس ولا أذهب للكوافير ذلك اليوم .. أبي إني خائفة منه

فقال الأب المتردد : وهل يضايقك بغير ذلك ؟

ـ لا ؛ ولكنه يحدثني عن النهاية والآخرة والتوبة .. والذنوب والربا والمصير الأسود لمن

يعصي الله .. أنحن عصاة يا أبي ؟!

ـ أخائفة أن يفتنك ويعيدك للعصور والقرون الماضية .. أم أنت بحاجة إليه ؟ أنا أعرف ميلك نحوه .. أم تصبرين كم شهر لعلك تمتصين حماسه وتدينه ..؟

فقالت بضيق ونفور : لنا شهران مخطوبان .. لم يفكر مرة بأن يتصل بي ليصحبني في نزهة في رحلة إلى البحر إلى دخول دار سينما .. أنا لا أريد هذه الحياة التي يحياها عمري ..

فنطق الأب بعد تفكير ونظر : هل أتحدث مع أبيه ليتكلم معه .. أم تحاولين مرة أخرى ؟ فربما انصلح على يديك .. فيمكن لناصح أن يضع حدا لهذه المشيخة والدروشة

قالت : لست أدري ! لم أعد أطيق أحاديثه يا أبي ! أفكر بأن نفسخ هذه الخطبة

فوعدها ناجح بالحديث مع أخيه ، وطلب منها التريث في الحديث عن فسخ الخطبة ، فلابد أن عمريا يقصد الوصول لذلك ، فقالت بحزن : لقد قمت مرة فجأة بزيارة المصنع .. فغضب غضبا حادا ولولا الحياء لضربني .. مدعيا أنه يغار عليّ من عيون الناس .. كأنني أول مرة ألبس هذه الثياب القصيرة

ـ حسنا يا ابنتي ! سوف نضع حدا لهذا الحمق والهبل الليلة سنذهب جميعا إلى المسرح فقد اتصل بي والد سميحة وأخبرني أنه اليوم قد بدأ عرض مسرحية أحمق في غابة الشياطين

فقالت : أنا آسفة يا أبي عن مرافقتكم .. لقد دعتني الليلة الآنسة ناريمان لحضور حفلة موسيقية في نادي هواة الموسيقى

فقال مرحبا : رائع ! اذهبي مع ناريمان الليلة وسنسهر غدا في المسرح .. تمتعي بالحياة وبالشباب كنت أظن أنك ستسعدين مع ابن أخي الأهبل..

شكى ناجح الأخ الاصغر لأخيه ناصح تصرفات وجهالات عمري مع ابنته ، ومنذ خطبا لم يدخلا معا سهرة أو حفلة أو فيلما ، ولم يقصر ناجح فقد وضع مئات العيوب في ابن أخيه وخطيب ابنته ، مما هيج ناصح حتى اشتد غضبه على ولده فقال له : هيا بنا إلى المصنع لنوقف هذه المهزلة .

فقال ناجح : عندما يعود للبيت نتحدث معه بروية فيكون ذلك أفضل .. لا داعي لأن

يـعرف القاصي والداني بمشاكلنا

لذلك عاد الأخوان للبيت مبكرين على غير العادة ، وكانا واجمين كاسفين كأنهما فشلا في تحقيق ارباح في صفقة ما ، فأدركت الأم مريم أن وراء الأكمة ما وراءها ، ولم يفصح ناصح أو ناجح بشيء ؛ ولكنها أدركت أن الموضوع يخص عمريا عندما قام ناصح بالاتصال به في المصنع وطلب منه الحضور العاجل ، فلما أتى ملبيا النداء دخلا به مكتب السيد ناصح بالفيلا وكان عمري يظن أن الاجتماع سيكون حول المصنع ، ففوجئ عندما بدأ الهجوم على الصلاة والإسلام والتدين ويصفونه بالحمق والغباء والدروشة ، فلما نـفسا عما في قلبيهما ، قال عمري بهدوء أعصاب فقد تمالك نفسه من الغضب والانفعال : الإسلام أيها السادة لا يمنع الرجل أن يكون غنيا مليونيرا .. الصلاة لا تعطل الإنسان عن العمل والإنتاج .. الصلاة تغطي الجانب الروحي من الإنسان ، تدفعه للإخلاص في عمله .. الإخلاص مع الناس وعدم الغش .. وأنا لم أطلب منكم تزويجي نوالا .. أنتم اتفقتم وقررتم ووافقت مع أن هذا مخالف للأعراف المتعارف عليها في العائلة .. وأنا رغبت أن تكون زوجة المستقبل امرأة تعرف دينها وصلاتها .. وأنا لما زارت الآنسة المحترمة المصنع غضبت عليها ومنها ؛ لأنها جاءتني متبرجة بكامل زينتها كما تقولون والمصنع ليس مكانا مناسبا للقاءات العاطفية ، وثانيا أتت من غير أن تتصل بي .. أنا لا أحب المفاجآت

فهاج الأب المشحون بالغضب فأخذ يسب ويشتم ويهدده بطلاق أمه وطرده من العمل إن لم يترك الصلاة والدين ، فرد عليه عمري قائلا : هذا الصياح لا يؤثر فيّ يا أبي .. أنا بلغت سن الرشد منذ سنين .. أنا مللت الخمر في باريس ولندن ، ومللت النساء والحانات .. هل نسيتم أنني قضيت سبع سنوات في أوروبا بين الشراب والقمار وسيقان الغانيات ؟! .. أريد أن أتوب أريد أن أتوب .. يجب أن تقفوا معي لا ضدي .. هذه حياتي الخاصة .. أليس لكل منا حياته الخاصة .. نوال لا تريدني مع ألف سلامة .. أنا وافقت كما قلت لكما ..لأنني لا أريد زعلكما وليس لي شهوة إلى النساء .. وإن حدث ذلك فطمع بالولد الصالح

فعاد الأب يصرخ ويهدد ويتوعد ، فقال عمري : أنا غدا سأقدم استقالتي من إدارة المصنع

ولا تظن أنك إذا طردتني من العمل لن أجد عملا .. بل قد اضطر وأهاجر من هذا البلد .. وإذا طلقت امرأتك فهذا شأنك .. لست آسفا على هذه الحياة

فعجب الرجلان من كلام الشاب وصلابته وتحديه لهما ، وتغامزا وانهالا عليه ضربا وصفعا وبصقا مما أدهش عمري الذي أخذ بالصراخ ففزعت الأم والبنات وسحبوه من بين أيديهم وقد سالت الدماء من أنفه وفمه ووجهه وهو لم يحاول المقاومة ، فأخذت بدرية تمسح الدماء عن وجهه وتحاول قطع نزيف الأنف وجلس عمري يبكي ويتنهد وأمه تقول : ألم أقل لك دعك من هذا الجنون يا ولدي ؟ !

فصاح بحرقة وضحك مرتفع : أنتم المجانين .. هكذا أضرب .. والله لولا الحياء والدين لضربتهما الاثنين معا

فسمع الرجلان الغاضبان الثائران هذا التهديد فأسرعا إليه من جديد يوجعانه ضربا بالأيدي والأقدام والأحذية ، ودب الصراخ في البيت ثانية حتى كفا عن ضربه ، وسمع أبوه يقول صارخا : خذوه لغرفته ، وغدا صباحا إذا لم يأت للاعتذار والتعهد أمامي بترك خبله وحمقه ثم يذهب ويقبل قدمي نوال ناجح ليرى مني أشد من ذلك ..

فسحبت البنات أخاهن لغرفته وقمن بإسعافه ، وأخذت الأم تصرخ بوجه زوجها وأخيه وتقول : بأن العلاج لا يكون بهذه الوحشية والخشونة

فأخذ الرجل يؤنبها ويلومها على صمتها عليه منذ عرفت ذلك فأخذت تدافع عن نفسها .

وعندما استيقظت الأسرة في الصباح التالي لم يجدوا عمريا فقد غادر البيت ، فظنوه ذهب للمصنع مبكرا كعادته الجديدة ، فاتصلوا بالحرس فأنكروا رؤيته ، تسلل عمري في الليل بعد منتصف الليل من البيت وركب سيارته وانطلق بها بعيدا عن الدار ، ولم يشعر به أحد ولم يسمع أحد صوت ماتور السيارة لأنه عندما عاد مساء أمس تركها على الشارع لم يدخلها مرآب الفيلا ولقد كانوا مستغرقين في النوم العميق بعد أحداث المساء .

هذا يوم مشهود في حياة عمري ، ظل يذكره طول حياته ، فسار إلى أحد المستشفيات وادعى أنه تشاجر مع ناس فضربوه ، وقدم شكوى ضد مجهول لشرطة المستشفى ، وقام قسم الإسعاف

بالإسعافات اللازمة، وبعد ساعة غادر المستشفى ، فنزل إلى فندق شعبي ، واستأجر سريرا وطرح نفسه عليه ، ولم يستيقظ إلا بعدما ارتفعت الشمس ، فطلب الإفطار وبعد أن أكله عاد للنوم ، وفي المساء نزل للسوق واشترى ملابس جديدة وطرح الملابس التي كانت ملوثة بالدم في المزبلة وعاد للفندق ، ولما هبط الظلام والليل نزل عمري المدينة فوضع سيارته بموقف سيارات بالأجرة ، وعاد للفندق الشعبي فندق الأنصار ثانية ، ورقد حتى الصباح ، لم يحاول الاتصال بأحد الزملاء أو الأقارب كان غاضبا على المعركة التي تعرض لها من أبيه وعمه ، فلقد تعاملوا معه تعامل أولاد الشوارع والسوقية ، فكان مذهولا ومصعوقا من تصرفهم هذا، أمضى ثلاث ليال في الفندق صامتا يأكل وينام ، لقد كان مذهولا من الإهانة التي تعرض لها ويقول : زعران الحارات لا يفعلون مثلهم .. حسنا يا عمي .. حسنا يا نوال دلوعة أبي .. صبرا آل الخابي صبرا

بعد الأيام الثلاثة وضحت في ذهنه الخطة التي سيسير عليها، غادر الفندق وقد دفع إيجار الغرفة أو السرير ، وسار نحو موقف السيارات وأخذ السيارة وانطلق بها نحو مدينة أخرى وقد وضح الهدف أمامه .

زواج عمري

بداية أشاع المدير العام لمجموعة شركات الخابي في مصنع السجاد أن السيد عمريا مريض وعاجز عن ممارسة العمل ، ولما كثرت الهواتف التي تصل البيت تسأل عن نائب المدير للأطمئنان عن صحته ، اضطرت الأم أن تقول كاذبة : إنه سافر لإجراء بعض الفحوص الطبية في خارج القطر فسكتت الهواتف أو خفت عن البيت ، وجميع الاتصالات التي قامت بها الأم بحثا عن عمري لم تجد شيئا ، فاتصلت بأصدقائه من المهندسين والأطباء ورجال الأعمال ، وأكثرهم رد بأنه لم يره منذ شهر أو شهور أو أسابيع .

فقد كان عمري منذ اتخذ أهم قرار في حياته وهو الالتزام بالصلاة والدين قد خفت علاقته بالآخرين ، كان متعطشا للإيمان والحياة الروحية.

حاولت نسرين ـ التي استلمت إدارة المصنع مؤقتا ريثما يظهر عمري ـ مع حسن بناء على حديث خاص بينها وبين ناصح ، فسألته : هل اتصل بك عمري خلال الأيام الماضية ؟ فنفى الاتصال ودهش بالطبع لهذه السؤال لمعرفتهم أن عمريا مسافر للعلاج خارج البلاد ، ولما أدركت استغرابه من سؤالها عن عمري ، قالت له بكل صراحة : لقد أخبرني عمري بيك صاحبك عن علاقته القوية بك وثقته الكبيرة بك .. فاعتبرني مكانه وحدثني عن كل شيء يدور في وسط العمال ؟

فقال حسن بحيرة وتعجب : أحدثك بكل شيء لم أفهم ؟!

فقالت وهي تتصنع الابتسام : كما كنت تفعل مع عمري .. ألست مخبرا له يا حسن ؟ مالك تنكر .. هو قال لي ذلك ؟!

غضب حسن وقال بحدة وهو ينظر في وجهها : إنك حمقاء .. مجنونة .. أنا جاسوس !

فصاحت وهي تقف عن مقعدها : أنا مجنونة ؟!

فصاح هو الآخر : وهذا الكلام الذي تتكلمين به عني وعن عمري .. أليس كلام مجانين ؟

طردته من المكتب بعدما وقف وتجمهر عدد من الموظفين على بابه ، فخرج منتفخ الاوداج وهو يهدر قائلا : إيه والله إنها لمجنونة تقول عني إنني جاسوس للسيد عمري اسمعوا هذه المجنونة

أحست نسرين أنها تسرعت بالمكاشفة معه ثم قالت لنفسها متسائلة : أيهما الصادق ؟ هل سخر مني عمري عندما أوحى لي بأنه عينه بين العمال ؟ إنه ماكر ! .. والله لن يبقى حسن هذا في المصنع بعد اليوم

فلما انصرف الموظفون إلى مكاتبهم اتصلت بالسيد المدير وأخبرته عن تهجم حسن عليها في مكتبها ، فأمرها بطرده على الفور ، فأرسلت وراء أمن المصنع وأمرتهم بطرد حسن بناء على أمر صادر من المدير وهو آت في الطريق ، فبلغ الأمن الخاص حسنا أمر فصله وطرده ، وكان حسن قد لبس ملابسه التي يأتي بها وخلع ملابس العمل قبل طلب رجال الأمن منه مغادرة المصنع ، فدخل على المحاسب متوترا ومحتدا وقال : بعد أسبوع سأمر عليك ، أرجوك يا مروان أن تكون قد جهزت لي حسابي حتى لا تروا وجهي ثانية

أخذ مروان يلاطفه ويهدئ من انفعاله ويقول له : لما يأت الأستاذ عمري ستعود للعمل وتتصالح مع هذه المديرة

شكره حسن وغادر المصنع ، وكان العمال قد علموا بالقصة واهتزت أعصابهم لـمَ سمعوا ، وفكر بعضهم بترك العمل تضامنا مع حسن ، فخاطبهم المهندس رياض وأعاد لهم الصواب فقال : يا جماعة لما يأت حضرة نائب المدير الاستاذ عمري .. سيصلح الأمر .. هو قد سافر لإجراء فحوصات طبية في بريطانيا وخلال أيام سيكون هنا .. لا تتعجلوا وتكبروا المشكلة وأنا سأتحدث مع الآنسة نسرين في شأن الأخ حسن

فهمس أحدهم بانفعال : قصدك المدير العانس نسرين

ولما هدأ انفعال العمال وتعاطفهم مع حسن ، عاد العمال للعمل آملين بعودة عمري لحل الإشكال والتصرف مع هذه المرأة التي تتهم حسنا بالجاسوسية ، وأنها قد نسيت نفسها بأنها هي الجاسوسة ، فعلق أحدهم : الملدوغ من الأفعى يخاف من الحبل .. والذي يعمل جاسوس يظن أن كل الناس مثله !

لقد استطاع المهندس رياض السيطرة على الموقف ، وتوقف العمال عن التمرد وتعطيل العمل ودخل على نسرين بعدما اشتغلت الماكينات من جديد وقال : يا نسرين كدت أن تعطلي الشغل

عليك بحل المشاكل بهدوء وذكاء .. لو أجلت قرار الفصل لبضع أيام حتى تهدأ نفوس المتعاطفين معه .. فيفصل بهدوء ..

فقالت : الملعون يقول عني مجنونة ..

فقال رياض ضاحكا : أنت في هذا التصرف فعلا كنت مجنونة

فقالت : أتسخر مني يا حضرة المهندس ؟!

فقال : سلام .. قبل أن تفصليني .. سلام

وغادر المكتب مسرعا ، فمشت نسرين نحو مرآة ونظرت فيها إلى وجهها وعينيها ثم أصلحت من شعرها ومكياجها وقالت : أحقا أنا مجنونة ؟ ! .. قاتل الله العنوسة .. لو أنا الآن أم ولي أولاد .. أيحدث لي هذا أو أتصرف مع هؤلاء هكذا ؟ .. أين الرحمة يا نسرين ؟ يبدو أنني تسرعت كما قال المهندس رياض .. ألم يقل لي عمري إنه جاسوسه على العمال ؟ .. لا لم يقل لي ذلك .. أنا استنبطت ذلك من كلامه يا له من ذكي عبث بي ! .. متى يأتي ابن الحلال وأخلص من هذا الشغل والدوام .. متى ؟؟ ..ولكن كبرت سني وصرت في الأربعين لا .. ثمان وثلاثون سنة فقط .. لقد بقي سنتان للأربعين .. قاتل الله الوحدة .. ما أجمل الأمومة كما يقولون !

*****

مضى أسبوع على بيت ناصح ولا حس ولا خبر عن عمري .. لا اتصال ولا سؤال ولا حتى اتصال في المصنع ، ولا حتى مع حسن ، وقامت الأم بنفسها بزيارة حسن في بيته وسألته عن عمري واعترفت له بما جرى بين عمري وأبيه ، فاستغرب حسن مما حدث ، وأقسم للسيدة بأنه لم ير عمريا منذ ذلك اليوم ، ولم يتصل به منذ غاب عن المصنع ، ووعدها إن تحدث معه أن يخبرها حالا وفورا .

وكان ناصح الخابي يتظاهر بأنه غير مهتم بغياب ولده وغير مكترث لإختفائه ، ويرى أنه يستحق ما فعله به من أذى وهوان ، وكانت الاتصالات بين الأخوين ناصح وناجح لا تنقطع بالسؤال عن الولد الهارب ، وحتى نوال شاركت في السؤال عنه ، وفي إحدى المرات ردت عليها بدرية وصاحت فيها غاضبة : أنت السبب يا نوال .. كله من تحت رأسك .. أنت تعرفين أن

عمريا قد تدين وترك الماضي وراء ظهره فلماذا تقبلين الزواج منه ؟ .. فأخذت نوال تبكي على الهاتف ثم تركت السماعة مفتوحة وهرعت إلى حجرتها تواصل البكاء وإظهار الندم و هي تصرخ : أنا السبب .. أنا السبب ! .

لقد توترت العلاقات بين الأسرتين وخصوصا النساء والبنات ، فعمري هو الابن البكر للسيد ناصح وابنه الآخر سمري ما زال يدرس في أمريكا ، وطفقت مريم تطلب من زوجها إبلاغ الشرطة ، فيضحك من طلبها ويقول : يا حمقاء .. لو حصل له شيء لاتصلت بنا الشرطة .. هل هو طفل لنخبر الشرطة لتبحث عنه ..؟

فتسكت الأم ، وقد مضى شهر على اختفائه عن البيت فزاد الوجوم والحزن كأنهم فقدوا شخصا ووراوه التراب ، وبدأت أعصاب ناصح تضعف وتنهار وارتبك دوامه ونشاطه وتحركاته ، وذهب بنفسه لحسن وترجاه أن يحدثه عن مكان عمري ، فأقسم له حسن كما أقسم من قبل لأم عمري أنه منذ غاب عن المصنع لم يره ولم يتصل معه ، فعاد للبيت كئيبا وهو يقول : لقد ضاع الولد يا مريم ! .. ماذا كان يضرني من صلاته وصومه ؟! لقد اضطرب فكري ليلتها .. لقد ساهمتم بتضخيم الأمر لديّ ..المصنع نصف العمال تركوا العمل تضامنا مع هذا المنحوس حسن .. فنسرين هذه يبدو أنها خرفت ، ولم تعد تحسن السيطرة والقيادة .. المهندس رياض يشكو من قلة العمال المهرة .. وحسن مصر على عدم العودة ، لقد مشى إليه رياض أكثر من مرة بل ترك الشغل في المصانع ويشتغل مع معلم كهربائي .. أنا كنت أطمع أن يكبر المصنع ونصدر لـعدد كبير من الدول .. سأحتاج إلى ترتيب أموري من جديد .. بدأت أشعر بكبر خطئي لقد كان تصرفنا تصرفا ولدانيا .. لعنة الله على الشيطان .

*****

تقع على ساحل البحر مدينة عظيمة تكاد تعادل العاصمة في كبرها؛ ولكن ينقصها الكثير من الدوائر الرسمية والوزارات ، فرحل إليها بطل هذه الرواية ، وقرر السكن والحياة والاستقرار والعمل فيها ؛ ولكن كان يقلقه أن يلتقي بأحد معارفه ثم يصل الخبر لأسرته ..كانت خطة عمري الفرار بدينه والبعد عن التلوث وفساد الأسرة ، كان في نظره أن مجتمع الأسرة مجتمع

فاسد .. فرأى أن هذه المشكلة هيأت له فرصة لبدء حياة جديدة .. يريد أن يعتمد على نفسه ويجمع ثروته بعرق جبينه ، لقد كان يملك رصيدا جيدا في المصرف ، فهو له أكثر من خمس سنوات في السوق وكان يقبض راتبه كبقية الموظفين والعمال ، وهذا رصيد خاص لا دخل للأسرة فيه .. وهو يملك سيارة حديثة أهداها إياها والده عندما استلم إدارة المصنع .. فكان يرى أن الحياة بعيد عن الأسرة والمجون وليل السهر والحفلات الكثيرة خيرا له .. فهو لا يستطيع أن يقول لأمه لا تخرجي بثيابك القصيرة إلى أي مكان .. لا يستطيع أن يزجرها أن لا تضع الأصباغ والألوان على وجهها وتخرج للسمر مع الرجال .. لا يستطيع منعها من قضاء عدة ساعات عند الكوافير الرجل .. لا يستطيع منعها من مصافحة الرجال الأجانب والاختلاط بهم .. لا يستطيع منع الرجال من الجلوس معها في البيت وخارجه .. وحتى أختيه لا يستطيع منعهن من مخالطة الأقارب الرجال والأصدقاء وغيرهم .. لا يستطيع إنكار ذلك المنكر .. إنهن يسهرن مع الرجال مع النساء مع الأصدقاء .. حياة مجرمة آثمة .. أين ذلك من طهارة الإسلام والمحافظة على طهارة الرجال والنساء ؟

فهو يرى أن هذه الجريمة التي ارتكبها والده بحقه لصالحه .. فقد أصبح حرا طليقا .. يصنع لنفسه بيئة صالحة طيبة .. لا يرى الآثام والمعاصي ويسكت عليها .. يصلح نفسه إصلاحا جيدا فاختار مدينة البحر الريحانة لتكون مدينته ومأواه .. واختارها أيضا لكثرة الأغراب الذين يترددون عليها من رجال أعمال وسياح وسواقين وبحارة .. فالوجوه الغريبة في هذا الميناء الكبير غير مريبة ، فلا أحد يهمه قصته وحكايته ، فبعد أيام قضاها في الفنادق وجد مسكنا أنيقا وجميلا في حي الصخرة ، وكانت أول خطوة بعد سكنه في البيت الجديد أن اشترى بعض قطع الأثاث المهمة والضرورية للحياة الطيبة .. ثم قرر أن يبيع السيارة الحديثة ويشتري غيرها قديمة نوعا ما ، فنزل بها إلى حراج لبيع السيارات ، وخلال أيام وفق لبيعها واشترى سيارة متواضعة لقضاء الحاجة ، وبعد حين فكر بالزواج ، ففكر بالاتصال بحسن ؛ ولكنه قال : علاقتي بحسن كانت مكشوفة..لابد أن يتصل به أهلي .. أنا لا أريد أن أعود إليهم قبل أن أسمع أنهم تركوا وهجروا منكرهم وفجورهم .. فبعد حين سأزور المدينة وأتحدث مع الشيخ علي الحمد .. فقد

كان يحثني على الزواج كثيرا قد أجد لديه فتاة تناسبني وتقبل ظروفي ..

أطلق عمري منذ رحل وهجر بيت العائلة لحيته ، وأخذ يضع على عينيه نظارة ملونة ، ورأى أن ذلك يساعده على إخفاء شخصيته عن الفضوليين الذين يلتقى بهم ، وترك لبس البدلات وربطات العنق .. واشتغل في أحد المصانع الكبيرة في قسم المحاسبة ، وكانت مصانع الشركة بعيدة عن مكاتب الإدارة .. قضى عندهم شهرين ثم تركهم ، لم يرتح للعمل معهم ـ فقد وجد أن هناك عمليات تلاعب وخداع تحدث داخل قسم المحاسبة ـ فقدم طلب استقالة فوافقوا عليه سريعا ، فقد لمس الإداريون عنده لمسة صدق وعدم رضا عن التلاعبات التي تجري .. فانتقل للعمل في شركة تخليص ضخمة وصبر فيها ثلاثة أشهر أخرى ، ثم فكر بالاستقلال بالعمل .. فأخذ يفكر بمشروعه الخاص ، وكان خلال هذه الشهور قد نسي أهله ومشكلة هجره بيت العائلة ، وما زال يحلم بالزواج ، فخاطب نفسه قائلا : عندما أفتح مصلحة تدر دخلا مناسبا سأتصل بصديقي علي الحمد وأطلب منه أن يبحث لي عن فتاة مناسبة متفهمة لظروفي .. فالزواج لابد منه حتى يعف الإنسان نفسه ويبتعد عن شهوة النساء وينشغل بآخرته ويدبر أمور دنياه

فاهتدى صاحبنا عمري إلى إنشاء معرض لبيع الأثاث ، كغرف النوم والمقاعد والكنبايات والخزائن ، وقد وفقه الله سبحانه فوجد متجرا في أكبر سوق بالمدينة قام مستأجروه بإخلائه لظروف مالية تعصف بهم، فوقع عقد الاستئجار مع مالك المحلات في المجمع الكبير ، وخلال شهر واحد كان المعرض قد تهيأ للعمل والبيع والشراء .. واشتغل لديه شابان غريبان عن المدينة واختارهما من أهل الصلاة والطاعة ، ثم نزل عمري العاصمة الكبيرة للالتقاء بالشيخ علي الحمد ، ولما خلا البيت من الضيوف والزوار كشف نفسه للشيخ ، دهش الشيخ من ظهور عمري فعلق قائلا : يا رجل الدنيا مقلوبة عليك منذ اختفيت !

فقال عمري : قبل أن أقص عليك قصتي سأقول لك بالذي أتى بي إليك .. والعودة لأهلي لا تحدثني عنها ..

فقص عليه علي الحمد عن زيارة أمه لحسن ثم زيارة أبيه والمهندس رياض لحسن ، والأسف

والندم والبكاء ، فقال عمري : بل هذا كان خيرا لي .. حسنا سأقص عليك قصتي قبل ذكر حاجتي إليك ..

فتحدث عن الإهانة الكبيرة التي أصابته من عمه وأبيه ، وما تعرض له من الضرب والبصق والصفع مما أدهش علي ، وبين له أنه قد حصل على تقرير طبي من المستشفى بها أصابه من اللطم والأورام ، ثم حدثه أنه بحاجة لهذا الهجر والابتعاد ، وأن طريقه غير طريقهم ، ولما سمع علي كلامه تعاطف معه وقال : فعلا أنت بحاجة للحياة وحدك .. فهؤلاء أصحاب الملايين حياتهم سيئة ولنقل أغلبهم .. فالخمر والنساء والتبرج والخلوات كل ذلك موجود بينهم ؛ ولكن لو حاولت دعوتهم وتغييرهم ..

فرد عمري قائلا : أنا وضحت لك وجهة نظري .. وأنا ضعيف أمامهم ولا قدرة لي الآن على إحداث أي تغيير .. فها أنت قد رأيت عندما حاولت تقويم فتاة تحلم بأن تكون زوجتي وتدعي أنها محبة لي ما حل بي .. وأنا الآن يا صاحبي قد فتحت محلا تجاريا ، والأمور تسير بفضل الله على ما يرام .. ولا أريد أن أذكر لك مكاني لأسباب خاصة ولأرفع عنك الحرج إذا أخبرهم أحد أنني التقيت بك .. فأنت اجتمعت بي ولكنك لا تعلم مكان سكاني

ثم حدثه عن رغبته بالاقتران بفتاة صالحة وتعرف ظروفه ، فوعده الشيخ خيرا ، فقال عمري مودعا : ثق بي يا أستاذي ! .. وسأمر عليك بعد شهر .. فإذا دبرت الأمور سأتزوج خلال يومين أو ثلاث ثم أعود إلى حيث أقطن ..

فقال علي متأثرا : اسمع يا صديقي أنا أحببتك في الله ، ومسرور منك منذ تعارفنا ، وأعرف مدى مجاهدتك في قوم يرون الجاهلية حقا وصوابا .. فما رأيك أن نشرك حسنا معنا ؟ .. لا نريد معرفة منزلك الآن لنستطيع أن نقسم صادقين بأننا فعلا لا نعرف مكانك .. وحسن قد ترك المصنع وكثير من أصحابه بعدك بأيام والأهم أن للأخ حسن أختا فاضلة ..

صمت عمري بضع ثوان وقال : لا بأس .. المهم فتاة ترضى بالحياة معي وسأطل عليكم بعد شهر وهذه ألف دينار تصرفوا بها حتى أعود

فقال علي : خذ فلوسك ، عندما تأتي في المرة القادمة سيكون الأمر بإذن الله مهيئا ، ولن نحتاج

لكل هذا المبلغ ..فحسن رجل مؤمن وأخته وأسرته كذلك ولا نزكي على الله أحدا .. وأقلهن مهورا أكثرهن بركة

فشكره عمري معانقا له وانصرف عائدا لمدينة الريحانة .

رسالة لم تقرأ

مضى عام كامل على غياب عمري عن أسرة الخابي ناصح ، فظهرت العصبية الشديدة على أخلاق ناصح ، وقد أثر هذا الغياب على نفسيته وصحته ومزاجه ، فعندما حادثه أخوه ناجح بأن عريسا يطلب يد ابنته نوال تحدث معه بعصبية وأمره أن يزوجها على الفور ، ولما دعي لحفلة الخطبة لم يذهب وأرسل زوجته وبناته نيابة عنه .. بصعوبة أدرك إنهيار مصنع السجاد ، فقد نـقل نسرين إلى مصنع آخر ، ووضع ابن أخته جبرا نائبا عنه في إدارة المصنع ، وقد اكتشف خلال هذه السنة أن ابنه كان محبوبا من العمال وغيرهم ، وأن الاختلاط بالعمال ومشاركتهم عواطفهم وأحلامهم ومشاكلهم أفضل من التعامل معهم من فوق .. فكان عندما يتذكر آذاه وغضبه على ولده وهو يرفسه بـقدمه ويلكمه بيديه يعض على شفتيه من الندم والأسف ..ثم يحقد عليه لغيابه عنه بهذه القسوة والإهمال وكأنه ما صدق أن يتعرض لهذه الإهانة ليرحل .. ندم وحقد .. كيف يعيش بدون أبيه ومال أبيه ؟ .. كان يتمزق ناصح من الداخل بسبب هرب ابنه البكر ، ويتمزق قهرا عن تخليه عنه وهو السيد المطاع .. ورغم الجرح الغائر في النفوس فالأيام تنسي الغياب ، وعندما يسمع ابنته بدرية تقول : يا أبي افرض أنه ما زال في لندن

فيجيبها قائلا بأسف : هناك فرق يا بنية بين الغائب باختياره وبين الغائب المجهول .. كنت أضع كل آمالي الكبار عليه في المستقبل .. والله لا أدري لماذا نحن نكره هؤلاء المتدينين ؟! .. نتحدث عن الحرية الشخصية والحرية الدينية وغير ذلك من المسميات الكبيرة ولا نمارسها .. نريد أن نكون مثل هؤلاء الأجانب في كل شيء ولكننا لا نستطيع .. إني جد آسف على ضربي لذلك اللعين .. كيف يهون عليه فراقنا كل هذه المدة ؟ ألهذه الدرجة قلبه قاسي علينا .. أين الإيمان والإسلام الذي يتحدث عنه ؟.. إنه دجال .. لن أغفر له هذا العمل سوف يرى مني شيئا كبيرا أنا وإياه والزمن

قالت بدرية البنت الصغرى : لا تقل ذلك يا أبي فقلبك كبير .. فهو منذ أن تعلق بالإسلام والتوبة .. تغير فكره .. فهذه الكتب التي كان يقرأها تتحدث عن الصدق والوفاء والمنجيات من النار وعذابها .. وفيها تحريم الخمر والربا والميسر والصور والتماثيل وتحريم خروج المرأة

بثياب جميلة سافرة وإبداء زينتها للرجال والاختلاط والخلوة والسفر بدون رجل يحميها وغير ذلك .. فهذه الأشياء وغيرها قد قرأتها في تلك الكتيبات التي كان يقرأها .. فعندما يقارن بين ما يقرأ وحالنا يجد الفرق شاسعا .. فوجدها فرصة للابتعاد عنا ..

فقال ناصح ساهما وقد تأمل بكلام ابنته : إيه والله هو ما تقولين .. وجد أننا في واد وهو في واد لذلك عندما أراد أن يفرض أوهامه على نوال اشتكت لوالدها الذي أقنعني بأن نمنعه من إفساد حياتنا وتقاليدنا وحريتنا قبل أن يبدأ أن يقول لنا هذا حرام هذا لا يجوز هذا ممنوع فظننت أن كفين منا ينقلب صاغرا ذليلا هاجرا لما هو فيه .. لقد أخطأت التقدير .. فما صدق اللعين أن تصرفنا معه ذلك التصرف الاهوج ليهرب .. على كل حال سوف يعود كالأرنب يوما ما .. مصيره أن يحتاج الينا .. عندما تخلص الفلوس التي معه سيعود ..

فقالت بدرية بحزن : أرجو ذلك يا أبي ! فعمري ذكي وإذا اقتنع بشيء فمن الصعب التراجع عنه لقد عاش في الغرب سبع سنوات تعلم فيها أشياء كثيرة من هؤلاء الأجانب

فضحك ناصح وقال بحقد وغضب : ماذا تعلم ؟! تعلم الزنا والسكر .. ماذا تعلم ؟!

فقالت قمرية التي كانت تسمع هذا الحوار بين والدها واختها الاصغر منها : معه شهادة يا أبي

فقال بتوتر وحقد واضح في نبرات صوته : لا أدري كيف نجح هذا الملعون ؟ .. كان يشتغل هناك ليلعب القمار في صالات ونوادي القمار .. أين أمكم ؟

فأجابت بدرية : في جمعيتها اجتماع يفكرن بعمل حفلة للتبرعات لأحد المشاريع الخيرية

*****

ذات يوم وبينما الآنسة بدرية تجلس في حجرتها وقد رجعت من العمل ، دخلت عليها الخادمة حسنية وهي تقول : هذه رسالة لك يا سيدتي .. لقد وجدها عمران في صندوق البريد وهي باسمك

استغربت بدرية فهي كسولة في كتابة الرسائل ، ولا تظن أنها كتبت عشر رسائل في حياتها ، فمن هذا الذي يكتب إليها ؟! فقالت مخاطبة الشغالة : ممن يا حسنية ؟ !

فردت الأخرى : لا يوجد عليها اسم

خطفت الرسالة من يد الخادمة وهي تظن أن أحدا يريد العبث معها، فشكرت حسنية ووضعتها تحت الوسادة وهي تقول : إذا فطنت لها قرأتها عند النوم ..مَن مِن الأصدقاء يحب إرسال الرسائل والسخرية منا ؟! ثم رددت بعض الأسماء ثم قالت : في الليل سأقرأ سخافته .

كانت بدرية ناصح موظفة في مكاتب إدارة شركات الخابي ، وكذلك أختها قمرية ، فهن قد درسن في كلية التجارة ، وحصلن على بكالوريوس في العلوم الإدارية ، وبينهن ثلاث سنوات وهي البنت الصغرى للعائلة ، وكانت بدرية متعاطفة كثيرا مع أخيها عمري ، وإن كانت تخاف من تدينه .. فقد كانت تلحظ أنه ينظر إليها وأختها بنوع من الاحتقار بعد تدينه .. وكثيرا ما يستهزء بثيابهن القصيرة والأصباغ اللواتي يلطخن بها وجوههن وعيونهن وتسمعه يقول : هذا الجمال وهذا التزين خلق ليراه رجل واحد فقط يا بدرية .. لا يجوز أن ينظر إليه الأوباش والذئاب من البشر .

كانت تشعر بتعاطف معه ولكن العادات والتقاليد التي ربيت وشبت عليها من لبس وزينة وخلاعة لا يمكن الخلاص منها بسهولة .. وكانت تتعجب من قدرته وقوته على خلع الماضي عن كتفيه ، فتأخذ تدافع بقوة وحرارة عن مجتمعهم وبيئتهم وحياتهم ؛ ولكنه يهزمها بأسلوبه الجديد وبأفكاره الحديثة ، فتستسلم له في النهاية وترى أنه هو الصواب وأن أفعالهم هي تقليد أعمى لبنات الغرب الأوروبي والأمريكي وملاحقة الموضات وصرعات اللبس والكوافير ، وجدت أن الجانب الروحي لديهم ضعيف وهزيل ، حياتهم كلها مادة ، أموال تدخل وأساليب لإنفاقها ، تشتري الثوب بالثمن الغالي تلبسه لبسة واحدة أو اثنتين ثم يظهر غيره ويلقى في المخزن مخزن الأشياء القديمة ليس البالية لأنه لا يبلى لم يعد له مكان في خزانة الثياب فقد جاء غيره ، تتنافس هي وصديقاتها وبنات أصدقاء أمها ووالدها في ذلك .. هذا أغلى .. هذا أجمل وهذا فرنسي وهذا ألماني وذا إنجليزي .. هذا من معرض فلان وذا من معرض فلان .. كانت تستسلم لأفكار عمري أن حياتهم فارغة .. وأن الحياة ليست كلها عبث ولهو .. بين بين .. ساعة لله وساعة للنفس .. كانت تقرأ كل كتاب أو كتيب يدخل به عمري البيت وكانت تندهش مما فيه من أقوال وكلمات ونصائح .. فترى أن هذه الكتب فقط للناس الفقراء المحتاجين .. أما

هم فلهم الرحلات والنزهات والنوادي الخاصة والسينما والمسارح والسفر .. والرقص والموسيقى والحفلات الصاخبة .. أما الفقراء فلهم المساجد والزوايا ودور العبادة وإخفاء الأبدان والأوجه والأيدي ..

فلما استراحت من تعب العمل وشربت بعض العصير ودخل الليل وقد ارتدت ثيابا جديدة قد حصلت عليها حديثا قالت لحسنية : قولي لأمي إنني ذاهبة لسهرة عند الآنسة المحترمة سهير

وخرجت بكامل زينتها وتبرجها وركبت سيارتها التي ما زالت أمام الفيلا لم تدخلها موقفها الخاص داخل كراج الفيلا ، ذهبت لتقضي سهرة ممتعة مع شباب وشابات بمناسبة ولادة أخت سهير لمولودها الأول .. فرقصت مع الراقصين وشربت قليلا من الخمر كما علماها والدها ألا تفرط في تناول الكحول ..كأس صغيرة تكفي .. هذا أمر طبيعي يلعبن القمار عن مال يسير هذا أيضا أمر عادي .. ولو عانقها شخص مندفعا لموقف ما .. فهذا أمر طبيعي .. وكانت لا تشعر بالخجل إن حصل ذلك فهذا انـفتاح وحرية .. وكانت تتعرض لمواقف أكثر حرجا من ذلك وتتقبل الأمر .. كل ذلك مباح وجائز في شريعتهم ، رجعت بعد منتصف الليل لم يشعر أحد بدخولها .. لم تجد أحدا ينتظرها ليقول لها : أين كنت وماذا فعلت ؟ ولكنها فوجئت أن أختها قمرية لم تنم بعد وجدتها تطرب على أغاني أجنبية غربية حديثة وصلت البلد ثم أخذت بدورها تحدثها عن جمال وحسن هذه الأغنيات والموسيقى ، ولما انتهت من إظهار إعجابها بأغاني السوق الجديدة قالت : ماذا عند سهير لتعمل حفلة ؟ كما تقول حسنية

فردت بدرية : ولدت أختها فأحبت أن تعمل لنا حفلة جميلة بهذه المناسبة .. فسهرنا ورقصنا وتسلينا .. وكانت مناسبة لإلتقاء الأصدقاء وأخذت تعدد أسماء نجوم ونجمات الحفل .

وكانت خلال ذلك الحديث قد خلعت ملابس السهرة ولبست ثياب النوم البيجامات الحريرية المستوردة من باريس .. ولما انتهت من ذكر سخافات حفلتها سألت هي بدورها أختها عما فعلت في يومها الهالك فقالت : خرجت مع جبر .. ابن عمتي ، فقد يحدث بيننا مشروع زواج فهو شاب لطيف ، ذهبنا لمسرح الغرباء وتعشينا في مطعم الغرباء أيضا وأخذت تتكلم عن

المطعم والمسرح حتى استغرقت بدرية في النوم ولم تسمع بقية الكلام ، فغضبت قمرية ورفعت صوت الاستيريو (مسجل الصوت) ولكن النوم قد غلب بدرية .. فلما رأت أن الصوت العالي لم يؤثر بأختها فأغلقته وحاولت النوم .. فلم تستطع ذلك فأخرجت قرصا من أقراص النوم وبلعته وبعد قليل غرقت في سبات عميق ..

زواج ناصح

لم تفطن الآنسة بدرية لقراءة الرسالة التي تلقتها أمس إلا وهي في العمل فحدثت نفسها قائلة : لقد نسيت أن أقرأ تلك السخافات.. لازم أن أعرف من أرسلها من الشباب

ولكنها لما عادت في المساء للبيت وجدت أن الأسرة مشغولة ، فأخبرتها أمها مريم أن والدها قد وافق على اقتران قمرية بابن أخته جبر النحام ، وأن أسرة النحام قادمة الليلة للحديث في الموضوع ولتحديد يوم الخطبة .. وجبر هذا ابن أخت السيد ناصح السيدة رباب .. وجبر هذا أصغر اخوته الثلاثة وهم سعيد وخالد لا إناث بينهم ، فسعيد قد تزوج من ابنة خاله ناجح السيدة نهى منذ سنوات ، وأما خالد فقد اقترن بابنة أحد كبار الموظفين الذين يعمل معهم في دائرة الجمارك ، وأما جبر فقد كتب عقد الزواج على امرأة ؛ ولكن قبل ليلة الزفاف هلكت بحادث سير ، فأضرب عن الزواج ، ولكنه لما استلم الشغل مع خاله ناصح في إدارة مصنع السجاد بدلا من الابن الهارب أخذت أمه رباب ترغبه وتحثه على مصاهرة خاله ، وبعد عدد من اللقاءات والسهرات مع قمرية ناصح نسي خطيبته الأولى منى ، ووجد أن قمرية فتاة مناسبة وثروة أبيها كبيرة ، وأنه الآن رجل العائلة بعد اختفاء عمري منذ أكثر من سنة .. فانشغلت بدرية مع قمرية في تهيئة البيت لاستقبال عمتها وزوجها وأولادهم .

وعند الثامنة ليلا وصل عبده النحام وأفراد أسرته وزوجاتهم ومعه أخوه الأكبر ، واستقبلهم ناصح بيك ورحب بهم وجلسوا في قاعة واسعة، ودارت عليهم أكواب العصير والمثلجات وامتلأ المكان بسحب الدخان من الرجال والنساء ، وبدأت النكت تنطلق من هنا وهناك ثم اتفق الجميع على زواج قمرية وجبر وقرأوا الفاتحة .. ثم مسحوا أيديهم بوجوههم .. لا نعلم هل يحسنون قراءة الفاتحة أم هو تقليد لم يستطعيوا التخلص منه ؟ .. واتفقوا على حفلة الخطبة وأما حفلة الزواج فتركوا أمر تحديدها للخطيبين حسب رغبتهم ، ولما شربوا شراب الاتفاق سأل أحد الأولاد خاله عن عمري ، فوجم الرجل وخيم الصمت على القاعة مما أدهش السائل فقال مستغربا : ما بكم صمتم هل أخطأت في السؤال عن ابن خالي المفقود ؟

فمسح ناصح دمعة سقطت على وجهه وقال : أبدا يا ولدي ؛ ولكنك ذكرتنا بإنسان لا

نعرف عنه شيئا .. لقد ترك غيابه جرحا في قلوبنا .. سامحه الله .. لقد تركنا ونحن في حاجة إليه فأخذت عبارات المواساة والصبر تخرج من الأفواه ، وعند منتصف الليل انصرف القوم ، وقد تجدد الحزن في بيت ناصح الخابي ، وقال الرجل لإمرأته : هذا النحام من أبغض الناس اليّ ها هو اليوم قد صار صهري ثانية .. قاتل الله النحام وآل النحام

فطفقت مريم تدافع عن آل النحام وتعدد مناقبهم وخيراتهم ، وناصح يعدد معايبهم وكفرهم وإلحادهم ، فقد كان عبده النحام من كبار الملحدين في القطر ومن دعاة الشيوعيين .. وما زال فتحدثت مريم عن صهرها جبر وأن أفكاره بعيدة عن أفكار أبيه ، فرد عليها : إن الولد ابن أبيه .. ولكن الظروف تضغط علينا .. والبنت كبرت فعمرها سبعة وعشرون عاما كما علمت منها .. أتمنى أن يكون زواج موفقا .. فأنا أعرف بغض النحام لي .. لقد كنت غير موافق قديما على زواج رباب منه وقد حاولت التفريق مرة بينهما ولكنها الملعونة فقد كانت تهواه

فقالت مريم : تلاقت أفكارهما معا .. فقد كانت أشد منه إلحادا وكفرا .. وليس الحب الذي جمعهما وحده يا ناصح .. ونحن لا يهمنا ذلك الآن .. الولد قلت إنه يشتغل جيدا ويدير الأمور في المصنع بإتقان .. وهو ابن أختك رغم كل الأشياء .. وكما قلت فالبنت كبرت ورغم كثرة أموالك لم يطلبها أحد من أبناء أصحابك

فرد قائلا : والله قد حدثني بعض الأصدقاء في ذلك ولكنهم كبار في السن .. فكيف أزوج ابنتي لرجال كبار .. فالدكتور موسى لما ترمل حدثني عنها .. فاعتذرت وها هي المسكينة تتزوج رجلا أرملا سبحان الله ..

*****

بعد أيام فطنت بدرية للرسالة مرة أخرى فاتصلت بالشغالة حسنية وأرسلتها إلى حجرتها تتـفـقدها ثم ردت عليها : هي حيث وضعتيها يا سيدتي

- يا حسنية الطيبة .. لما أدخل البيت ذكريني بقراءة الرسالة .. سلام ..

بدرية تحب القراءة أكثر من قمرية ، فتقرأ في الكتب ومجلات المرأة والأزياء ، وتقرأ عن قصص المغنين والراقصين والممثلين ، وتستمتع بقراءة مغامراتهم وأسرارهم وأخبارهم ، وقلنا

إنها قرأت كثيرا من الرسائل العلمية الصغيرة التي كان يدخلها عمري بيت العائلة ؛ ولكنها لم تغير من حياتها شيئا ، ولم تترك أثرا في نفسها يذكر كما يبدو لنا الآن .. فما زالت تحيا الحياة التي ألفتها وتعودت عليها ، وهي لم تقرأ الرسالة الشخصية التي وردت إليها لأنها لا تحب كتابة وقراءة الرسائل .. فكان أيّ كلام جميل تحب أن تسمعه فتحب أن يكون على الهاتف أو وجها لوجه ؛ لذلك لم تكن تتذكر وتفطن للرسالة إلا وهي أثناء العمل .. فتتذكرها فتشتاق نفسها لمعرفة كاتبها أكثر مما فيها من كلام .. وبما أن كاتبها لم يذكر اسمه على غلافها ، فهي تعتقد أن أحد السخفاء من الأصحاب والزملاء كتب لها كلاما ثقيلا وغزلا صارخا .. والفضول يدفعها لقراءتها ومحاولة تخمين اسم كاتبها .. فهي رغم معرفتها لكثير من الشباب فلم ترتبط بعد بأي علاقة عاطفية مع أحدهم .. كلهم أصدقاؤها ومحبوها ، رغم أنها لم تكن بالفتاة الدميمة المنفرة ولكن بين رفيقاتها كثيرا من الفتيات الأكثر منها جمالا وحسنا وممن يستهوين الشباب الماجن .. ولم تعد للبيت مبكرة كما آملت ، لقد اتصلت بها صديقة قبل انتهاء يوم العمل ودعتها للعشاء في مطعم ومن ثم الذهاب لشراء بعض الثياب التي ظهرت حديثا في متجر أحد كبراء التجار ، فوافقت على الفور لا يجب أن يسبقها أحد بشراء الفساتين والتنانير الحديثة .. نتيجة لذلك تأخر أمر قراءة الرسالة ؛ لأنها عادت في وقت متأخر ليلا والشغالة حسنية قد رقدت على فراشها فلم تذكرها بالرسالة .

وبدأت عائلة الخابي والنحام الاستعداد لإعلان الخطبة في حفلة كبيرة ، فقد حجز النحام صالة كبيرة في فندق ضخم ، فقد رفض ناصح إقامة حفلة الخطبة في حديقة فيلا النحام .. وتوافد المدعوون من أصدقاء العائلتين لتلك الحفلة التي أنفقت عليها الأموال الكثيرة ، فقد تعاقدوا مع فرقتين موسيقيتين .. وانشغل الناس باللهو والشراب والاستماع ، والشباب بالرقص على أنغام الموسيقى الغربية .. وقد نهض العروسان للمشاركة في الرقص مع الراقصين .. وأثناء اندماج القوم في طربهم ومرحهم دخلت القاعة امرأة شقراء سبقها عطرها الفواح ثم زينتها الفاتنة للمكان ، فنهض السيد ناصح أمام نظرات الساهرين لاستقبالها والاحتفاء بها أمام دهشة الحاضرين وخصوصا زوجته مريم وبدرية وعيون الفضوليين ، ثم ساقها إلى أحد الموائد

وجلس معها كأنهما كانا على موعد واندمجا في الحديث .. وهنا اندفعت امرأة السيد ناجح السيدة عزيزة للانتقال إلى مائدة مريم لتسألها عن هذه المرأة فردت عليها بحيرة : لا أدري هذه أول مرة أشاهدها كأنها صديقة حديثة لناصح ولابد أنه هو الذي دعاها .. إنها أنيقة وفاتنة

فقالت عزيزة : يقول ناجح إنها أرملة وإنها زوجة الدكتور ساري دكتور الطب النفسي

قالت مريم : إنني أعرفه وقد زرت عيادته أكثر من مرة فلم أصادفها مرة واحدة .. رحمه الله قد هلك بمرض السرطان ..

فقالت عزيزة : ظننتك تعرفينها .. فناجح يقول إنها منذ ترملت بدأت تخرج للناس .. لقد كان الدكتور لا يحب رؤيتها في المحافل .. ويقول إنها ورثت ملايين الدنانير عنه ..

فتبسمت مريم بعد وجوم : صفقة إذن .. فناصح يشم رائحة الملايين من بعيد ..

فقال عزيزة : أخشى أن يكون الأمر أكبر من ذلك يا مريم ..

ـ ويحك ماذا تقصدين ؟ !

ـ زواج

ضحكت مريم ضحكة قصيرة وقالت ساخرة : ناصح يتزوج ! .. إنه رجل عجوز لا يصلح للنساء منذ سنوات يا عزيزة

فقالت عزيزة محذرة : خذي حذرك

وانسحبت وعادت حيث يجلس زوجها ناجح وقد أثارت القلق والتوتر في نفس مريم ، فأخذت تتابع زوجها العجوز كما تقول وهو يتحدث مع المرأة الشقراء بانسجام واندماج كأنهم أصدقاء منذ عهود .

فقالت بدرية التي سمعت همسات زوجة عمها : أظن أنهما يتحدثان عن مشاريع ومصانع أبي لا يحب الحديث إلا في ذلك يا أمي .. لا تهتمي بكلام عزيزة ..

فقالت مريم : والله إنهما مندمجان ولا يحسان بالعيون التي تسترق النظر إليهم وهل هذا وقت حديث في مشاريع وصفقات ؟!

ردت بدرية قائلة : أبي صياد ماهر لا يهمه الوقت ، قد يريد تعاونها في إنشاء مصنع الأدوية

فهي زوجة دكتور ..

بعد الثانية ليلا انتهى الحفل ، ورجع السكارى إلى بيوتهم منهكين من الرقص والطرب والشراب ، وما كاد ناصح يدخل حجرة النوم التي تخصه ـ لكل واحد منهما حجرة نوم خاصة للزوج غرفة وللمرأة غرفة ـ حتى دخلت مريم خلفه وقالت بنبرة غيرة وغضب : ما الذي فعلته الليلة يا سيد ناصح تركت الناس وانشغلت بتلك الحسناء الشقراء ؟

فالتفت إليها متضايقا وقد خلع ربطة العنق وطرحها على السرير ورد: ها أنت قلت بلسانك حسناء وشقراء.. أرجو أن لا تكوني غرت؟

فردت باستهزاء يشوبه حنق: أغار ممن يا عجوز منها إنها أرملة ؟ !

ـ ولكنها جميلة يا مريم ومعها ملايين

ـ تترك الناس .. ضيوفك وتقضي سهرتك كلها معها .. بماذا كنتم تتكلمان ؟

فضحك ضحكة قصيرة ورد : عن الحب وأيام الشباب

فقالت بغضب وبلهجة من يأمر : أريد أن أعرف كل شيء .. لقد أكلني الناس بعيونهن ونظراتهم وهمساتهم .. بل إن عزيزة ترى أن هناك أكثر من ذلك ..

فصاح غاضبا : وماذا قالت عزيزة الحمقاء ؟

فردت مريم غاضبة : تقول إنك تريد الزواج منها

فقال هازئا : وهل في ذلك ما يغضبك ويثيرك لتحمر عيناك يا مريم ؟ أينقصك شيء ؟ .. أليست لديك الأموال والسيارات والعمارات ؟

فقالت بصوت هامس غير مصدقة لم استقر في الذهن : أحقا تريد الزواج يا ناصح ؟

فقال بوضوح وصراحة : أجل يا مريم ! .. أريد الزواج .. لا تريد أن تكون عشيقة تريدني زوجا وأنا أريدها إنها فاتنة وناعمة

فصاحت بغضب : هذا لا يمكن أن يصير أيها الرجل .. هانت عليك عشرة هذه السنوات أين ما ننادي به من حرمة التعدد ومن ظلم المرأة العربية والشرقية أين ؟؟

فقال هازئا ومحقرا : هذا كلامك أنت وصويحباتك وجمعياتك .. فالتعدد مشروع في ديننا

فقالت بحنق : الآن صار لك دين

ـ هل سمعتيني يوما ما أويدك في دعواتك وخرافتك .. فإن لم نعدد بالقانون والشرع فنحن نعدد من غير قانون أتريدين أن تقولي لي إنك طاهرة عفيفة ولم تختلي برجال غيري يا مدام ؟

خيم الصمت القاتل ثم ردت : ولكنك زوجي ولا يجوز لك أن تتزوج عليّ .. اتخذها عشيقة كغيرها من العشيقات وبنات الهوى

فقال : رفضت ذلك .. قالت لن أكون لك إلا بزواج شرعي وشهود رغم الاغراءات التي بذلتها لها من مال وعقار وأرصدة .. وهي عاقر لا تنجب فلا تخافي على الورثة .. وأعلم أن أرصدتك كبيرة ولكنك طماعة .

صمتت مريم ثم قالت : منذ متى التقيتم ؟

فقال بصراحة : أنا كنت أحوم حولها قبل موت زوجها ؛ ولكنها كانت تصدني وتظهر الوفاء لزوجها ، وكانت مشاركتها لاجتماعاتنا ضئيلة ، فلما مات زوجها منذ سنة مضت كنت معها ثم عرضت عليها عشقي وغرامي ، فرفضت ووافقت على الصداقة وأما الجسد فقالت بالزواج فقط .. فشاورت ناجحا أخي بالزواج منها فرفض ، وقال كما قلت الآن اتخذها عشيقة فالتعدد في العائلة ممنوع فحاولت معها مرة أخرى .. ولكنها مصرة على الزواج إن كانت لديّ رغبة إليها .. والليلة تناقشنا حول هذه المسالة .. فيا مريم الطاهرة عليك بالرضوخ للأمر والواقع .. أنا كنت أريد أن اقترن بها بدون علمك .. ولكن أولاد الحلال احبوا أن يخبروك بسرنا هذه الليلة وما هو بسر

فهزت مريم صادق رأسها باستسلام ويأس : أيضا .. تريد أن تتزوج من ورائي ..

ـ لا أحب إحراجك

فهاجت وقالت بضيق شديد : قتلتني ! إنك تهدم شغل سنوات وسنوات يا مجرم .. أنت تسمح لي بالجلوس مع الرجال والآن تتهمني وتعيرني يا شريف يا محترم

فقال : يا مريم كما أسمح لنفسي بالجلوس مع نساء القوم .. فمن الطبيعي أن أسمح لك بذلك العين بالعين ولكني لم أسمح لك بأمور أخرى ..

فقالت بحدة : أما أنت فتسمح لنفسك من النساء الأخريات

فقال ببرود : مهما يكن .. فأنا رجل ولا يعيبني ذلك

فقالت هي الأخرى متحدية وهائجة : وأنا لا يعيبني ذلك .. ما دمت تسمح لنفسك بالزنا يجب أن تسمح به لغيرك .. إنك حقير .. اسمع يا ناصح أنا أعرف أنك نذل .. ولكن إذا أردت الزواج فعلا من تلك الفاجرة ..طلقني لا أريدك

فقال بغضب : ولماذا الطلاق .. هذه الفيلا أكتبها باسمك وظلي عند الأولاد ؟

ـ أيّ أولاد ؟ ! فقمرية قريبا ستتزوج كما فهمت من جبر ، وسمري في أمريكا وعمري ضاع ولا نعرف عنه شيئا ولا في أي البلاد هو .. وبدرية غدا ستتزوج .. أنتم الرجال لا أمان لكم وأنت رجل عجوز وما زلت تعشق النساء

فصاح محتجا : هناك من هو أكبر مني وتزوج ثانية وثالثة .. لا تظلي متعلقة بشعارات جمعيات المرأة والنساء .. هذا كله كلام في كلام .. أنا لم أكن أحب وأرغب في مصارحتك برغبتي بالزواج كنت سأخفيه عنك أما الآن بما أنك تدخلت في حياتي الخاصة .. سأعجل بالزواج وأعلن به .. وإذا أحببت الفراق سيكون لك ذلك .. تدبري وفكري ؟

فعاد إليها الهياج وقالت شاتمة : حقير .. نذل .. أناني

ـ لا يهم قولي عني ما شئت .. أعلم أن الخبر عليك مؤلم فقولي ما شئت

ـ سأتحدث مع أخيك ناجح لعله يردعك مع معرفتي لضعفه معك

ضحك ناصح وقال هازئا : هو يعرف كل شيء .. لا داعي لحشر الآخرين في حياتنا الخاصة هذا البيت لك بما فيه وأكثر ودعيني وشأني

فقالت ساخطة : لن تتزوجها يا ناصح قبل أن تطلقني ، ولسوف أرحل عند ولدي سمري وأعيش باقي عمري في أمريكا ..

فقال بهدوء وفرحا بانتصاره عليها كما يظن : اذهبي للنوم .. وغدا نتفق على كل شيء

خرجت مقهورة ؛ ولكنها لما دخلت غرفتها أخذت تبكي وتبكي ، ثم همست قائلة وهي ترى صورة عمري ماثلة أمامها : أجل !.. حياتنا شهوات وشهوات .. نتخلص من شهوة لنبحث

عن غيرها .. صدق ولدي عمري بكلامه .. ليتني أراه .. أريد أن أعيش معه .. حياتنا ضحك وسخرية .. نحرم أشياء ونحن نعمل بها بصورة أخرى

تدخلت قمرية وبدرية وناجح ورباب في منع السيد ناصح الخابي من الزواج فلم يفلحوا فقد غلبه الصبا والهوى ، فكانت النتيجة طلاق مريم ، ثم سافرت إلى أمريكا إلى حيث يتعلم ولدها الأصغر .. ثم تزوج ناصح من الأرملة الشقراء قبل زواج ابنته قمرية من ابن عمتها رباب .

اختي بدرية

اضطر ناصح الخابي لشراء قصر لزوجته الأرملة الشقراء ، وبعد زواجه بشهور تزوجت قمرية وتقرر أن يسكن جبر في الفيلا ؛ لأنه لا يجوز أن تخلو الفيلا من رجل ، وعلى أثر تلك التطورات في تاريخ الأسرة تم تغيير ديكور الفيلا ، ولما وصلت هذه الأخبار للسيدة مريم ـ التي رحلت إلى أمريكا قبل زواج طليقها من حسنائه الجديدة ، وقبل زواج ابنتها الكبرى قمرية ـ أرسلت وراء ابنتها بدرية تحثها على الرحيل واللحاق بها والحياة معها ، فوجد هذا الاقتراح هوى لدى بدرية، فقدمت استقالتها من شركة والدها ، وبدأت تتهيأ للسفر ، ولما تمت الموافقة على سفرها وأتتها تأشيرة الدخول لأراضي الولايات المتحدة فاتصلت بأبيها بالهاتف مودعة في آخر لحظات السفر ، وكان والدها لما أخبر برغبتها بالسفر لأمريكا الشمالية قد عرض عليها زوجا يعمل معه فرفضت واختارت اللحاق بأمها ، وودعت أختها وزوجها جبرا ، وسافرت بدون ضجيج ورفيق ، وفي ولاية فيرجينيا نزلت على أمها حيث يعيش ويدرس أخوها سمري للماجستير بعدما أنهى البكالوريوس في الإدارة والاقتصاد ، وتعانقتا وهما تبكيان ، ولما هدأت روحها سألتها أمها : ألم تسمعي خبرا عن عمري ؟

فقالت وباستغراب للسؤال : لا يا أمي ! ..ولم تسألين عنه بعد كل هذه السنوات ؟!

فقالت بحزن يشوبه ندم : أرى أنه خيركم يا ابنتي ! .. عرف اختيار الهدف .. لقد كانت حياتنا هواء وهراء وما كنا أحرارا كما نغني .. فقد وجدت أن أخاك متزوج من فتاة أمريكية لا اشتريها بفلسين .. لا أدري كيف تزوجها ورضي بها شريكة حياة ؟ ! إنها تكره العرب والمسلمين كما تقول وتزعم .. أما كيف رضيت بسمري لحتى اليوم لا أعرف ؟ ستعرفينها

فأظهرت بدرية الغضب وقالت : لماذا لم تخبريني بذلك قبل السفر ؟

فقالت كأنها معتذرة : إنني أشفقت على وحدتك فأنا على اتصال ببعض الصديقات .. ولن نبقى هنا ، لقد طلبت من سمري أن يجد لنا شقة قريبة منه لنرحل إليها ، وهذه الفتاة قد تزوجها من قبل حضوري بأيام .. صديقة له يدعي أنه زواج مصالح ..

استسلمت بدرية للواقع وبلعت الطعم على مضض وهي تقول لنفسها : لا أظن يا أمي

أنك أشفقت على وحدتي بل أشفقت على وحدتك أنت .. أرسلت ورائي تسلية لك .. أرجو أن أجد الوضع هنا خيرا من هناك .. ما أبشع حياتنا ! مع كل ما نملك من أرصدة وأموال .. نحن نعيش في تعاسة .. كل واحد يغني على ليلاه ..الأنانية ..كل يعشق نفسه .. منذ أن اقترنت قمرية بجبر ما دعتني لعشاء أو غداء معهما .. كأنني غير موجودة معهم في البيت .. أو لعلها خائفة أن أسرق جبرا منها ..!!

ولما سألتها أمها عن زوجة أبيها قالت : من يوم خطبة قمرية لم أرها .. تزوجها زوجك السابق في حفل صغير بناء على طلبها ، فاعتذرت عن الذهاب ، فلم يهتم ولم يلح ، ولا حتى جبر وقمرية أظن أنهما ذهبا ، أعتقد فقط أن عمي ناجحا وحده رافق الزوج الفحل في ذلك اليوم

ضحكت مريم صادق وقالت : من أين له الفحولة ؟ .. لقد كان يتعالج عند الدكتور بستان من الضعف الجنسي وغيره ..

قالت بدرية : دعينا منه يا أماه ! .. المهم فليعجل سمري بإيجاد شقة لنا ندفن أنفسنا فيها

فقالت الأم : الحياة هنا جميلة وممتعة .. سوف ترين ذلك حين ترتاحين من تعب السفر والطائرات

فعادت بدرية تحدث نفسها : من أجل ذلك بعثت ورائي ثم رفعت صوتها قائلة : سوف نرى ذلك على الطبيعة مع أنني لم أر شيئا حلوا في الحياة .. فزوجك بعد عشرات السنين استبدلك وأنت لم تتركي فتاة صالون ماهرة إلا وترددت عليها لتظلي غزالا في عين ناصح الخابي ..

فقالت الأم بحسرة : اكتشفت بعد فوات الأوان يا ابنتي أنني لم أكن أتجمل لأبيك بل لأصحاب أبيك .. فها هي امرأة أرملة شقراء عاقر تخطفه مني بلمح البرق .. الرجال ماكرون خادعون

فقالت بدرية : والنساء يا أمي .. أليست الشقراء امرأة ؟

عندما عاد سمري وزوجته ليلا رحبا ببدرية ، وكان سمري قد استقبل أخته في المطار ولما أدخلها مدخل العمارة تركها وعاد إلى جامعته ـ فهو يدرس الماجستير الأكاديمي ويشتغل عند والد سيزانا في متجر كبير ـ أظهرت سيزانا العطف والشفقة على بدرية ، ولما انتهوا من التعارف

والمجاملات سألته الأم عن الشقة التي وعدها أن يستأجرها لها ، فذكر أنه اتصل بالمالك أو محامي المالك وسوف يوفران لهما شقة في أقرب وقت أو عند رحيل أول مستأجر ، وبعدما هبط الليل قال سمري: هيا بنا يا سيزانا نحتفل ببدرية في أحد المطاعم

فهبطوا للعشاء في أحد المطاعم الأمريكية ذات الصيت والسمعة العالمية ، كانت سيزانا ودودة جدا مع بدرية ، وكانت تظهر النفور من أم بدرية .

*****

بعد أن سكنت مريم وابنتها في شقة خاصة بهما أخذتا حريتهما أكثر من الحياة مع ابنها وزوجته الأمريكية ، ومنذ فارقتا سمري منذ اسبوعين لم يحاول دعوتهما للغداء أو العشاء كأنه لا يعرفهما وليستا أمه وأخته ، فكانت بدرية تقول : هذه حياة الأجانب التي كنا نركض لنصل إليها .. المهم نفسي .. إيه لقد كان عمري أصلح منه كثيرا .. أين أنت يا عمري ؟

وبينما هما تتذكران أيام عمري وتوبة عمري رن جرس الباب ، فدهشت بدرية وقالت : منذ سكنا هنا ما رن جرس الباب علينا في المساء إلا بائع الصحف أو اللبن في الصباح

ولما فتحت الباب فوجئت بسمري وزوجته فتصافح الجميع وقالت سيزانا : قلت لسمري زمان ما رأينا بدرية هيا بنا نسمر معها .. رغم تعبنا هذا النهار

وأخذت تشتكي من تعب العمل وإرهاق ساعات الدوام والدراسة ، وبعدما شربوا القهوة ، قال سمري لبدرية : وجدت هذه الرسالة لك يا بدرية وأظن أنها من الشغالة حسنية

أدركت الأم وابنتها حينئذ سبب زيارة سمري لهن ، كان يكتفي بالاتصال بهن في الهاتف ، وكانت قد نظرت في عيني أمها وابتسمت ابتسامة خاطفة لا تكاد ترى ، وتناولت بدرية الرسالة من يده الممدودة ، وفضتها فوجدت بداخلها رسالة ومظروف آخر من غير عنوان فتذكرت على الفور الرسالة القديمة التي وضعتها تحت الوسادة منذ شهور ولم تقرأها فقالت لنفسها بسرعة : أين ذهبت يا ترى ؟! وقرأت رسالة حسنية التي كانت تشتمل على السلام على الأسرة وأنها تلقت رسالة من مجهول لبدرية فلما انتهت من القراءة ، ذكرت لهم تحيات حسنية وعمران البواب وقمرية وجبر ، ولم تقرأ الرسالة الثانية بل وضعتها في جيب قميصها ، وبعد

وقت يسير انصرف الزوجان ، ولما أغلقت بدرية الباب وراءهما قالت باسمة : هذا ما دفعهما لزيارتنا يا أمي وأخرجت الرسالة ثم تابعت الكلام قائلة : لقد تلقيت رسالة مثلها منذ سنة تقريبا .. اليوم تذكرت أنني لم أقرئها .. لقد ظننت أنها من شاب سخيف .. وها هو يكرر المحاولة

فقالت الأم : افتحيها واقرئيها لنرى ما بداخلها .. ومن هو السخيف الذي أرسلها ؟

مزقت بدرية الغلاف وأخرجت ورقة بيضاء مسطرة وعليها كتابة .. فقرأت بصوت مسموع

بسم الله الرحمن الرحيم

أختي العزيزة بدرية

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ...

فقالت الأم : ما هذا ؟!

ارتبكت بدرية وقالت : هذا خط عمري إنها رسالة من عمري .. ها هو توقيعه في ذيلها

خطفت الأم الرسالة وهي تقول بلهفة : عمري .. ولدي وضمتها إلى صدرها وقد سقطت قطرات دمع من عينيها وهمست : ما أقسى قلبك يا عمري ! .. ثلاث سنوات لم نرك ولم نسمع عنك خبرا

فقالت بدرية : على مهلك على الرسالة يا أمي .. إذن تلك الرسالة التي لم أقرئها كانت من عمري .. لا أدري ما مصيرها ؟! .. قد تكون حسنية ألقتها في سلة المهملات لكنها مغلقة سأكتب إليها لتبحث عنها وترسلها إلي .. هات يا أمي أقرأ ما كتب الأخ العزيز

قالت مريم : إقرئي يا بدرية .. أنت بصرك أصلح من بصري

أخذت بدرية الرسالة وقرأت بعد السلام ..

بسم الله الرحمن الرحيم

أختي العزيزة بدرية

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

لقد علمت بما صنع أبي المسكين ، ولقد أسفت لم حصل لأمي من طلاق وفراق ولكني حزنت

عليك أنت كثيرا ، كنت أحب الناس اليّ في البيت ، كنت أريد أن أعيد لك الصواب لِمَ أرى من تعاطفك معي ، ومن قرائتك ما أقرأ وكثرة مناقشتك لي ، أحببت إنقاذك من النار ، وقد كتبت لك ذلك في رسالة سابقة ولم أتلق ردا عليها .. فلا أحب أن أزيد في التذكير .. كنت أود يا أختي العزيزة أن تعيشي معي ، فقد علمت بزواج قمرية وسكنها في الفيلا . وأنا وإن كنت بعيدا عنكم لكني معكم وأحبكم وأخاف عليكم .. فإذا أخذت طريق الهداية والحياة بكنـفي وبعيدا عن الشرور والفجور فاكتبي لي على هذا العنوان (الريحانة ص. ب ٣١٤٥٦٧) وستجدينني بقربك .. ولقد حدثت صديقا طيبا لي بظروفك ، وهو طبيب فسره الاقتران بك ومستعد أن يكون لك زوجا وطبيبا ، إنني في انتظار جوابك أخوك المحب عمري محمود وكان في ذيلها التاريخ والتوقيع .

وقرأت الرسالة مرة أخرى وقالت وهي تحلق في الخيال البعيد : هذه الرسالة كتبت قبل سفري بيوم واحد يا أمي

فقالت مريم : إنه لا يعرف بسفرك إلى هنا عند كتابتها وإلا ذكرني في الرسالة

ـ أجل يا أمي .. إنه أشفق عليّ شفقة حقيقية .. إنه يحبني .. سأكتب له رسالة إنني مشتاقة إليه أخي الحبيب .. وسأرسل وراء الرسالة الأولى لعلها لم تفقد بعد .. حبيبي عمري أرجو أن يكون نعم الأخ ..فها نحن قد عرفنا الأخ سمري ناصح

كتبت رسالة للشغالة حسنية تطلب منها البحث عن الرسالة القديمة وإرسالها على شقتها التي ذكرت رقمها واسم الشارع والحي ، وظلت على نار وهي تنتظر تلك الرسالة التي لم تقرئها منذ سنة ، ولكنها وصلت أخيرا ، فقد وجدتها حسنية الذكية بأغراض بدرية التي نـقلت لمخزن الأشياء القديمة والمهملة ، فلما تسلمتها بدرية من ساعي البريد شكرته ، وأغلقت الباب وكادت تطير من الفرح والسعادة ، وكانت أمها قد خرجت لزيارة الطبيب لألم ألم بها في صدرها وقبل أن تقرأ الرسالة قبلتها فرحا وجلست في الصالة تقرأ الرسالة القديمة .. وكان فيها :

بسم الله الرحمن الرحيم

أختي بدرية

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أخوك المحب يكتب لك من أعماق القلب .. يكتب إليك وكله شوق لمشاهدتك وسماع صوتك ومناقشاتك وتعليقاتك .

أيتها الأخت .. لولا حبي الكبير ما كتبت لك هذه الكلمات .. فالحياة جحيم من غير إيمان وتوحيد وتوبة .. لماذا خلقنا يا بدرية ؟! .. أخلقنا فقط للأكل والشرب والشهوات ؟ .. أليس هناك روح مستقرة في أبداننا ؟ وهذه الروح تحتاج لأكل وشرب وشهوات ، فطعامها العبادة كالصلاة والصوم ، وشرابها الذكر والدعاء والأخلاق ، وشهواتها التحليق في عجائب ملكوت السماوات والأرض ، فأكثر الناس حطب جهنم .. وجهنم مكان رهيب يمزق الأفئدة ويحطمها تحطيما .. فلماذا لا ينقذ المسلم نفسه من النار ومن العذاب الأليم ؟! فالنار مثوى الظالمين والكافرين .. انقذي نفسك أيتها العزيزة .

والإسلام لا يحرم ملذات الدنيا ، فهناك ملذات مباحة ، فالزواج بدلا من الزنا ، وجميع ألوان الطعام مباحة إلا القليل ، والكلام كثير .. ولكنك قد تتسائلين لماذا يكتب لي عمري بعد أكثر من سنة من الاختفاء وما الذي فطنه بي ؟! تيقني أنني دائم الفكر بكم وأتمنى أن أصحو من نومي وأجدكم حولي أسرة ثانية عائدين إلى ربكم .. ولكن هناك سببا آخر دفعنني للكتابة إليك وحدك .

فاعلمي أيتها الأخت الحبيبة .. أنني قد تزوجت من فتاة ، هي أحلى امرأة في العالم ، وأجمل من كل فتيات لندن ومرسيليا ، ومن تعرفين من بنات طبقتنا وأقاربنا ، وهي متاع صالح كما أشار نبينا محمد (ﷺ) ، تزوجتها أيتها العزيزة ومنذ أشهر أخبرتني بأنها حامل ، ففرحت فرحا عظيما لهذا الأمر .. والإنسان لا يعلم متى يأتيه الموت .. وهذا المولود القادم سوف يحمل اسم أسرة الخابي سواء كان ذكرا أم أنثى ، ورغم الأوراق الرسمية فقد أحببت أن تكوني بعلم بهذا الزواج حتى إذا حدث لأخيك المحب ما منه مهرب أن تقفي مع زوجتي وولدها .. من أجل هذا وذاك أكتب إليك .. وأرجو أن تكتمي أمر هذه الرسالة عن الأهل جميعا .. أنا خصصتك بها وحدك

السلام عليكم يا أختاه .

أخوك عمري

تاريخ كتابةالرسالة

عنوان المراسلة

بكت بدرية أثناء تلاوتها لسطور هذه الرسالة ، ولم تكف عن البكاء إلا عندما سمعت جرس الشقة ، فذهبت وغسلت وجهها وفتحت لأمها ، التي لاحظت على الفور احمرار عينيها من كثرة البكاء فقالت بقلق : ما بك يا بدرية ؟

تنهدت الفتاة وقالت : وصلت رسالة عمري القديمة .. تخيلي يا أمي لو قرأتها قبل زواج أبي وطلاقك لما أتيت هذه الديار الواسعة ولكنها موحشة ، الإنسان بدون أهل وأحباب وأسرة وأصدقاء كأنه ميت .. نفرح لمن يطرق الباب علينا .. والله ما أدري ماذا كان يعجبنا بهؤلاء الأجانب .. لا أحد يطرق باب جاره .. ؟!

فقالت الأم : دعينا من الأجانب ومن عاداتهم وطباعهم .. إقرئي لي ما كتبه الابن العاق

قرأت بدرية الرسالة على أمها التي شاركتها البكاء ثم قالت وهي تكفف دموعها : لقد اختار حياته .. واستغنى عن مال أبي وأمه .. الله يسعده .. إني مشتاقة إليه يا بنيتي .. يجب أن تكتبي إليه وتخبريه بأحوالنا أنا ضقت ذرعا بهذه البلاد .. أنت من شهر أو شهران مللت فكيف أنا ! .. أكل وشرب ونوم .. كنا نظنها جنة الله في الأرض عندما كنا نأتيها سائحين ، كان يخيل إلينا أن هؤلاء الخلق أسعد البشر .. ولكننا لما أخذنا نقرأ صحفهم دهشنا من كثرة جرائمهم والحوادث عندهم .. لم نكن نراها في بلادنا .. لقد سمعت أثناء وجودي عند الدكتور قبل ساعات عن جريمة تقشعر لها الأبدان .. امرأة اغتصبها عدة رجال ، وبعد ذلك قطعوها بالسكاكين ، ثم حرقوها بعد ذلك .. والشرطة قد قبضت على بعض القتلة الذين اعترفوا بفعلتهم الوحشية ، والبعض الآخر مازال طليقا .. والرجل هنا لا يستطيع أن يخرج في الليل بدون أن يحمل مسدسا أو رشاشا .. والمصيبة انتشار جرائم القتل والعنف في المدارس .. والله أشياء رهيبة تظهر على الشاشات والصحف بدأنا نعرفها عن هذه المدنية والحضارة !

فقالت بدرية : معك حق يا أمي ! نحن عندما كنا نأتي سائحين كنا نرى الصور الجميلة الملاهي

المسارح .. السينما .. المسابح .. الحدائق .. كنا نرى الوجه الذي تقدمه لنا شركات السياحة .. أماكن الجذب السياحي .. أما اليوم فنحن نقلب صحفهم صفحة صفحة .. لدينا متسع من الوقت ؛ فلذلك نرى الحياة الحقيقية في المجتمع .. نرى ما فيها من جرائم قتل واغتصاب وأمراض جنسية وعنف وعنصرية

فقالت الأم : اكتبي لعمري الغالي لعلنا نرحل ونعيش في رعايته .. فالحياة مع سمري قاتلة ومظلمة

فقالت بدرية بنوع من الاستغراب : أتستطعين الحياة مع عمري يا أمي ! .. الشيخ عمري فأنا أرسل لي ليزوجني من صديق له شاب متدين مثله إذا اخترت طريق الهداية والتوبة كما يقول أخي الحبيب.. يا الله كما أحلم برؤيته والحديث معه .. ؟ !

فعادت الأم تقول : الحياة مع عمري أظن وأتصور أنها خير من الحياة مع سمري وسيزانا الملعونة .. لا يستطيع الواحد أن يتكلم معها من تعاليها وانتفاخها وأخوك ذليل أمامها ..

ـ ألم يقل لك مرارا وتكرارا المصالح تتطلب ذلك ؟ .. العمل والحصول على الجنسية الأمريكية يا أمي .. دعيه .. سأكتب لعمري بكل أحوالنا وننتظر ماذا يرد علينا ؟!

رد عمري

بسم الله الرحمن الرحيم

الأخ الحبيب أخي المحب والشفوق عليّ عمري

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

اكتب إليك من حي { القديس يوحنا } فيرجينيا الأمريكية

أشكرك على حبك الكبير لي ، وأشكرك على السعادة التي تتمناها لأختك الضعيفة الضائعة الحائرة .. اعلم أيها المحب أنني للأسف قد قرأت رسالتك الثانية قبل الأولى ، قرأتها وأنا أسكن في شقة مع أمك المطلقة في أمريكا .. لقد وصلت اليّ بعد سفري بأيام .. ولو أنني تلقيتها قبل السفر ربما لم أهاجر إلى أمريكا روبنسون كوروزو وتمثال الحرية وسوبرمان وحرب الاستقلال والشيخ والبحر ..

أخي الحبيب .. أبارك لك الزواج رغم التأخر في هذه التهنئة للظروف التي تعلمها ، وأظن أنك الآن قد رزقت بمولود آخر ، وسلامي الحار والدافئ لزوجتك أحلى امرأة في الدنيا .. لقد كان رحيلك عن البيت دمارا وسوادا ، حزنا ولم نمل من السؤال عنك ، وندم أبي وبكى على فراقك وبعدك ، ولكنّا أيقنا أنك اخترت الطريق المناسب لك ، كما كنت تحلم يا عمري نسيناك بعد حين أو تجاهلناك ، عادت الحياة كما كانت للبيت حفلات سهرات مقابلات رقص مجون سكر .. كل ما تعرفه عنا .. تزوجت نوال سبب كل هذه المشاكل ، ولما خطبت أختك قمرية ابن عمتك رباب الأستاذ جبر الذي استلم مكانك في مصنع السجاد والخيوط ، كان أبوك المحترم قد وقع في غرام أرملة شقراء زوجة الدكتور ساري إنك تعرفه لقد قام بمعالجتك عندما عدت من لندن منهارا مدمرا من الديون والقمار والشراب .. وقع أبوك في حبها وأبت أن تكون له عشيقة أو زوجة سرية ..أمك لم تتقبل الوضع ، وهي التي تردد مع نساء جمعيات حقوق النساء أن التعدد ضار ومنكر وحرام مما تعرفه عنها وعن نساء تلك الجمعيات والنوادي الفارغة أبي لم يتردد في طلاقها رغم توسلاتنا ، فتم الطلاق بسرعة مدهشة ، وهاجرت إلى بلاد العم سام إلى بلاد تمثال الحرية .. والحرية كما تسمع ونسمع .. عند ولدها الصغير سمري .. وبعد زواج

أبي من أرملة الدكتور رحل عن البيت واشترى لها بيتا آخر قصرا كبيرا يليق بحفلاتهم وسهراتهم .. ثم تبع ذلك زواج قمرية وجبر وسكنا الفيلا .. فأصبحت بينهم غريبة ، لا أحد يتحدث معي .. الخادمة تدخل عليّ على خوف وقلق .. آكل وحدي .. فلما تلقيت دعوة أمي للهجرة إلى أمريكا فرحت ، ولما علم أبي بذلك عرض عليّ زوجا شفقة عليّ ، فرفضته ورحلت لبلاد الحرية والحب ، فوجدت أمي تريد من يفك وحدتها فكرت بالعمل ثم عكفت عنه .. كرهت هؤلاء الأجانب وعاداتهم وغرائبهم .

ووجدنا أخاك سمريا متزوجا فتاة أمريكية .. لا أشتريها بخمسة فلسات .. وهي لئيمة مع أمك وإن كانت تظهر لي بعض الود والميل .. المهم تركنا سمريا ونسكن شقة وحدنا .. مضى علينا فيها شهر وأيام ولم يطرق علينا الباب .. أحيانا يتحدث معنا بالهاتف .. مشغول بين عمله ودراسته للماجستير وزوجته أيضا .. إننا عندما حولت حسنية المخلصة رسالتك لنا إلى أمريكا كانت مفاجأة طيبة وبلسما لنا ..

أخي الحبيب

أمي مشتاقة لك وتريد أن تعيش عندك ، إنها تائهة حائرة .. بغضت مثلي لهذا المجتمع مجتمع التفكك الأسري .. نحن بحاجة إليك يا عمري .. انظر ما تراه مناسبا .. ونحن في انتظار ردك .. سلام إلى زوجتك الطيبة أحلى امرأة في العالم .. سلام إلى ابنك أو ابنتك .. تحيات وقبلات أمك للجميع .. لا تنسانا أيها الأخ الحبيب

أختك المحبة

بدرية الخابي

التاريخ

فيرجينيا ـ أمريكا الشمالية

ثم ذكرت عنوان المراسلة ورقم الهاتف .

****

قرأ السيد عمري هذه الرسالة ، وأخذه البكاء والنحيب ، وكان صاحبنا لما استلم الرسالة ترك عماله وعاد للبيت ، فاستغربت الزوجة الشابة زينب من عودته المبكرة قبل الغداء ، فقال لها مزيلا حيرتها : تلقيت رسالة من أختي الحبيبة .. فجئت اقرأها على هدوء ..

فصنعت له فنجان قهوة وتركته يقرأ وحده ، فلما سمعت بكاءه هرولت إليه من غرفتها وقالت بلهفة : ماذا حدث أيها الزوج الطيب ؟ ! أخبرني يا عمري ؟

فقال وهو يبكي ويتشنج : إقرئي هذه الرسالة يا زينب

تناولت الخطاب بقلق واضطراب وقرأتها ، فبكت كما بكى عمري وقالت بقوة وحزم : عليك بأن ترسل إليهن فورا بالمجيء .. فهؤلاء أهلنا وأحب الناس إلينا .. أسرع يا عمري بالكتابة إليهن .. إنهن يستنجدن بك .. بل اتصل بالهاتف فها هو رقم الهاتف مذكور في الرسالة .

لقد ذكرت بدرية رقم هاتفها في الرسالة ، فقام إلى الهاتف واتصل بأمريكا وبعد دقائق كان يتحدث مع بدرية فلما حياها وحيا أمه وبكى تحت سمعها واعتذر لها طلب بدرية ثانية ثم قال : إنني بشوق إليكن وأنا في انتظاركن .. اكتبي هذا الرقم ـ وأملى عليها رقم هاتف المنزل ـ وعندما تركبنّ الطائرة اتصلي بي فأنا لا أحتمل بعدكن عني .. وأنا في انتظار الاتصال

كانت الفرحة كبيرة لم يسعها قلب مريم ، وسرت من تلهف ولدها إليهنّ وبكائه ، فهو منذ قرأ الرسالة اتصل بهن ، فأخذت تدعو له بالتوفيق والرضا وتتحدث عن شوقها الكبير لرؤيته بعد كل هذه السنوات ، وقالت بدرية متأملة الموقف: أرأيت يا أمي ماذا يفعل الدين الحقيقي بأهله ؟! .. أنا ما زلت أذكر عندما عاد عمري من إنجلترا.. سلم علينا من طرف أنفه كأنه ما غاب عنا يوما واحدا .. أما الآن كان يتكلم والدموع والشهيق في لسانه ولهجته الدين يرقق الأفئدة .. لا يريد منا إخبار سمري بمسيرنا إليه .. فنـقول له : إننا مللنا الحياة هنا وسنعود للحياة بين الأهل والأحباب وأظن أنه سيرحب بذلك سريعا ويفرح أيضا

وهذا ما حصل فعلا ، فلما سمع سمري رغبتهن بالعودة للوطن أغلق الهاتف ، وأقبل إليهن مسرعا ومعه سيزانا بالطبع ، فأخذت الأم تحدثه عن ضجرها من الحياة في المجتمع الأمريكي ، وأنها تفكر بالعودة للحياة عند أهلها وأحبابها ، وطفقت سيزانا تشجعها على العودة ، وبعد

حين يسير تحمس سمري وبين لهنّ محاسن العودة للبلاد ، وخلال أسبوع كان سمري قد حجز لهن تذكرتين إلى نيويورك ومنها لأوروبا وبعد ذلك لأرض الوطن ، وليلة الرحيل اتصلت بدرية بشقيقها عمري وأخبرته بتاريخ السفر وساعة الرحيل ، وأنها ستتصل به من روما أو مدريد حسب رحلة نيويورك .. ولما أوصلهن سمري للمطار ودعهن بعجلة لكثرة أشغاله ، ولم ينتظر معهن لحين إقلاع الطائرة ؛ ولكنهن لم يكترثن بذلك ، فقد كان شوقهن لعمري كبيرا ينسيهن الانتباه لهذه المواقف.. وصلت الطائرة مدينة نيويورك عاصمة المال والتجارة العالمية ، ومنها إلى أوروبا ، وبعد يومين في أوروبا حجزن تذكرتين ، ولما رحلن من أوروبا كانت بدرية قد تكلمت مع أخيها عن تفاصيل الرحلة ، ووصلت الطائرة الجامبو مطار البلاد في الليل قبل الفجر ، ولما خرجن من الطائرة كان عمري في انتظارهن ومعه زوجته زينب وولداه اللذان تركهما نائمين في السيارة ، فلما أخذن الجوازات أخذن يتطلعن يمينا وشمالا فلم يعرفن عمريا ابتداء فهو كما يعلم القراء قد ترك لحيته على سجيتها وكان يضع على عينيه نظارات ملونة ، فلما اقترب منهن خلع النظارة واندفع نحوهن وهو يهتف : أهلا بأمي الحبيبة

وتعانقت الأم وولدها الذي هرب من البيت قبل سنوات قليلة ، وكانت الدموع تنساب من العيون وتسمع الزفرات والتنهدات ، ثم عانق أخته ، فلما انتهى من عناقهنّ والترحيب بهنّ ، وكانت زينب تقف خلفه ـ وهي في ارتباك وتأثر ـ فأشار إليها قائلا : زوجتي زينب يا أمي قبلت الأم كنتها واحتضنتها ، فسلمت عليها الأخرى بحرارة وقبلت يديها، ثم عانقت بدرية ، وكانت الحقائب قد وصلت فتناولها عمري وقال : الأطفال في السيارة

استيقظ الطفلان على فتح صندوق السيارة ، فعانقت الجدة حفيدها ذا السنتين وحفيدتها ابنة الأشهر وهي مسرورة مما وجدته من حرارة اللقاء ومن شوق وحنان لدى ولدها وزوجته .. وكان عمري قد أحضر معه ساندويتشات وزجاجات العصير البارد فقدمها للجميع ، وكانت مريم قد انشرح صدرها كما قالت لكنتها الفتاة الرقيقة المجلببة ، وكانت قبل رحيلها لأمريكا إذا رأت فتاة تلبس الجلباب وغطاء الرأس تشمئز نفسها وتكاد أن تقيء من القرف والجهل من هؤلاء الفتيات اللواتي يلبسن هذه الأسمال ، أما الآن فلا ، فقد تهيأت زينب لهذا اللقاء ، قد

كانت زينب طيبة ولسانها جميل وحلو كالعسل ، بل بدرية سرت منها ، ورأت أن أخاها صادق بوصفها بأنها أحلى امرأة في الدنيا ؛ لأن كلامها يشفي الجراح ، ويرفع من نشوة الروح ، فالمسافة بين الريحانة والعاصمة تحتاج لثلاث ساعات لقطعها ، ووصلوا مدينة الريحانة مع شروق الشمس، فقامت زينب على الفور بتهيئة الحمام للأم والبنت وانشغلت وزوجها بصلاة الفجر .

زينب

وكان عمري قد هيأ حجرة بأثاث جميل ، فيها سريران لحياة أمه وأخته معه ، فلما اغتسلن كانت زينب قد أعدت لهن الطعام ، ثم طلب منهن عمري الرقود والراحة وبعد الراحة والنوم يبدأ التفكير والحياة ، فكانت مريم تقول لبدرية قبل أن تستغرقا في النوم : إني لا أكاد أن أصدق ما أرى .. عمري صاحب هذه الأخلاق .. بل زينب هذه الفتاة الرائعة أكثر منه حنانا وعطفا وذوقا من غير إشعارنا بحرج أو ضيق .. لقد سحرتني بنبلها وأخلاقها وحبها مع أننا أول مرة نتقابل .. ولا أظنها تنافق لا يوجد ما يدفعها لذلك ..

فقالت بدرية : منبتها حسن يا أمي .. نحن كنا في جاهلية ..المرأة تحب زوجها وتخدمه وتخدم أهله وترى ذلك عبادة وقربى إلى الله أخي عمري محظوظ وقد عرف دربه .. وفقه الله

فقالت الأم بحسرة : علينا أن نتغير يا بدرية .. الدنيا ماكرة ولا تدوم على حال .. أنا في السنة الأخيرة عرفت الدنيا والناس أكثر من الخمسين التي مضت من العمر

فقالت بدرية:تحول الإنسان مثلنا يحتاج إلى إرادة وعزيمة قوية يا أمي

فعادت مريم تقول : والله يا ابنتي بعد تلك البهادل ما عاد في الدنيا شيء حلو .. فمنذ طلقني أبوك وأنا أحس بالمرار وأقول ليس للدنيا أمان ، فبعد عشرة أربعين سنة رماني كما يرمي الناس الجيفة .. فشددت ظهري بولدي البعيد ؛ فإذا هو غارق في دنياه وهواه ، ولا يستطيع الجلوس معي ساعة من نهار .. وها هي قمرية منذ سافرت إلى أمريكا لم تتصل بي وتواسيني وتشد من أزري .. وأنت لأنك نفرت من الرجال قبلت العيش معي على مضض .. إنك تحبين الحياة والحركة وما زلت في مقتبل العمر، فعندما يذهب عنك الذهول وصدمة الأحداث ستعودين لما كنت عليه .. لا تظني أنني جاهلة يا ابنتي ! .. الحياة تجارب وخبرة عندما يكون الشخص قويا الكل يحسب حسابه ، واعلمي أنه رغم معرفتي لحياة أبيك الفاسدة كان صمتي على ذلك لتسير السفينة .. فعندما غمزته امرأة تظاهرت بأنها تعشقه صدق نفسه أنها واقعة في هواه ، وغدا ستعلمين من أخبارهما ما يحزنك على والدك .. لقد حدثتني عنها إحدى معارفها فقالت : هي ثعبان أملس يحمل بين نابيه السم القاتل أبوك يظن أنه كسب امرأة ومالا فأخشى يا

بنيتي أن يخسر المال بعدما خسرنا ..

فقالت بدرية بحزن وأسف : ماذا سنفعل بالمال ؟! ها نحن نملك الأموال والأرصدة ولا نستطيع إلا أن نبحث عن رجل نحتمي به ونعيش في كنفه..

فقالت الأم : سنة الحياة .. لا الرجل يستقل عن المرأة ولا المرأة تستغني عن الرجل سواء الأب أو الأخ أو الابن .. طبيعة الحياة .. ومن يستغني عن ذلك يره جميع الناس شاذا .. المال لابد منه للحياة ولكنه ليس كل شيء

أمضت الأم وابنتها أسبوعا هادئا في كنف ولدها البكر عمري ، ورأت ولمست منه حنانا لم تكن تراه عندما كانوا يعيشون في بيت السيد ناصح ، وكانت زوجته في غاية المحبة والظرف معهنّ ، فلمست الأم السعادة والوفاق الذي يغمر هذه الأسرة ، فكانت زينب لا تخطو خطوة إلا بالاتفاق والتفاهم مع زوجها ، ذات يوم قال عمري : يا أمي ! .. إنني أبحث عن بيت واسع .. ليحلو لكم المقام معي .. فطاعة الأم بالمعروف واجبة وليس منّا أو تحميل جميل ..

فقالت مريم : في هذه الأيام القليلة والله يا ولدي إنك عوضتني عن كل الأيام التي قضيتها عند أخيك في أمريكا ، لم يحسسني يوما أنني أمه ، وكان يعاملني بخوف وقلق من أبيه كأن أباه معنا .. تصور يا ولدي ذات يوم قلت له يا ولدي إنني أملك ملايين الدولارات لا تخاف أن يقطع عنك أمواله .. فسخر مني وقالماذا تفعل ملايينك مع ملايين أبي ؟! .. والآن حان وقت سماع قصتك منذ رحلت عنا .. فلنا أكثر من أسبوع ننتظر

قص عليها قصته باختصار وسبب اختياره لهذه المدينة ، ومحاولته العمل في الشركات الخاصة ولم يستطع الصمود أمام الغش والتلاعب ، ففتح محلا لبيع الأثاث ، ثم فتح محلات أدوات منزلية .. ثم نزوله العاصمة بعد عام ، واتصل بصاحبه علي الحمد وحسن فوفقه الله بالزواج من أخت حسن ، وقد تزوجها بأقل من ألف دينار ، فباركت له الأم اختياره وتمنت له السعادة الدائمة وقالت : يا ولدي الحياة بدون أولاد تعيسة ومؤلمة .. أيها الحبيب .. اشتري أكبر بيت في الريحانة فأموال أمك تحت تصرفك

فقال : الأمور تمام يا أمي .. لا أريد أن أشعر أنني احتضنتك لأجل الأموال التي معك

فأموالك لك .. فهذا البيت مناسب قبل مجيئكم فنحن بعد أسرة صغيرة .. وقد اشتريت قطعة ارض في ضاحية جديدة ستنشأ في الريحانة يا أمي ! وعندما يبدأ الناس بالبناء سأفعل مثلهم .. وأنا أبحث عن بيت أكبر من هذا من أجلكم ولتأخذوا راحتكم في البيت والمطبخ وأنا يسرني جدا أن تأكلوا من تحت يدي زوجتي ؛ ولكن قد لا يعجبكم اختيارنا لأصناف الطعام .. وزينب لا تتضايق أبدا من صحبتكم ومن أكلكم معنا

فقالت الأم متأثرة : صدق يا عمري يا حبيبي أن طهي زوجتك طيب ولذيذ .. ونحن كنا نأكل كما تعلم من طهي حسنية المسكينة ، فكيف زينب الأميرة الرقيقة الطيبة ؟! .. اسأل بدرية لقد أثنيت على حسن طعامها وإتقانه كثيرا .. إنها سيدة فاضلة وتحبك كثيرا وسعيدة بك هنيئا لك بها ..

فقال عمري : حق هذا يا أماه .. من أعماق قلبك أنت راضية عنا

قالت بفرح غامر : أجل يا حبيبي .. لقد بلغت الخمسين سنة ماذا جنيت من حياة الملاهي والسهر ؟ .. إنني طلبت من زينب أن تعلمني فروض الصلاة .. وأفكر بالحج يا ولدي لأعاهد الله على التوبة والندم .. إن كلام زينب بلسم .. تعرف واجباتها ودينها وحقوق زوجها وأولاده وأقاربه .

فقال باسما : كل ذلك عرفتيه في أسبوع فردت باسمة : بل عرفته منذ التقينا بالمطار .. احرص عليها يا ولدي .. إنها فتاة مؤمنة .. يا عمري قبل أن تحضر بدرية وزينب ، أما حدثتنا عن الطبيب الذي أشرت له في رسالتك لأختك .. فإذا كان مناسبا زوجناهما ولا داعي للإنتقال من هذا البيت حتى تبني بيتك الجديد في الأرض الجديدة ..

فرد عمري فقال : عندما كنت أعيش في كنف أبي يا أمي .. كنت أحس وأشعر أن بدرية تريد أن تسير معي وتصلي ولكنها خائفة مترددة ليس لديها الشجاعة والتحدي للانعتاق من الخوف والقيود .. فلما أتيت الريحانة تعرفت على الطبيب فائز في المسجد ، فهو يعمل في مستشفى الحكومة هنا ، ووجدت أنه يسكن في حي الصخرة هذا الحي ، فتصادقنا وأحببته في الله ، وهو أحبني في الله سبحانه ، ومن حبي له ذكرت يوما حبي لأختي بدرية ومحاولة إنقاذها من النار

ومن تقاليد العائلات ، ونتيجة الكلام أبدى رغبته بالزواج منها حبا لي ولإنقاذ نفس من النار فإذا بدرية لديها استعداد للزواج فعلينا تدبير ذلك ، فالطبيب فائز إنسان لطيف وشاب ممتاز .. وهو صديق مخلص

فقالت : سأفاتحها بالموضوع .. يجب أن تتزوج فقد أصبحت ابنة ست وعشرين سنة .. والعمر يجري

ـ هناك مشكلة بسيطة إن شاء الله .. وهي أن البكر في بلادنا إذا أرادت الزواج تحتاج لموافقة والدها إذا كان على قيد الحياة .. فدبروا ذلك إذا رضيت بدرية بالزواج من صاحبي فائز لطفي وطبعا سوف استدعيه ليراها وتراه .. فالنظر مطلوب بين الخاطبين .. وهو منذ عرف بعودتكما وهو مشتاق للسلام عليكم ورؤية العروس ..

فقالت الأم : بارك الله فيك يا ولدي .. هذا من حبك لأختك وحرصك على طهارتها وعفتها هذه أشياء لم نكن نهتم بها كثيرا ونحن في بيت الأسرة .. والله إنني أسمع كلاما من زينب فأتعجب من جهلنا ومناداتنا بحرية المرأة العربية ، ومساواة الرجل والمرأة ، وإلغاء القوامة والتعدد ، ووضع التعقيدات في طريق الطلاق .. اكتشفت أننا نحارب الإسلام والدين ونحن جاهلون به ، لا نعرفه ، نظن أن أعراف الناس وعاداتهم كلها دين وهي بعيدة عن الدين .. فأتحفتنا زينب بقصص لطيفة عن زوجات النبي (ﷺ) ومشاجراته في البيت ومداعباته وحياته الخاصة ما يكاد يصدق .. حتى أنها تقول إنه تسابق مع زوجته عائشة مرتين هات لي رجلا يتسابق مع زوجته في عصرنا هذا ، ورخص لها وأذن لها بمشاهدة الأحباش يلعبون في المسجد بل هناك قصة أن إحدى زوجاته طلبت من ضرتها أن تركب هودجها لتسمع ما يقول الرسول (ﷺ) لعائشة.. قصص مدهشة لم نكن نسمع بها ونعرفها .. بل حدثتني عن هجر النبي (ﷺ) لأزواجه شهرا .. بل أيضا لما أراد طلاق إحدى زوجاته الكبيرات في السن تنازلت عن ليلتها في القسم والمعاشرة من أجل أن تبقى على ذمته وزوجته في الجنة .. قصص وحكايات حلوة وجميلة غير منتشرة بين الناس .. فزينب هذه رائعة .. بل تقول لو تزوج عليها عمري ثانية فلن تمانع ، وإن قد تتألم وتتضايق ابتداء لطبيعة النفس البشرية ؛ ولكنها طائعة لله ترضى بذلك ..

وتقول إن الناس يظنون أن الحجاب والجلباب يفرضه الرجال على النساء .. لا .. إنما هو أمر الله فرض من الله .. والله لا يفرض شيئا ضارا ومشوها وفاسدا لأنه هو الحكيم الخبير العليم .. رائعة .. رائعة زينب ! ظهرت أمامها يا ولدي من أجهل الناس، لقد دهشنا أنا وبدرية من حكاياتها وفهمها لسيرة الرسول (ﷺ) تبكي يا ولدي نحن الذين يجب علينا أن نبكي ، نحن لم نكن نعرف التربية نحن فقط نقلد ونتشبه ..

فقال عمري وهو يمسح دموعه : إنني سعيد بكل ما تقولين يا أمي .. فهذا يدل على أن الإيمان قد دخل قلبك وكبر .. أنت تسمعين ذلك بقلبك المؤمن فمن أجل ذلك تقبلت كلمات زينب فأنا سعيد ..

فقالت وقد تأثرت ببكاء عمري : يا بني كنا نعيش في الوهم ، وتظن الواحدة أنها ملكة ، وتظن أنها أفهم النساء بمعاشرتها لنساء وسيدات المجتمع .. ثم ترى نفسها يوما مدحورة مطرودة .. فهل تأسف على ملك زائل ؟ فامرأة شقراء أنست أباك عشرة عمر ، ورمى عليها يمين الطلاق بدون أسف وحسرة وندم .. أنا أحسدك على زينب مع أنها تركت المدرسة بعد الثانوية العامة فلم تدخل معاهد أو كليات ولكنها تقرأ جيدا وتفهم جيدا ..

- وأسرتها طيبة يا أمي .. أبوها ملتزم وأكثر أهلها كذلك وهذا عامل مهم في التنشئة .

*****

كانت بدرية هي الأخرى منشرحة الصدر لكلام زينب وتقارن نفسها ابنة الجامعة مع ثانوية زينب ، فترى أنها أمية درست أربع سنوات لتحمل شهادة ، وتعمل موظفة في شركة تكتب بعض الأوراق والملفات يدرسهن طفل في أسبوع ، وأما الدين الأمر المهم في حياتها الدنيوية والأخروية فهي فيه لا شيء .. لا تحفظ آية من كتاب الله ، وعندما تسأل عن دينها فتجيب السائل الإسلام أو أنا مسلمة ، وهي لا تعرف أبجديات الإسلام ، إذن صحبتها لزينب غيرت من نظرتها لدينها ، وأن الحياة ليست كلها لهو وعبث وقضاء شهوات ورغبات ، فعرفت أن الإسلام لا يمنع المرأة من طلب العلم ودراسة المحاسبة والسكرتاريا والإدارة والتجارة ، وجدت أن الإسلام لا يمنع الأنثى من الخروج للترفيه والبساتين والمياه ولا يمنعها من العمل

وهناك مجالات للعمل تكون أفضل من غيرها للمرأة ؛ ولذلك قد عزمت على التمسك والتفقه بدينها ، واعتبرت أن الأحداث التي جرت كانت خيرا لها ولأمها ، وأن المال لا يغني عن الاهتمام بالحياة الأبدية بعد الموت ، فازداد حبها لأخيها وزوجته ، فلما فاتحتها أمها بموضوع الطبيب ، قالت بانبساط وسرور : أنا راضي باختيار أخي وراضٍ بصديق أخي .. وأرى أن الحياة في هذه المدينة جميلة وطيبة رغم أنها مدينة بحرية فتنظيم المدينة تنظيم ممتاز ومجاورة زينب فيها خير كثير

فقالت الأم : على بركة الله يا حبيبتي .. وعليكما أن تنظرا لبعض كما يقول عمري .. فالنظر في هذا الموضع جائز بين الرجل والمرأة ، وإن كنت أحسب أن الشاب موافق من قبل أن يراك لحبه لأخيك كما شعرت من كلام عمري رضي الله عنه

ابتسمت بدرية وهي تسمع كلام الأم ، وأخذت تقارن بين صورة أمها في العاصمة وأمها اليوم في الريحانة ، وهمست : الإنسان عجيب! وأرسلت الأم وراء عمري وزينب وأطلعتهم على موافقة بدرية على الاقتران بفائز لطفي .

فقال عمري مسرورا : غدا بمشيئة الله سبحانه سيأتي ومعه أخته ، فأمه ميتة منذ زمن منذ كان طفلا ، وأبوه بعدما ربى الأولاد تزوج من امرأة تصغره بسنوات لتقوم على خدمته ورعايته .. فله أخت فاضلة متزوجة ولديها أطفال وغدا ستتعرفون عليها

تمت المشاهدة الشرعية بين الشاب والفتاة ، ووافق الاثنان على الزواج في نفس السهرة والجلسة ولكن عمريا طلب من صديقه أن يرد عليه بعد أيام ، وأن يـفكر بالموضوع على هدوء بعيدا عن الخجل والإحراج

زواج بدرية

كانت المشكلة التي تواجه العروسين هي موافقة الأب ناصح الخابي على هذا الزواج أو قل توقيعه على عقد الزواج ؛ لأنه لا يتم زواج البنت البكر في قانون الزواج إلا برضا ولي أمرها ، وهو ابتداء الأب وهذا مطلب شرعي أيضا ، فبعد تأمل ونظر قال عمري : عليك يا أمي باستئجار شقة مفروشة في العاصمة ، وعلى بدرية الاتصال بوالدها وتخبره بعودتكم ـ ولابد أن سمريا أخبرهم بذلك - وتخبره بأنها وجدت الزوج المناسب ، ثم نتفق مع الكاتب الشرعي المعين من قبل المحاكم الشرعية ، وفي اليوم المحدد يحضر والدك يا بدرية لوضع توقيعه ، وإن حاول الاعتراض قولي له لن أتزوج الا من هذا الشاب ، لا تحدثيه عني فلكل أجل كتاب .

وبعد أن تدارسوا خطة عمري والموضوع من جوانبه وجدوه هو الحل الأمثل ، وإذا رفض ناصح هذا الزواج وصمم على الرفض ستلجأ بدرية للقاضي ليكون ولي أمرها ، فقام عمري وأسرته بزيارة العاصمة فترك زوجته وولديها عند أهلها ، واتصل بمكتب عقاري فحصل على شقة مفروشة لمدة شهر واحد ، ونزلوا فيها وعلى الفور اتصلت بدرية بقمرية التي عتبت عليها مجيئها البلد ولم تتصل بها لتكون في استقبالها ، فضحكت بدرية وقالت متهكمة : كم تلفون رن علينا في أمريكا ؟! .. المهم أنا ساكنة مع أمي .. وذكرت لها اسم الشارع والحي واسم العمارة ، وذكرت لها أنهن قضين عدة أيام في أوروبا ، ثم ذكرت أنها وجدت شابا مناسبا للأقتران به ، وطلبت منها أن تتصل بأبيها وتخبره بموضوعها ، ثم ختمت حوارها قائلة : غدا سأتحدث معك

تحدثت قمرية مع والدها ، ثم قامت بزيارة أمها وأختها في الشقة المستأجرة ، وجرى بين الجميع عتاب ، وأبدت قمرية اعتذارها لأمها وأختها وأظهرت سرورها بعودتها ، ولما سألتها بدرية عن رأي والدها بموضوع الزواج فقالت : إنه راغب برؤيتك في الفيلا

ومشت بدرية للفيلا بزيارة ، وسلمت على حسنية والحارس عمران ، والتقت بجبر زوج أختها الذي أخذ يسألها عن العريس ، فقالت : هو طبيب وشاب جيد ومقبول

ولما جاء الأب تعانق الأب وابنته وعتبت عليه بدرية وقالت : يا أبي منذ سافرت لم تتصل بي

ولو مرة واحدة ..

فتظاهر بالانشغال والنسيان ، ثم حدثته عن الزوج الذي اختارته واتفقت معه ، وأنها وأمها لم تطب لهما الحياة في أمريكا فقررتا العودة ؛ ولكنهما امضيا ردحا من الزمن في ربوع أوروبا ومن يومين وصلوا المدينة ، ولما سألها كيف تعرفت على الشاب العريس ؟

قالت : أنا لم أعرفه إلا منذ وصلت فقط .. ونحن في فرنسا التقيت مع أسرة عربية سائحة وتصاحبت مع فتاة ، وخلال الكلام حدثتني عن أخيها الطبيب ، وأنه يبحث عن عروس منذ عهد وهكذا كانت البداية .. فلما استأجرنا الشقة حضر مع أخته واتفقنا .. وذهبنا للقاضي الشرعي فقال لنا يا بنية ما دام والدك على قيد الحياة فعليه بالموافقة والتوقيع على العقد الشرعي فقال ناصح بنبرة غاضبة : كنت تريدين الزواج من ورائي ؟

فقالت بخبث ومكر : لا يا أبي إنما فعلت ذلك من أجل عيون أمي .. فأنا كنت أعرف ذلك فلما تيقنت أمي أن الزواج لا يتم إلا بموافقة الأب قالت لي افعلي ما شئت .. فاتصلت بقمرية لتخبرك بوصولي .. فأمي مسكينة يا أبي ! .. إنها بحاجة إليك وإلى عطفك وودك ..

فانتفخ رأس ناصح تيها وقال : الآن لا أستطيع أن أفعل لها شيئا .. وزوجتي الجديدة امرأة قوية ولا تقبل بعودة أمكم .. ولقد انتهى ما بيننا .. وأنت غدا ستتزوجين وتنسين أمك وأباك ولما يجهز المأذون اتصلي بي وسآخذ قمرية ونأتي اليكم لنضع التوقيع والموافقة على الورقة وألف مبروك يا ابنتي فهذه حياتك واختيارك وأتمنى لك السعادة ، وما دام هذا اختيارك فهو خير وسيكون بين يديك شيك بعشرة آلاف هدية العرس والزواج

وودعهن وانصرف وعلى أثره انصرفت بدرية ، وقد أدركت أن والدها لم يبق لأمها في قلبه ذرة ود أو عشرة ، فعجبت من ذلك ، وقالت معزية نفسها : لابد أن امرأته الجديدة مسيطرة عليه سيطرة تامة .. حتى من أجلنا لم ينافق ويداهن .. حسبنا الله ونعم الوكيل

فلما استمع عمري ما قصته بدرية اتصل بالدكتور فائز لطفي وحثه على المجيء غدا صباحا ، وذكر له عنوان الشقة ، وفي الصباح الباكر تحرك عمري ونسيبه حسن إلى المحكمة الشرعية، وهناك ذكر لهم الموظفون اسم المأذون الشرعي وعنوانه فساروا إليه واتفقوا معه وأعطوه عنوان

الشقة ورقمها ، وفي الخامسة مساء كان المأذون الشرعي والطبيب وأخته ومريم وبدرية وصديقان لحسن في انتظار السيد ناصح الذي أتى حسب رغبة ابنته بدرية ، كان يريد زواجها تبرئة لذمته نحوها ولتنشغل في بيتها وذريتها ، فلما دخل الشقة وخلفه قمرية ، ورأى زوجته الأولى فحياها ببرود وغضب ، ولما عرف أن الطبيب صاحب اللحية هو صهره كاد يفرط الزواج ؛ ولكنه لما سمع هدير مريم ورغبة بدرية به واقتناعها به ، وقع على مضض ، وتمت كتابة عقد الزواج ، ثم شربوا مشروبات العقد ، وانصرف المأذون ومعه الشاهدان ، وعلى الفور قال ناصح : مبارك يا بدرية .. مبارك يا دكتور فائز

فشكروه على تعاونه وتساهله ، ثم تحرك للخروج بعدما ودع فائزا ومطلقته ، وخرجت بدرية تودعه ، وقبل أن تركب قمرية بجوار والدها قالت لها : أين عمري ؟

نظرت إليها بدرية : ماذا تقصدين ؟ !

فردت باسمة : أصابع عمري في هذا العريس .. سلام بدرية سلام

وفي الصباح الباكر كانت مريم تسلم مفتاح الشقة للبواب ، وأنهى عمري العقد مع صاحب العقار بحجة السفر العاجل ، وعادوا لحي الصخرة ، وخلال أسبوع كانت بدرية قد سكنت في بيتها المستقل ، وأصبحت حليلة شرعية للطبيب فائز لطفي .

وأما قمرية فقد حاولت الاتصال بالشقة فلا أحد يرد ، ولما ملت من الاتصال ذهبت للشقة بنفسها ، فأخبرها البواب بسفرهم المفاجئ .. فأدارت عجلة السيارة وعادت للبيت ثانية .

*****

استطاعت زينب الفتاة البسيطة المتدينة أن تفرض نفسها وشخصيتها المتواضعة وسلوكها الحسن على حماتها أم زوجها ، فاندمجت المرأتان معا ، وكانت زينب تعامل أم زوجها كأنها أمها فتعاملها برقة ورفق ، والسيدة مريم لم تكن بالمرأة العنيفة أو الشرسة ، فهي قد وجدت نفسها بحاجة لهذه الحياة الهادئة ، فطابت لها الحياة مع ولدها عمري وزوجته ، وكانت تحب الطفلين وتستمع باللعب معهما .. ولما أتى موسم الحج حجز عمري لنفسه وأمه وزوجته وترك الأولاد عند أخته بدرية التي سرت ورحبت بصحبتهما ، ولما اقترب موعد السفر تحركوا إلى المطار

وبالطائرة إلى جدة ومنها لمكة الكرمة ، فقاموا بأداء عمرة الحج ، وبعد يومين قضوها في ربوع مكة المكرمة مشوا إلى منى في اليوم المسمى يوم التروية ، وفي اليوم التالي المعروف بيوم عرفات صعدوا مع الصاعدين للجبل جبل عرفات ، وظلوا عليه يدعون مع الداعين حتى الغروب ، ثم انحدروا نحو المزدلفة حتى أصبحت وأشرقت شمس يوم النحر يوم الحج الأكبر ، فعادوا لمنى وشاركوا الناس فرموا الجمرة الكبرى بسبع حصيات ، فذبحوا هديهم ، وحلقوا شعورهم ثم تحولوا لمكة للطواف والسعي ثانية ، وفي المساء عادوا لمعسكرهم في جبال منى، وكانوا يتنقلون بين منى ومكة حتى انتهت أيام التشريق الثلاثة، ثم طافوا طواف الوداع ، وانتقلوا إلى مدينة الرسول الأعظم (ﷺ) فصلوا في مسجده وزاروا قبره وسلموا عليه وعلى صاحبيه أبي بكر وعمر ، وزاروا بقيع الغرقد ثم عادوا لمكة ثانية ومنها لجدة ثم عادوا للريحانة ، ورغم تعب السفر والمناسك ، فقد استفادوا شيئا جديدا وحققوا ركنا عظيما من أركان الإسلام ، وأخذوا شحنة كبيرة من الإيمان ، وتعرفوا على أماكن بدايات الدعوة العظيمة ودين الله الخالد ، ولما سمعت بدرية أمها تتحدث عن مكة والمدينة زاد شوقها إلى تلك الديار ، ووعدها زوجها برحلة حج في الموسم القادم ، وكانت مريم صادق تقارن بين رحلاتها الكثيرة إلى ربوع أوروبا وأمريكا وبين رحلتها الدينية إلى الصحراء والرمال والجبال الشاهقة ، فتلمس الفرق الكبير ، فترى أن الرحلة الدينية فيها انشراح صدر وابتهال وشوق للرحمن ، وأما رحلتها لفرنسا أو سويسرا إنما كانت للمتعة وإضاعة الوقت واللهو وتبذير المال ولتقول لمعارفها : زرنا باريس زرنا فينا زرنا زيورخ وجدت أن العبادة في الصحراء ممتعة ولها رهبة على القلب ، وفيها ذكريات عظيمة، في هذا المكان كانت دعوة إبراهيم وذبح إسماعيل وظهور نبي الإسلام محمد (ﷺ) فتمنت رحلة أخرى ، فتحمس ابنها عمري لحماسها وتشوقها لتلك البقاع المقدسة والمباركة فوعدها عمري بعمرة في كل سنة ، فلقد بدأت المرأة تتخلص من أدران الماضي ورواسبه ، وتحس بلذة وطعم الإيمان ، وتسر لسماع كلام وفتاوى العلماء ، وتقارن بين حالها في بيت زوجها ناصح وحالها في بيت ولدها ، فترى الفرق الكبير بين بيت النور وبيت الظلام ، كانت عندما تفتح جهاز التلفاز وترى جلسة لشيخ أو عالم تقلب المحطة إلى أخرى أو تغلق الجهاز وهي تتمتم أما زال هناك

من يسمع لمثل هذه البرامج ! .. أما الآن فمن أحب الأشياء إليها سماع الدروس العلمية والتثقف في دينها ، وكانت زينب تساعدها وتعلمها تلاوة القرآن ، بل قام عمري بإحضار معلمة خاصة لتعليمها حسن القراءة الصحيحة ، وبعد رحلة الحج التي تحدثنا عنها بشهور يسيرة أتمت البلدية لمدينة الريحانة تجهيز البنية التحتية للضاحية السكنية الجديدة ، فقد انتهت من إنشاء الشوارع وأعمدة الإنارة وخطوط الماء والهواتف والصرف الصحي (المجاري) ، فبدأ أصحاب الأراضي ينشطون بإقامة مساكنهم حسب ما هو مخطط لتلك الضاحية (ضاحية الصالح) ، وعلى الفور باشر عمري وصهره فائز بالبناء ، فقد كان لكل واحد منها قطعة يفصل بينهما شارع ، فأقسمت مريم على مساعدة الطرفين ورغم ترجي عمري لها أن لا تدفع أو تساهم ولكنها أصرت فأعطت لكل واحد منهما خمسين ألف دينار ، فقال عمري : عليك أن تعطي قمرية وسمريا مثلنا يا أمي ! فهم أولادك مثلنا .. والعدل بين الأبناء مطلوب

فقالت الأم : ما أخبار قمرية ؟

فقال : أرسلنا لها بعض الهدايا أنا وبدرية وبعضها باسمك مع أحد السواقين العاملين بين الريحانة والعاصمة ، وقد تحدثت معها بدرية في الهاتف ، وهي راغبة بالحديث معي ومعك .. سنتصل بها في وقت مناسب وهي بخير ، وقد قالت لبدرية إن صحتها مع الحمل صعبة وإنها تراجع الطبيب كل يوم

ـ من الضروري الحديث معها .. وعندما تبني بيتا بإذن الله تعالى سأهديها خمسين ألف يا ولدي كما أعطيتكم

ـ بارك الله فيك يا أمي ! فالمساواة في العطية سنة نبوية يا أماه .. الليلة سنسير للبحر فقد دعانا حبيبنا فائز للعشاء على شاطئ البحر في كازينو الريحانة وهو يترجاك أن ترافقينا

نجاح عمري

مضت عشر سنين على زواج بدرية وفائز لطفي ، وقد أصبح لديها ثلاثة أطفال ولدان وبنت وقد طاب لهم العيش في الريحانة وأصبحوا من أهلها ، وكثرت مشاريع عمري فاستثمر أمواله في مشاريع شتى ، في النقل والاستيراد وإعادة التصدير ، فأصبح من كبار التجار ، ثم قام بإنشاء شركة مقاولات وإعمار ، فلمع اسمه في المدينة الشيخ عمري محمود ، لم يكن يحب صاحبنا ذكر اسم الخابي منذ بدأ حياته في الريحانة ، كان يتفقد أصحاب الحاجات ، ويقيل أهل الجوائح ويحسن للمساجد والمشافي ودور الأيتام ودور العجزة والمسنين ، وكان يرى أن الله سخره لخدمة هؤلاء الناس فلم يكن يبخل عليهم بشيء ، كان يرى أن الله ابتلاه وامتحنه بالمال ، ولقد استعان باخوة زينب في إدارة بعض المشاريع وأعمال الخير ، فالمال فيه حق لله وحق للضعفاء والفقراء ، فقد جعل موظفا خاصا لترتيب أمر الزكاة وتوزيعها ،كانت أمه تشجعه وتشاركه في العطف على المحتاجين ، وتفعل ذلك وهي مسرورة سعيدة ، وكانت تحس بروعة الإنفاق الصالح عندما تسمع دعاء أرملة فقيرة محتاجة أو طفل يبتسم أو شيخ فاني يمد يديه للسماء داعيا لها ولأولادها فقد عجبت لهذه المعاني والمشاعر التي تجتاحها اليوم لقد كانت غائبة عنها أثناء عضويتها لكثيرمن الجمعيات الخيرية أيام السيد ناصح ، فهناك لم يكن العمل لوجه الله ، إنما كان للدعاية والافتخار والقيل والقال ، كان عمري سيدا للمال ، ولم يكن عبدا له أو حارسا عليه ، كان يكره البخل والتقتير ، فكم كبوة كاد يسقط فيها أثناء الشحن للمواد والبضائع وغير ذلك من الحوادث فكانت الصدقات والدعوات ترفع البلاء وتخففه .

أنشأ عددا من المدارس الخاصة وقد استأجر لها المباني المناسبة، وكان يتكفل بدفع أقساط ومصاريف عددا من الأيتام والفقراء ، كان يحب أن يرى الابتسامة البيضاء على وجوه ذوي الحاجة ، وعندما ينصح بالاعتدال في الإحسان والنفقة يبتسم ويقول : لماذا ؟! لماذا ؟! أليس هو مال الله ونحن مستخلفون فيه ؟ وبتوفيق الله وفضله تحفظ الشاحنات والبواخر القادمة من الأحداث والأعطاب ، وإذا حدثت مصيبة يخفف الله عنا من الضرر والكارثة .. أو ليس في الإنفاق حسنات وخير وبر ؟

ولقد كان صاحبنا عمري محمود يمارس الصدقة الخفية التي لا تعلمها شماله ، ويعشق التعاون الجماعي والتآزر فلم يبخل على طلبة المعاهد الشرعية والعلمية .. وكان يحسن إلى بعض الطلبة الأذكياء الفقراء الدارسين في الجامعات ، حتى أن مريم كانت تحسد وتغبط ولدها على سخاءه وجوده ، وتتعجب من ذلك ، وتقارن بينه وبين شح والده وعمه في مثل تلك المواضيع ، لقد وجد نفسه محبا للأستثمار والتنمية ، فما يذكر له نشاط تجاري الا هم به واندفع اليه بقوة ، كما تقول القاعدة الاقتصادية التي تنص على أن المال يولد المال ، قام صاحبنا بإنشاء عيادات طبية بإشراف صهره فائز وبعض زملائه الأطباء ، ينفق عليها دواء وإدارة لمعالجة المحتاجين والفقراء والعاملين في مشاريعه المختلفة ولمن يطرقهم ، ثم تشجع فيما بعد وأنشأ شركة طبية لاستيراد الأدوية والأدوات الطبية ، وكان شريكه فيها حبيبه وزوج أخته فائز لطفي وكذلك أخته بدرية وأمه ، ثم تطور الأمر فتم إنشاء مصنع دواء يديره الدكتور فائز بعدما ترك خدمة المستشفى الحكومي ، وقد بدأ في بناء وتأسيس مستشفى متوسط الحجم في المدينة ، فكلما كثر المال تكثر مشاريع عمري لا يحب كنز المال ، وقد سخر الله له أصدقاء ورفاق مخلصين متعاونين على البر والتقوى وبين أعينهم مخافة الله .

كل ما أشارنا اليه من نجاحات تحقق بعد مضي خمس عشرة سنة من تركه للعاصمة ، فتحت الدنيا على عمري الذكي ، فقد كبر ابنه محمود فأصبح ابن أربع عشرة سنة وعائشة تصغره بسنتين ثم أسامة ثم حسن ثم محمد ثم مريم .

ولقد كان كبار رجال المدينة وكبار التجار بالذات ورجال الأعمال يحثون ويرغبون عمريا في الاشتراك في التنافس على رئاسة وعضوية الغرف التجارية ، فيعتذر ، وحاولوا تشجيعه لترشيح نفسه لرئاسة وعضوية البلدية لمدينة الريحانة ، فيعتذر عمري أيضا ، بل حاول محبوه ترشيحه لمجلس النواب الوطني في أحد دوراته ، فيصر على الرفض ، فكان يحب أن يخدم بدون أن ينتظر جزاء من أحد أو طمع في سمعة وشهرة ورئاسة ، كان هو وأمه يديرون وينفقون على أكثر من سبعة دور أيتام منتشرة في المدينة وما حولها من القرى ، فسمعته الطيبة كانت تسمح له أن يفوز ويتقدم على الآخرين ؛ ولكنه كان يحب الآخرة وثواب الآخرة ، فلم يضعف أمام اغراءات

الشهرة وحب الظهور والسعي للقاء الشخصيات السياسية الكبيرة .

وكانت قمرية قد عرفت منزل أختها وأخيها وأمها في الريحانة ، وأخذت تتردد عليهم بين الحين والآخر ، وكانوا هم يصلونها ، وكانت لا ترى والدها إلا في بعض المناسبات ، ولا يتحدث معها إلا بكيف حالك؟ وقبل أن يسمع الإجابة يأخذ بالحديث مع الآخرين ، ولا يوجد بينها وبين زوجة أبيها زيارات منذ تزوجت جبر ، وأما سمري فقد رجع من أمريكا يحمل شهادة الدكتوراه واشتغل مع والده بضعة أشهر ثم رحل ثانية إلى أمريكا حيث أولاده وزوجته الأمريكية ، فهو لم يندمج في الحياة العربية ، وخلال هذه الشهور التي قضاها في ربوع الوطن لم يسأل عن أمه أو أخيه أو أخته بدرية ، ولم يحاول الالتقاء بهم عيانا ، فقط تحدث معهم بالهاتف فتعجبت قمرية من ذلك البرود ، ولم تحاول الحديث معه في هذا الموضوع ، وقد نزل الفيلا بضعة أيام ، ثم نزل شقة مفروشة من عمارات والده ناصح ، وسافر غير مأسوف عليه من أحد من أفراد العائلة ، وطفقت قمرية في السنوات الأخيرة تقنع زوجها بالرحيل إلى الريحانة وتضغط عليه للرحيل فيقول لها : نحن مع ناصح لم نتوفق ونتواصل فكيف مع عمري بن ناصح دعينا يا امرأة ؟!

فقالت : سمعت أن أبي يريد بيع هذه الفيلا .. وأمي تقول إن لي في ذمتها خمسين ألف دينار ، وأنت لك سنة تارك للمصنع ، فهناك نشتري فيلا صغيرة أو شقة ، وتعمل لك مشروعا وأخي عمري لن يقصر بمساعدتنا

وأخذت تحدثه بحماس واغراء عن الطبيب فائز زوج اختها ومشاريعه مع عمري ، وبعد طول جدال والحاح منها استسلم جبر لضغط الزوجة واقنع نفسه بترك العاصمة للريحانة ، ولما استشار والديه قالت أمه رباب : اذهب من غير تردد فعمري ولد مبارك .. فقد خسره ناصح فابن أخيك سعيد يقول عنه إنه كما يقال ملك غير متوج في الريحانة .. ينفق بسخاء غير معهود في آل الخابي ، وتدخل عليه الأموال من عدة جهات .. وابن أخيك سعيد يعمل محاسبا في إحدى مشاريعه الكبيرة .. ثم قالت بأسف وربما حسد : لقد خسره أخي خسارة كبيرة ! .. بل لما شاهدت أمه مريم ذهل قلبي من تقواها وعبادتها وإنفاقها .. ولم أصدق أنها كانت زوجة أخي

ارحل يا ولدي .. فخالك لا يريد لأحد منا أن يكبر .. يريد أن نظل ونبقى عصافير صغيرة من غير أجنحة.. ثم تنهدت بعمق وهمست : عمري الخابي !!

تحدثت قمرية مع أخيها عمري بهواها ورغبتها بالحياة قربهم واطلعته على رضا زوجها بالمسير اليهم .. فقال بحماس وسرور : على الرحب والسعة .. والفيلا هدية مني والخمسون ألف افعلوا بهن مشروعا وأنا تحت أمركم .. المهم أن يأتي جبر وقد تاب إلى الله وخلع ثياب الجاهلية والإلحاد .. اليوم أهل الإلحاد والكفر تركوا هبلهم في بلادهم

ولما سمع جبر هذا الكلام الساخر تردد في الرحيل ؛ ولكنه استسلم ثانية لزوجته وقال : الله موجود .. أنا لا أنكر وجود الله !

فقالت ضاحكة : يا مجنون دعك كما يقول عمري من هذا الحمق والهبل .. أنت تعرف أن عمريا يحب المصلين ولو كانوا مخادعين فأول سوأل يسأله لمن يعمل معه هل تصلي ؟

فقال جبر ساهما : بيني وبينك أنا من زمان وأنا أفكر بالتوبة .. زهقت من حفظ المصطلحات الكبيرة التي لقنني إياها أبواي منذ نعومة أظفاري .. معاداة الرأسمالية وحب الاشتراكية والشيوعية والعمال والفلاحين والحمراء والصفراء وغير ذلك من المسميات الساخرة .. لا تظني أنني أتكلم بهذا الكلام لإرضائك وإرضاء عمري .. أنا ترددت على المسجد هذا ـ وأشار للمسجد المجاور للفيلا ـ أكثر من مرة ؛ ولكنني أخاف من أبي ، فأبي ملحد كبير ، وجعل الإلحاد لنا دينا .. وقد عجبت من عمري عندما زار أمي قبل سنوات ، والتقى بأبي وأخذ يحثه على التوبة وترك الشيوعية لأصحابها والابتعاد عن الماديين وأهل الانحلال والفسق ، وأحسست يومها أن أبي سينهض مستسلما ويغتسل ويدخل الإسلام .. كان ينقصني التشجيع والدعم سنبدأ من الآن يا قمرية واعتقد أن صحبة عمري ستساعدنا على الثبات ..

فقالت قمرية بحماس : هذا هو الكلام العاقل .. أمي يا رجل التي تعرف من هي ؟! ..

أصبحت من حبها للآخرة وزهدها في الدنيا ملكا من الملائكة .. تبكي عندما تحدثها زينب عن الجنة والنار .. أسمعت ؟! .. والله زينب هذه تحفة .. فعندما كانت تحدثني بدرية عنها أشم رائحة النفاق والمصالح وأسخر منها ، وأقول هذه الفتاة الأمية تعرف الكلام والوعظ .. ولكن

فمن بضع جلسات كادت تقلب حياتي وتجعلني كرابعة العدوية التي نسمع عن زهدها وتصوفها .. إنها رائعة في ذكر القصص والأمثال وتستل الألفاظ والتعابير بروعة وحب .. تدفعك للإصغاء والاستسلام الكامل لها لولا أنفة النفس وعزتها لأصبحت درويشة .. فهي تقنعك ببساطة وسهولة أن الإسلام دين ممتع وليس دين فقر وعذاب وتسول .. بل هو دين ضحك وإمتاع ورياضة ومعروف وبذله .. إنها ساحرة .. وتقوم بواجبات البيت ورعاية أمي الكبيرة وأولادها وزوجها وضيوفهم من غير تقصير في واجب أحد .. وتقرأ وتقرأ إنها شغوفة بالقراءة تستغل كل وقتها في القراءة .. إنها تحسد يا جبر ..

فقال متعجبا من زينب ومن شغف قمرية بامرأة غيرها : شوقـتينا لمعرفتها وستزداد معرفتنا بزينب يا أخت زوج زينب !!

لقد كانت زينب الفتاة ذات الثقافة التعليمية المتوسطة تترك انطباعا حسنا على كل من يجلس معها ، وذلك بفضل السجايا التي جبلت عليها من الطيبة والحنان وحب الناس والرحمة ، وثانيا مما تعلمته من أسرتها المكافحة الصابرة ، وثالثا قد وفق الله لها زوجا محبا تائبا ، ورابعا طلبها للعلم وحبه ، وميزات أخرى لا ندرك كنهها ، فكانت متاع صالح ، وفضل الله يؤتيه من يشاء فبعد أن اتخذ جبر وقرينته قمرية الخطوة الأولى وتعلما الوضوء والصلاة وقد استعانا بكتاب صغير ، كانت بدرية قد أعطته لقمرية في إحدى الزيارات ، فلما مسكا بطرف الخيط اتصلت قمرية بعمري وحدثته عن توبتها وصلاتها ، فسر الشيخ عمري وهو يسمع ذلك الكلام فقال بحماس : منذ تكلمت معي سابقا وأنا ابحث لكم عن فيلا حتى وجدتها فمرحبا بكم .. الأثاث دعوه فهي فيلا مفروشة بكل ما تحتاجون إليه وما ينقص تجدونه في محلاتنا فقط الملابس والذهب .. والبيت في انتظاركم

فشكرته الشكر الجزيل ودعت له بالمزيد من الخيرات والنعم والعافية ، ثم خيرت حسنية بالمسير معها أو البقاء في الفيلا فاختارت البقاء ، فلما جهزوا أنفسهم استأجروا سيارة لحمل الحقائب والأمتعة التي أحبوا أخذها معهم ، وتركوا سيارة قمرية في موقف الفيلا ، وركبوا سيارة جبر وانطلقوا نحو الريحانة تتبعهم سيارة العفش ، ولما وصلوها بعد ثلاث ساعات كان

بعض عمال عمري في انتظارهم أمام قصر عمري في ضاحية الصالح ، فنزلت قمرية وابنها وابنتها ـ فهي لم تنجب منذ تزوجت إلا ولدا وبنتا ، ثم أصابها مرض كان يؤدي للإجهاض ثم امتنعت عن الحمل لأسباب ودوافع طبية وصحية فاقتنعت بالولد والبنت ـ ضيفة على أمها وأخيها ، وأخذ العمال سيارة النقل وجبرا إلى الفيلا ، ودفع العمال الشباب المفاتيح لجبر بعدما فتحوا الأبواب الرئيسية وقاموا بإدخال الحقائب والأمتعة والكتب وانصرفوا ، ونقد جبر السائق خمسين دينارا وأغلق الفيلا بعد أن استلمها من عمال عمري ، وعاد حيث تسكن حماته وزوجة خاله قديما ، فقبل يدها فدعت له وباركت له البيت الجديد والعودة للأسلام ، وقالت : خيرا صنعت .. فالحياة بجوار الطيبين طيبة ومن جاور أهل السعادة سعد .. مرحبا بك يا بني تم نقل ملكية الفيلا باسم قمرية بيسر وسهولة ، وتقبلت هدية أخيها بشكر وامتنان .. وعرض عمري عددا من المشاريع على السيد جبر صهره الثاني للاختيار منها ، وعرض عليه أيضا إدارة أحد المشاريع إذا لم يرغب بإنشاء مشروعه الخاص ، فطلب جبر التفكير والنظر .

قضية مخدرات

ذات صباح وبينما عمري يجلس في مكتبه الكبير يراجع بعض ملفات إحدى الشركات أخبره السكرتير أن ثلاثة رجال أمن يبغون مقابلته ، فأمر بإدخالهم ، وطلب لهم قهوة ، وترك كرسيه مستقبلا لهم بابتسامة ووجه طلق ، وأشار لهم بالجلوس ، ولما حيوه قال أحدهم : أستاذ عمري نحن بوضوح وصراحة ضباط أمن مخدرات .. وبصراحة فقد وجد رجالنا كمية من المخدرات في أحد مخازنكم

لمعت عينا عمري وتريث قليلا ولزم الصمت ، ولما لم يرد تابع الضابط قائلا : الحقيقة أن المدير استغرب ذلك لم عرف عنكم من الخير وحب الخير .. وسمعتكم الطيبة في كل مكان ؛ فلذلك أرسلنا المدير لنسمع منك رأيك فماذا تقول ؟!

قال عمري باسما ومفكرا بما التقطت أذناه : جزاكم الله خيرا .. أنتم خير من يعلم أن كل ذي نعمة محسود .. فلا يخلو الإنسان ممن يحقد عليه ويكرهه ويحسده من غير أن يعرفه .. فأنا لا أريد أن أحلف أيمانا إنني لا أتعامل بالمخدرات .. فأنا الدخان والسجاير أكرهها وأبغضها ولا أحب أن تباع في محلاتنا ومتاجرنا سواء بالاستيراد أو التوزيع .. وثانيا أنا تحت أمر العدالة لأنه يهمني أن أعرف أعدائي ـ هداهم الله وأصلح الله قلوبهم – فأخبروني بتفاصيل القضية ..

فقال الضابط منير : يا أبا محمود .. اتصل بنا مجهول فاعل خير ، وقال لنا إن المخزن في شارع كذا فيه مخدرات .. بالطبع نحن نأخذ أي إخبارية على محمل الجد وإن كانت كاذبة .. لأن كثيرا من الناس يخافون من الظهور في قضايا بوليسية ومحاكم .. فوضعنا المكان المذكور تحت المراقبة مدة أربع وعشرين ساعة ، ولقد تأكدنا أنه لكم فعلا ، والعجيب أنه مخزن مهجور .. بل لما دخله رجالنا وجدوا فيه كميات من أوراق الصحف رولات ورق بيضاء وعليها الأتربة والغبار

فقال عمري : عرفته ! .. مخزن في شارع الراية العربية .. مرت علينا فترة كنت استورد فيها أوراق طباعة الصحف والمجلات ، ثم صارت إشكاليات مع بعض الموردين فتركنا استيراد ذلك .. وهو فعلا مخزن مهجور .. أكمل يا حضرة الضابط وآسف للمقاطعة

ـ المهم دخلنا المخزن فوجدنا فيه الأوراق المكدسة والمتراكم عليها الغبار والعناكب وأثناء البحث وجدنا صندوق ورق كبير مملوء بأكياس البودرة .. تركناه لنرى من سيأتي ويأخذه وزادت رقابتنا للمكان على مدار الأربع والعشرين ساعة ، واستطعنا أن نلقط سيارة كانت تأتي في الليل وتأخذ بمراقبة الشارع ثم تنصرف ، المهم لما تكررت الحركة تابعناها وألقينا القبض على شابين فيها ، وأمام التحقيق اعترفوا أنهم من رجالك ، وأنهم مكلفون بإخراج البضاعة ونقلها لمكان آخر ، وذكروا اسم متجر في سوق الربيع وهو لحضرتكم ، وقد وجدنا معهم مفاتيح الأقفال للمخزن المهجور ؛ ولكنهم لشعورهم وإحساسهم بنا لم يقتربوا من أبواب المخزن

فقال عمري وقد اشتغل ذهنه بما سمع : قالوا إنهم من رجالي ويعملون معنا ؟ !

ـ أجل .. بل قال أحدهم إنك أرسلتهم لإحضار (الكرتونة) .

فتبسم عمري وهو يقول معلقا : أتصدق لو أنني كنت تاجر مخدرات أنني قد أتعامل مع رجال من هذه النوعية ، يقرون عليّ من أول صفعة .. أترى أن تاجر المخدرات يسقط بهذه السهولة

فتبسم الضباط بدورهم وقال منير : هذا ما علق به المدير ونقول به ، فكبار رجال المخدرات لا يقعون بهذه السهولة كما في قضيتنا هذه ؛ ولكن غلطة الشاطر بألف .. ولكن نحن أيضا نقر أن السيد عمري معروف بالذكاء وبإدارة مشاريع متنوعة ومختلفة ومتشابكة وكثيرة

ـ جزاءك الله خيرا هذا من لطفك .. على كل حال أنا ذاهب معكم ، ولن يؤثر ذلك على سمعتي أنا لا تهمني إلا طهارتي ، ولا يهمني كلام الجرائد والخصوم والمنافسين .. فأنا لا أحمل ضغينة لأحد في قلبي .. هيا لنقابل المدير وهذين الشخصين

نهض الجميع بعدما شربوا القهوة ، وساروا نحو قسم الأمن في المنطقة ، وصعدوا إلى مكتب مدير مكافحة المخدرات في هذه المدينة البحرية ، وتقابل الرجلان وأبدى المدير اعتذاره الشديد وهو يقول : منذ أتيت هذه النقطة وأنا أسمع عن الشيخ عمري من الخير ومشاريع الإحسان والخير مما أدهشني من هذه الفرية ؛ ولكن لابد من الإجراءات يا أبا محمود

فقال عمري : نحن مع الأمن ومع الاستقرار .. وهذا واجبكم ، ولا أحد فوق القانون ، ولعل

بين رجالي والعاملين معنا تجار مخدرات ويستغلون ثقتي وطيبتي يا عميد جلال

فقال العميد جلال : شايا أم قهوة ؟

ـ أيهما تشاء .. واسمح لنا برؤية أحبابنا فإني في شوق إليهما

طلب العميد الشاي للجميع ، وأرسل العميد جلال وراء الرجلين اللذين اعترفا وأقرا بأن عمريا كلفهما بنقل صندوق المخدرات ، أتى الرجلان ، فلما شاهدهما عمري نهض عن كرسيه وقال وهو يحد النظر في وجهيهما : أنتم تعملون معنا ؟! .. في أي مشروع تعملان ؟ .. بل اذكرا لي اسميكما ؟ إني لا أذكركما

فتضاحك أحد المتهمين وقال : أتريد أن تتظاهر بأنك لا تعرفنا يا سيد عمري؟! أتريد أن تتخلى عنا .. أنا عيد بوري .. العامل في مصنع الدواء الذي يديره صهرك زوج أختك الدكتور فائز وأختك بدرية محمود .. وهذا زميلي عبده سليمان يشتغل معي في المصنع أيضا

فقال عمري : رائع .. جيد يا عيد .. أمتزوج أنت ؟

ـ طلقت .. ولم السؤال ؟ !

ـ طلقت ! حسنا ، أنا يا سيد عيد طلبت منك إخراج المخدرات أو الصندوق من مخزن شارع الراية العربية ؟

فقال عيد بإصرار : نعم

فقال عمري وقد أدرك من نظره في عيني الشاب أنه ساذج التفكير وجاهل : متى طلبت منك ذلك ؟ وفي أي مكان تحدثنا بذلك ؟

فكرر عيد : متى ؟ متى ؟ وأين وأين ؟ عبده تكلم مالك ساكت ؟

فقال عبده وقد أدرك غباءهما:سأتكلم ولكني سأتكلم بالحق

فصاح عيد : اسكت لا تتكلم

فقال العميد جلال ضاحكا ومكررا سؤال عمري لهما : في أي مكان كلفكما عمري بنقل الصندوق يا عبده ؟ .. في الشركة ، في المصنع ، في المكتب ، في الشارع ، في التلفون .. تكلم يا عبده وسيكون ذلك في مصلحتك ؟

فانهار الشابان على الفور وأخذا بالبكاء وقالا : لا ندري كيف خدعنا ذلك الرجل ؟ !

فقال العميد : واحد يتكلم

فقال عمري عندئذ : أتسمح لي يا سيدي بالانصراف أنا لا أحب أن أعرف عدوي حتى لا أحمل له في قلبي حقدا ويبدأ بيننا صراع وقتال

فقال العميد : من حقك أن تسمع أيها الرجل الطيب .. نحن أدركنا حمقهما من أول التحقيق

فقال عمري : أظن ـ يا سيدي العميد ـ أن الرجل الذي قابلهما وكلفهما بمراقبة المخزن ليروكم وأنتم تأخذون البضاعة ليس هو الخصم الحقيقي، وأيضا لابد أن أحدهم دفعهم لإثارة الشبهة حولي إذا وقعا بين أيديكم وأعطاهم مفاتيح مقلدة للمخزن .. وكان يغلب على ظنهم أنهم لن يقعوا في قبضة البوليس .. كانوا يرقبون أخذ رجالكم للبضاعة والانشغال بي ولكن ذكاءكم فوت الفرصة على محرضهم من النجاح .. وأما الرجل فقد توقع حدوث خطأ منهم فدفع لهم المفاتيح لتأكيد التهمة علينا والاعتراف بأني أنا الذي طلب منهما نقل البضاعة

فقال عيد : هذا ما أراده السيد عامر .. نحن لم نضع الصندوق يا سيدي .. إنما طلب منا المراقبة للمخزن ، ونرى متى تقتحمون المخزن وتأخذون الصندوق .. ولكنكم لم تأخذوه على الفور فأمرنا الرجل بالمتابعة ؛ ولكنكم قبضتم علينا من حيث لا ندري ، وكان الرجل قد قال لنا إذا قبض عليكم رجال المكافحة فقولوا إن عمريا هو الذي كلفنا بذلك ولا نعرف ماذا يوجد في الصندوق

فقال العميد : أتظنون الشرطة بهذه السذاجة ؟ ! .. نأخذ الصندوق ونطارد ونتهم عمريا بكل بساطة .. يبدو لي أنكما أحمقان مغفلان .. من هو عامر ؟

فأجاب عبده : رجل تعرف علينا في مقهى البحر الشرقي

فقال عمري : أظنه ـ يا حضرة العميد ـ قد اختفى منذ قبضتم عليهما .. وكم دفع لكما ؟

فقال عبده : أعطى كل واحد منا خمسمائة دينار ووعدنا بالمزيد وتعهد بمساعدتنا إذا وقعنا في قبضة الشرطة ، ولنا أربع أيام هنا ولم يظهر

فتبسم جلال وقال : وأرى أنه لن يظهر .. انتم أحمقان ، ولو اعترفتم من البداية عن الرجل لربما

تمكن رجالنا من مطاردته .. ولكن ـ يا أخ عمري ـ التضحية بكمية كهذه من المخدرات يدل على أن العدو شديد .. على كل حال سنفرج عنكم ونضعكما تحت الرصد والمراقبة فلربما حاول الاتصال بكم إذا كان غبيا مثلكم .. نأسف يا أخ عمري عن هذا الإزعاج والإحراج .. ونحن كنا واثقين من براءتكم ، ولكن كان لابد من الحديث معكم لنستفيد جميعا من المعلومات وعليك

ـ يا صاحبي ـ أن تأخذ حذرك فهذه البداية

رغم ثبات عمري أمام هذه الطعنة وثقته الكبيرة بمدبر الأحوال سبحانه وتعالى فقد أحس وشعر بخطر يحوم حوله ، فذكاؤه يدفعه للانتباه والاستعداد ، فكل هذه السنوات مضت من غير منافسة قاتلة ، كان هناك تنافس طبيعي وسلمي ، أما دخول المخدرات فهذا ينذر بالخطر القادم ، وهو بنفس الوقت لا يريد إدخال الجانب الأمني في تعيين واختيار الأشخاص والعمال فهو لا يحب الجاسوسية فحينئذ تذكر نسرين غانم ومصنع والده ناصح ، وقال لنفسه : لم أسمع أخبارها منذ رحيلي ؛ ولكني سمعت من عهد قريب من جبر أنها نقلت من مصنع السجاد

سمح لتفكيره وذاكرته أن يقلبا الرجال الذين يمكن أن يتآمروا عليه .. ثم وجد أن السوق يتسع لاعمال كبيرة .. فلماذا يثيرون الشبهه عليه ؟! ويستغلون مثل هؤلاء العمال السذج البسطاء في آلاعيبهم .. عبد السلام رجل محترم وفاضل .. وهناك السيد مجدي براتوكا لا يحبنا كثيرا ولكنه لا يحب أن ينغمس في مشاكل ومقالب وفكر .. أخذ يعد ويستعرض أسماء كبار رجال المدينة والمنافسين ولم يستقر عقله على شخص لديه دوافع للخلاص منه أو ضربه في السوق ، فمجالات عمله متعددة .. مواد غذائية .. نقل .. استيراد .. أدوية .. تصدير ..

ملابس .. أثاث خشبي ومعدني .. أجهزة .. عقارات .. مدارس .. مستشفى على الطريق ..

طال تفكير عمري الخابي ولم يستطع تحديد من هو العدو والحاسد .. فلجأ إلى الله ثم الصلاة ، وكان صاحبنا الفاضل لا يترك صلاة الجماعة إلا لعذر قوي وشديد ، وكانت علاقته مع أهل العلم والمشايخ طيبة ، ويتعاون معهم في إيصال الزكوات لمن يستحقها ومن هم أولى بها من غيرهم ، وكان يحب أن تصل زكاته لأهل الإيمان والصلاة .. ويساهم في بناء المساجد ويتبرع

لها .. وكان يشارك في تنظيفها والتبرع لها بمكانس الكهرباء وفرشها بالسجاد والمدافيء .. وكان يتنقل في أداء الصلاة في عدة مساجد رفعا للحرج الذي يلقاه من الضعفاء عند مغادرته المسجد وهذا دفعه للإعلان عن مكتب خاص في مكان معروف وعام في المدينة لمن هو بحاجة مالية أو علاجية .

وبعد أيام يسيرة تحدث مع العميد جلال عن قضية المخدرات ، فأخبره العميد أن المدعو عامر شخص مجهول ، وقد اختفى عن المسرح، وأن الشابين تبين أيضا أنهما من أصحاب العقول الضعيفة ، وصادهما الرجل المجهول في مقهى البحر الشرقي ، ووضع المقهى تحت المراقبة ، وأن التضحية بكمية من المخدرات ليس بالأمر الهين ، وهذا يدل على أن المهربين يملكون كميات أكثر ، وقد تم تعزيز قوات السواحل ومتابعة المنافذ الفرعية والتهريب ، وأكد عمري بدوره للضابط الكبير عدم توصله لإتهام شخص معين أو جماعة ، وأن السوق واسع ويحتاج إلى رجال أعمال أكثر من الموجود ، فليس هناك من دافع تجاري لإزاحته عن الطريق ، ربما تكون أسباب شخصية وراء هذه الجريمة ، وشكر الضابط ووضع سماعة الهاتف وغرق ثانية في التفكير .

أدرك عمري أن قضية دس المخدرات في مخزن مهجور إما أن فاعلها يريد الانتقام منه لأمر يجهله ، أو شخص يريد التشويش عليه ويحرجه مع الشرطة ، ثم يسيء لسمعته عندما يجد رجال الأمن مخدرات في مخزنه ، والعوام تصدق كل شيء ، وسيقولون إنه يجمع هذه الأموال من تجارة المخدرات ، وما مشاريع الإحسان والصدقات إلا تغطية للملايين التي يلهفها من التجارة بالمخدرات والممنوعات ، فحمد الله على اعتراف الشابين السريع ، وعلى ذكاء رجال الشرطة ، وحسن تعاملهم معه ، وعدم استغلال القضية للدعاية والشوشرة والصحافة والإثارة ، وحمد الله ثانية على أنه ليس له خصوم بانتخابات الغرف التجارية أو النقابات أو المجالس النيابية وإلا استغلوها وعملوها موضوع تسلية وتشهير حتى وإن كانت كذب ، فهم يستغلونها لتهييج الناس عليه .. فقام وتوضأ وصلى لله ركعتين شكر ، فقد سلم الله من هذا المكر .

لم يمض على هذه الحادثة بضعة شهور حتى دخل مدير المشاريع عند عمري الدكتور الاقتصادي يوسف حسان ويخبره بخبر مزعج مفاده أن هناك أشخاصاً يضربون السوق بمواد

غذائية رخيصة ، وكذلك مواد الإنشاء من الحديد والإسمنت مما يؤثر على أسعارهم ومستورداتهم ، فأدرك عمري حينئذ وزاد يقينه أن هناك من يكيد له ، ويريد تدميره شخصيا فطلب من مديره مسايرة السوق رغم كل الخسائر التي ستترتب على ذلك ، واتصل به كبار تجار المواد الغذائية في المدينة فأخبرهم أنه مثلهم ضحية أناس حاقدين ومجهولين ، وأطلع بعضهم على تقارير وفواتير المشتريات والمبيعات ، وأنه يتعرض للخسارة مثلهم ، فاستغرب التجار كما استغرب مثلهم ، فعرفوا أن هناك خصوما لهم من خارج المدينة ، فقد أصاب عمري حساسية من قطاعات مختلفة ، فأصحاب المقاولات والبناء من شركات وتجار الإسمنت والحديد يثيرون حوله الشبهات والطمع والأراجيف ، وأصحاب الحبوب كذلك ، وحتى معارض الأثاث والأدوات المنزلية تعرضت للأذى وضرب وحرق الأسعار ومنافسات غريبة ، وعقد عمري اجتماعات ومعه كثير من التجار مع كبار رجال المدينة والمدير الإداري للمدينة فيقولون : إن هذا سوق فيه تنافس

فينصرف التجار على مضض وغضب ، وعلى أثر فشل التعاون طلب عمري من مدير المشاريع وقف التعامل مع المواد الغذائية والأشياء المضروبة الأسعار عدة أشهر ، وقد تعرض الشيخ عمري إلى خسائر فادحة ؛ ولكنه تحمل ذلك عن رضا واستسلام لقضاء الله وحكمه ، وشعر بأن مؤامرة تحاك حوله ، ورجال البلد من حكومة وبلدية عاجزون عن وقف ذلك التدهور ، فاضطر أمام هذه الخسائر إلى إعفاء الكثير من العمال وخفض أعدادهم في مشاريع مختلفة ، وإغلاق عدد من المحلات والمتاجر إغلاقا تاما ، وبعضهم نقلهم للمشاريع التي لم تتأثر بهذه الحرب كمصنع الدواء والمستشفى الذي بدأ يعمل وقطاع النقل ، ورغم انسحابه من السوق ظلت الأسعار مضروبة وهابطة ، وعقد عمري اجتماعا مهما مع مدراء المشاريع المختلفة وتقرر فيه أن يفصل القطاعات عن بعضها البعض ، وتفصل الشركات عن بعضها البعض ، فكل شركة ومشروع وحدة واحدة مستقل عن المشاريع الأخرى حتى لا يؤثر أي قطاع يتضرر بغيره .. فالمدارس قطاع مستقل ، وكل مدرسة وحدة واحدة ، والدور الخيرية من دور رعاية الأيتام والمسنين والعجزة قطاع ، وكل دار مستقلة إداريا وماليا .. قطاع النقل قطاع مستقل

فالسيارات الكبيرة وحدة واحدة ، والسيارات الصغيرة ونقل الركاب وحدة واحدة ، وهكذا أعاد عمري وصديقه يوسف حسان وسكرتيره أحمد ترتيب المشاريع ترتيبا جديدا ، وقد أوقف العمل بالمشاريع المضروبة التي تعرضت للصراع ، وقد أدرك وشعر عمري نتيجة هذا العام الذي مر أن محاربيه ومنافسيه من خارج المدينة ولكنه لم يعرفهم ولم يعلم لماذا فعلوا كل ذلك فترك ذلك للأيام وتجمل بالصبر ..

رصاص وخطف

دخل عمري ذات مساء أولا على أمه كعادته عندما يعود من العمل فسلم عليها وتناول العشاء معها ، هو وباقي أفراد الأسرة ، ثم جلسوا يتسامرون حتى أتى موضوع إغلاق كثير من المحلات فقالت الأم مريم مستفسرة منه : لقد حدثنا جبر ابن عمتك على أنك تواجه أزمة هذه الأيام فإذا كنت بحاجة لأي أموال فأموال أمك كلها تحت تصرفك ..

فتبسم عمري وقال : أشكرك يا أمي وجزاك الله خيرا !.. هذا سوق أحيانا يشتد التنافس على بعض الأصناف وتكثر هذه المواد في السوق فترخص الأسعار حسب قانون السوق العرض والطلب ؛ ولكن هذه المرة كانت الأسعار غريبة ، فهناك منافسون يحرقون الأسعار .. فلما رأينا أن الخسارة فيها كبيرة تخلينا عنها إلى حين .. فالمشاريع كثيرة بفضل الله يا أمي

فقالت بتكدر وضيق : ولماذا يفعلون ذلك ومن هم ؟

فتبسم ثانية وقال : ربما يريدون الإيذاء الشخصي .. وربما يريدون افتعال معركة .. ولا داعي لأن نخوض معركة معهم ، نصبر ونترك لهم السوق ، فهم يريدون أن نندفع إلى هذه المعركة لتزداد الخسائر ، فهم يضحون بعدة ملايين مقابل تدمير خصومهم لأسباب مجهولة بالنسبة لي ولكني توصلت في تفكيري إنهم يقصدونني من غير أن أعرفهم

ـ ألا تعرفهم ؟!

ـ ليس مهما هذا .. فقد تركت لهم السوق ، وليس هذا هروبا أو جبنا بل لأني أدرك أن هذه زوبعة وحرب شخصية فتركت لهم الميدان لأنني أخاف على ديني وآخرتي يا أمي

فقالت الأم : الصبر جميل يا ولدي .. والحسد لا ينتهي .. وأبواب الرزق كثيرة ..

ـ أجل يا أمي .. أنا لا يحزنني ويؤلمني في هذا الموضوع إلا العمال الذين اضطررنا لصرفهم للظروف القاسية التي عصفت ومرت بهذه المشاريع

ـ الله لن يتخلى عن عباده .. الرزق على الله يا ولدي فهو يتولاهم

ـ فقد قمنا بنقل بعضهم لمواقع أخرى حتى تتغير الأحوال .. وحدثها عن قضية المخدرات التي حاولوا توريطه بها .

ففزعت الأم وقالت : الله أكبر ! الله أكبر ! ألهذا الحد يكرهونك ؟ ! من هم هؤلاء الأشقياء ؟
فتبسم عمري ورد قائلا : لا تجزعي يا أمي .. الشرطة لم تصل للفاعل الحقيقي لأنه أذكى أن يقع لأول وهلة .. ولكن هذا يدل على أنني أنا شخصيا مقصود بالعداء

فأخذت أمه تدعو له وتبتهل إلى الله أن يحميه ويقيه شر الناس والفتن ، وكانت زينب تسمع للحديث بين الابن وأمه وهي مندهشة ، فعمري من النادر أن يتحدث عن مشاكل العمل وهمومه أمامهم ؛ لذلك أخذتها الدهشة وقالت كأنها مستهجنة هذه المعارك : يا أبا محمود .. ألهذا الحد الشر في السوق ؟!

فابتسم عمري لزوجته الطيبة وقال : ألم تسمعي وتقرئي قول النبي ﷺ { خير البقاع المساجد وشر البقاع الأسواق } [1] .. وأن الشيطان ينصب راية في الأسواق .. ولكن لا مفر للناس من الأسواق .. لذلك هناك ذكر ثبت عن الحبيب محمد ﷺ ويسميه أهل العلم دعاء أو ذكر السوق وثوابه ملايين الحسنات والدرجات

فقالت زينب بفرح : صدقت .. وكلما ننزل أو نمر من السوق أنا وأمك الغالية نردده لنحصل على ذلك الثواب والأجر العظيم [2]

فقال عمري : نعم ؛ لأن السوق مكان شر وغفلة وحلف كاذب لإنفاق السلع ، فذكر الله فيه عظيم وكثير الأجر .. فالتاجر الصدوق يحشر مع النبيين والصديقين .. والسوق مكان الربا والغش والغرر والمكر والخداع والعينة ، من اجل ذلك هو مكان شر ولكن لابد منه للناس لشراء أقواتهم وحاجاتهم ولباسهم وشرابهم وبيع محاصيلهم وصوفهم ولبنهم وجبنهم .. نسأل الله سبحانه أن يرزقنا الرزق الحلال والطيبات من الرزق

فقالت زينب : والله يا عمري لازم تنتبه للحلال والحرام وما تضع في اجوافنا وأفواهنا ..

١ – صحيح الترغيب "٣٢٧١ " عن ابن عمر رضي الله عنهما ، وهناك حديث {عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ أَحَبُّ الْبِلَادِ إِلَى اللَّهِ مَسَاجِدُهَا وَأَبْغَضُ الْبِلَادِ إِلَى اللَّهِ أَسْوَاقُهَا} مسلم .

٢ – قال عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَو : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ مَنْ دَخَلَ السُّوقَ فَقَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ بِيَدِهِ الْخَيْرُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ كَتَبَ اللَّهُ لَهُ أَلْفَ أَلْفِ حَسَنَةٍ وَمَحَا عَنْهُ أَلْفَ أَلْفِ سَيِّئَةٍ وَرَفَعَ لَهُ أَلْفَ أَلْفِ دَرَجَةٍ " ٣٣٥٠ الترمذي

فالحلال سبب مهم لإجابة الدعاء

فقال : لا أنسى ذلك بمشيئة الله سبحانه ، فإن الله طيب لا يقبل إلا الطيب .. ،، فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين ،، إنني أبذل أقصى جهدي لنأكل الحلال المباح .. وادعوا لنا أن يحفظنا الله من الغفلة والطمع والحرص

فأخذت الأم وكنتها زينب يدعوان له بذلك فقال باسما : ببركة دعائكما ورضا أمنا عنا سيحفظنا مولانا العظيم .. لا تقلقي يا أمي ، وأنا إن احتجت مالا سألجأ إليك

فقالت الأم : جبر ، كيف شغله ؟

فأجاب عمري قائلا : الأستاذ جبر مجال عمله لحتى الآن بعيد عن المعركة .. فهو يستورد الطابعات والأدوات والآلات التي تتعلق بها ، وهذه أول تجربة لي في مثل هذه البضاعة .. وهذه بداية يا أمي ..

التقى عمري من جديد مع كبار تجار المواد الغذائية في الريحانة بناء على رغبتهم ، ثم تكلم كبيرهم وقال : أيها السادة نحن في الآونة الأخيرة تعرضنا لمؤامرة رهيبة من أيد خفية ضربت قطاع المواد الغذائية المستوردة والحبوب والطحين والذرة والسكر والعدس والأرز .. وكلنا ثبت أنه ليس له يد في تدني الأسعار للحضيض والسوق السوداء .. فلذلك اجتمعنا هنا لندافع عن أنفسنا أمام خصمنا المجهول الخفي .. وهؤلاء التجار الصغار يريدون أن يكبروا في يوم وليلة ؛ لذلك سوف نستورد هذه المواد بالاتفاق والتفاهم ولن نسمح لأيدي غريبة أن تحطمنا .. ومصيرنا معرفة الجهات المجهولة .. والسيد عمري أبو محمود لا يحق له ترك هذا السوق بهذه الطريقة ..

فدافع عمري عن نفسه وأنه انسحب ليس لأنه لا يحب المخاطرة ، فالتجارة مخاطرة ؛ ولكنه لا يحب الغش والخداع والقتال بهذه الأساليب وإغراق الأسواق ببضاعة قديمة ومنتهية الصلاحية .. وأكد أن هناك أيدي خفية تريد الإساءة لجميع تجار المواد الغذائية والحبوب وغيرها ، والفائدة التي يريدها هؤلاء المنافسون ويرجونها غير واضحة ولا معلومة فالكل خسران .. وبعد ضغط شديد من كبار التجار وافق عمري على المساهمة في الاستيراد المشترك

وكان القصد من ذلك الاتفاق حتى لا يحاول أحد من كبار التجار التلاعب بالأسعار وحده وقد استطاع التجار بهذا الاتفاق من السيطرة على الموقف المضطرب ، ولم يسمحوا لصغار التجار إلا بالأخذ من مخازنهم الكبيرة ، فلم يستطع التجار الصغار الاستيراد من العاصمة بالأسعار الرخيصة لأن الكبار اتفقوا على أنه من امتنع من الأخذ منهم عدم التعامل معه .. المهم فقد استطاع التجار التخفيف من هذه المضاربة ، ويبدو أيضا أن الذين لهم مصلحة في ضرب هذه البضائع قد فشلوا بعد هذه الشهور من المغامرة ، فلما وقف تجار الريحانة وقفة واحدة أمام الدخيل استطاعوا أن يحصروا التجار الذين يجلبون بضائعهم من العاصمة لمنافسة أسعار الريحانة ، بل أصبحوا معروفين للتجار ، وتبين أنهم عدد قليل من التجار ومن المغامرين .. والغريب أنهم لا يدرون من هو المورد الأصلي لهم .. فاستردت تجارة المدينة عافيتها بعض الشيء وكان الإحساس لدى عمري يكبر أنه هو المقصود بهذه اللعبة أيضا .. ولكن لماذا ؟ ! .. فهو حائر ممن يكن له كل هذا العداء والبغض ويسعى إلى خراب بيته

ذات ليلة كان عمري وأمه وأصهاره يجلسون في حديقة الفيلا التي شيدها في ضاحية الصالح الضاحية الجديدة في الريحانة ، وقد تناول القوم طعامهم ، وجلسوا يتسامرون ويشربون المثلجات ويطعمون الفواكه فرحين بما أنعم الله عليهم من السكينة والإيمان والنعم ، وبينما هم على ذلك الانسجام والانبساط سمعوا صوت رصاصات تنطلق من قرب السور في اتجاههم أو قريبة منهم ، فذعروا واتصل عمري برجال الشرطة الذين هرعوا على الفور ، واستمع الضابط المحقق لأقوالهم ، وتحرك رجال البحث الجنائي نحو السور والجهة التي أطلق منها الرصاص فوجدوا آثار أحذية قرب السور وآثار عجلات سيارة ووجدوا أغلفة أو أظرفة الرصاصات التي أطلقت على الساهرين .. وبعد سماع أقوال الحاضرين انصرف رجال الشرطة وقرروا العودة في الصباح للبحث عن أماكن سقوط طلقات الرصاص .. وكان عمري يقول لأمه : لي عدو أو أعداء مجهولون .. ماذا يريدون مني ؟ لست أدري .. ومن هم ؟ لا أدري يا أمي .. إنهم لا يريدون قتلي وإلا اختاروا موقعا أسهل من البيت أو الحديقة ولكني لا أذكر أنني أسأت لإنسان دفعه للحقد عليّ كل هذا الحقد القاتل .. فهم أو هو يحاول إشاعة الرعب والذعر

حولي ويدفعني للخوف والانفعال الأحمق لأتصرف تصرفا أحمق ولكن بمشيئة الله سبحانه سوف أتحمل وأصبر ولن أشهر سلاحا ضده { لَئِنْ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِي إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ } ..يا رب ثبتني على الإيمان والتوبة

فقالت الأم : ما تقول في السفر ؟.. سافر يا ولدي ..أرح أعصابك

ـ أسافر؟! أسافر إلى أين ؟

ـ إلى بلد كبير تريح أعصابك فيه من هذه العداوات والحركات الإبليسية

ـ قد يلحقون بي

ـ تحرك بالسرية .. ولا يعرف أحد وجهة سفرك وأنت اتصل بنا .. والدكتور يوسف حسان نعم الأخ ونعم الصديق ، وأصهارك لن يقصروا في رعاية الأموال والأولاد

فقال : إذن نسافر أنا وأنت وزينب .. فماليزيا بلاد جميلة وساحرة لقد زرتها مرتين لعقد صفقات تجارية وفيها كثير من الصناعات اليابانية

فقالت : والأولاد .. والمدارس ؟

فقال : ألا تستطيع أم مالك القيام بهم أسبوعا أو أسبوعين ؟

فقالت الأم : تستطيع ذلك ؛ ولكن الأم أفضل وأنا صحتي لا تساعدني يا ولدي ! فماليزيا بلد بعيد سافر وحدك حتى لا تنشغل بنا

فقال مستسلما لفكرة أمه : سأفكر بالأمر يا أمي .. أنا فعلا بحاجة لإراحة أعصابي والابتعاد عن المشاريع .. أشكرك على هذه الفكرة وقد أقضي شهرا فيها ثم أسافر إلى الحج فقد اقترب شهر ذي الحجة فأنا بحاجة لجرعة إيمان قوية ..

فقالت الأم وقد هفت نفسها للديار المقدسة ، فلا ننسى حب مريم القديم للسفر ولكن شتان بين سفر العبادة والقربى وسفر السياحة والمتعة : فكرة طيبة يا بني ! وقد نلقاك هناك إذا وافق الدكتور المحترم فائز وناسب ذلك ظروفه

ـ جيد .. اقنعيه

أسر عمري لزوجته بهذا الحديث فوافقت زينب وتمنت له رحلة سعيدة فقال : هي ستكون

رحلة لإراحة الأعصاب ، ولسوف أقوم بزيارة بعض المصانع والشركات الكبيرة لعقد عدد من الصفقات

فعمري ـ منذ توسعت مشاريعه التجارية وأصبح من رجال الأعمال الكبار ـ كان يذهب بنفسه للأقطار المختلفة لعقد الصفقات ومشاهدة البضائع ، فأمر السفر معروف لديه ؛ ولكنه هذه المرة أخفى جهته إلا عن ثلاثة أمه وزوجته ويوسف حسان فقط .. ويوم السفر كان مجهولا ، ولما أصبح في المطار اتصل بالدكتور يوسف وقال : أنا الآن مسافر

*****

بعد سفر عمري بأيام يسيرة تلقت الأسرة هاتفا مخيفا ، طلب المتصل السيد عمري ، فلما قالت الشغالة أم مالك إنه غير موجود سألها أين ؟ فقالت : مسافر .. إلى أين ؟ لا أدري فأخبرها المتصل أن ابنه حسنا في عداد المختطفين ، فذعرت الشغالة أم مالك ، وأعطت السماعة لزينب التي كانت تقف قريبا منها وردت بانزعاج : نعم .. أنا أمه .. مخطوف ولماذا ؟ ماذا تريدون ؟ حسبنا الله ونعم الوكيل

ووضعت السماعة وهي تردد حسبنا الله ونعم الوكيل .. إنا لله وإنا إليه راجعون .. لا حول ولا قوة إلا بالله

ثم اتصلت بأخيها حسن ، فهو يعمل مع نسيبه ، وهو المسؤول عن إدارة الشاحنات والبرادات الكبيرة ، فلبى النداء مسرعا ، وأخذ زينب وانطلق إلى مدرسة حسن ، فحسن ابن تسع سنوات وترتيبه الرابع بين أبناء الأسرة ، فدخلت الأم وحسن على المديرة وسألتها عن حسن فقالت المديرة بدهشة وهي قد لاحظت الذعر والتوتر عليها : انصرف ، ألم ترسلوا خلفه ؟ !

فقالت زينب بصبر وثبات : لا حول ولا قوة إلا بالله .. لم يعد حسن للبيت يا أستاذة أم محمد

قالت المديرة بخوف وانتظار تفسير : ماذا قلت يا سيدتي الفاضلة ؟ !

روى حسن للمديرة الاتصال الغامض ، فقالت المديرة بقلق : عند العاشرة صباحا وقفت سيارة كبيرة وحديثة أمام باب المدرسة ـ وهي ترى من مدخل الادارة المرتفع عن باب المدرسة وكنت لحظتئذ أقف مع إحدى المعلمات ـ ونزل منها شخص يضع على عينيه نظارات حمراء

وذي لحية كبيرة تملأ وجهه وكما قلت كنت آنـئذ أقف أمام المدخل فألقى السلام وقال : أنا سائق عند السيد أبي محمود .. عمري محمود والد حسن أرسلتني الوالدة لأخذ حسن للبيت لأمر طارئ .. مع أن هذه أول مرة يرسل السيد عمري أحدا لأخذ أحد أولاده قبل انتهاء الدوام لم أشك في الرجل وحسن نواياه ، فكل أبناء العائلات يفعلون ذلك .. فدخلنا الإدارة وشربنا القهوة ، وأتى حسن ، فقلت له : هذا الرجل جاء من طرف أبيك يريد أخذك للبيت .. هل تذهب معه ؟ فقال الرجل لحسن : أرسلتني حضرة الوالدة أنا أعمل في شركة الدواء يا حسن أنا عمك خميس .. فقال حسن وإن بدا لي مترددا : أذهب .. هل من شيء ؟ إني تركت أمي بخير .. فرد الرجل لا شيء .. كأنها تريد أن تخرج مشوارا ..كنت مع زوج عمتك الدكتور فائز في بيتكم .. فأرسلني لإحضارك وخرجا والبواب تجدون عنده رقم السيارة كما هو معتاد في نظامنا .. فهل نتصل بالشرطة ؟

قال حسن : اتصلي

ضربت المديرة رقم شرطة المدينة ، وتحدثت مع ضابط القسم ، وبعد دقائق كانت دورية شرطة تقف أمام المدرسة ، ونزلوا حيث مكتب المديرة التي تشرب القهوة مع ضيوفها ، فتكلمت زينب مع الضابط عن الهاتف الذي حدث عند الساعة الحادية عشرة ونصف ، ثم اتصالها بأخيها، ثم مجيئهما المدرسة ، وتحدثت المديرة بدورها عن قصة الرجل والسيارة ، ثم أرسلوا وراء البواب الذي أتى ومعه دفتر كتابة أرقام السيارات التي تأخذ الأولاد ، ولما أخذوا المعلومات قال البواب مضيفا : لقد كان في السيارة رجل آخر على شاكلة صاحبه لحية ونظارات شمسية

مشى رجال الأمن وراء سيارة حسن إلى بيت السيد عمري ، فاستقبلتهم والدة عمري التي اطلعت على الأمر من أم مالك العاملة في البيت ، فلما عرفوا البيت طمأنوا الأسرة ووعدوهم بمتابعة الأمر ، وقال الضابط : يا حجة أم عمري .. قد يتصلون مرة أخرى لطلب الفدية إن كان قصدهم الفدية ؛ ولكن نريد الحديث مع الدكتور فائز لنتأكد أنه لم يرسل أحدا

فقالت زينب : يا سيدي الضابط ! الرجل ادعى أنني أنا التي أرسلت سائق المصنع الذي كان

مع الدكتور فائز للمدرسة ..

فقال الضابط : أعرف ذلك يا سيدتي ؛ ولكن دعونا نتكلم معه عن طريق الهاتف ونسأله عن الرجلين

ضرب حسن رقم المصنع وطلب الدكتور ، وتحدث الدكتور مع الضابط ، ولما سمع بخطف حسن صاح : إني قادم انتظرني يا سيدي ووضع الضابط سماعة الهاتف وقال : إنه قادم .. والله ظننته أبا الطفل من لهفته وجزعه

ابتسمت مريم رغم قسوة الموقف والجريمة وقالت : إن ولدي عمريا محبوب ممن يعاشرهم يا سيدي الضابط .. يبدو لي أنك جديد على الدائرة

فقال الضابط باسما : نعم ، لي أسبوع أو عشرة أيام في هذه الدائرة

فقالت مريم : فولدي عمري معروف للجميع

فقال الضابط وهو يهز منكبيه متذكرا : آ .. تذكرت لقد قال لي مدير القسم اهتم بالموضوع فهذا ابن رجل مهم في المدينة .. أين والد الطفل ؟!

ـ مسافر

وما كاد الضابط ومساعدوه يشربون عصير الليمون المبرد حتى كان الدكتور فائز وزوجته ، وجبر وزوجته في البيت يسمعون الحكاية من السيدة مريم ، وبينما هم يستمعون دخل الدكتور يوسف حسان يسأل هو الآخر عن الأمر ، وقد سمع الضابط أقوال الجميع ، ولما لم يجد لديهم معلومة مهمة انصرف وهو يقول : سنضع هاتف المنزل تحت المراقبة فلابد لهؤلاء الخاطفين أن يتصلوا ليتضح لدينا هدف هذه الجريمة وأخذ رجاله وانصرف ، فقال يوسف حسان : ماذا سنفعل ؟

فقالت زينب بثبات وشجاعة : نشكر لكم حبكم لنا ووقوفكم معنا ؛ ولكن أرى أن تنصرفوا لأشغالكم فلا داعي لإثارة القلق والتوتر في الأعمال حتى تتضح لنا الغاية من خطف حسن

دخل الليل ولم يتصل الخاطفون ، وبينما الأسرة مجتمعة في بيت عمري على توتر وانتظار وترقب هاتف المجرمين فتح الباب الكبير للفيلا ودخل منه حسن .. فهرعوا إليه وقد لمحوا سيارة

زرقاء قد ابتعدت عن البيت .

فاحتضنت الجدة حفيدها وقبلته وهي تبكي وتذرف الدموع ، فقال حسن لمن حوله : إنكم خائفون عليّ

ـ بالتأكيد يا ولدي

دخل الجميع بالطفل إلى الداخل ، وقام الدكتور بفحصه واطمأن على سلامته ، وكانت زينب قد اتصلت بالبوليس فأتوا فورا ، ولما هنأ الضابط حسنا على سلامته ونجاته قال : أخبرنا أيها الشجاع عما جرى معك ؟

فقال حسن : أتى رجل إلى المدرسة وقال إنه من رجال أبي في المصنع، وإن زوج عمتي الدكتور فائز أرسله لأن أمي تريدني ، فصدقت وخرجت معه وأنا مستغرب ؛ ولكنه لم يترك لي وقت للتفكير ، فلما جلست في المقعد الخلفي وجدت أن هناك رجلا آخر يجلس في المقعد الخلفي ، ولما مشت السيارة قال الرجل الذي يجلس بجواري : قبل أن نذهب للبيت فلنمش إلى ميدان عيسى لأشتري ما طلبه الدكتور فائز ، وقبل أن نصل دوار عيسى أخرج الرجل زجاجة تشبه قناني العطر ورش على وجهي وأنفي فظننت أنه يريد تطيـيبي ؛ ولكن كما ظهر لي فيما بعد أنه مخدر فإني فقدت الوعي لأنني لما استيقظت وجدت نفسي في غرفة مغلقة فيها نور خفيف ، وقبل أن أدرك الوضع دخل الرجلان وقالا لي : هيا أيها الطفل وأمسك أحدهم بيدي وكانت ساحة البيت مظلمة وفتحوا الباب ، فوجدت سيارة زرقاء داكنة غير التي رأيتها في الصباح ، فدفعوني في المقعد الخلفي ، وكان شخص غير الذي رأيته صباحا يجلس مكان السائق ، وانطلقوا بي حتى اقتربت من البيت ، فطلبوا مني النزول فأتيت للبيت وأنا مذهول .. لم أسمع شيئا ولا أدري أين كنت ؟ !

فقال الضابط : رغم صغر سنك فأنت فتى ذكي وفطن .. ألم تعرف شيئا يساعدنا في الوصول إليهم ؟

ـ لا .. فما كدت أركب في السيارة حتى خدرني الملاعين ولم أكد استيقظ من التخدير حتى أعادوني للبيت

فقال الضابط : قصة عجيبة .. ولماذا اتصلوا ظهرا ؟ ماذا يريدون ؟!

فقال الدكتور فائز : أمر محير يا حضرة الضابط ! منذ الظهر ونحن ننتظر اتصال المجرمين

فقال الضابط متسائلا : قد يكون خطف بالخطأ ؟!

ـ ولكنهم لم يتكلموا معه ، ثم اتصلوا بنا ، فهم يعرفون هاتف البيت وأن حسنا ابن السيد عمري .. وأنني زوج عمته !

فقال الضابط : على كل حال سنأخذ اجراءتنا المناسبة اطمئنوا واسمحوا لنا بالانصراف

عمري في العاصمة

كانت حادثة اختطاف الطفل حسن غريبة في مكانها ؛ ولكن زينب وحماتها أدركن أن المقصود هو إيذاء عمري شخصيا ؛ ولما عرف الخاطفون بسفر عمري من الشغالة أم مالك انتظروا الليل ثم أخلوا سبيل الفتى .. إذن استنتاج أوكلام عمري في موضعه الصحيح أن هناك خصوما يريدون إثارته وإزعاجه .. لماذا ؟! هذا مما لم تصل المرأتان إليه بشيء يذيب عنه كل هذا الغموض والظلام والعداء الخفي المخيف .. مخدرات .. ضرب السوق المحلي بالمواد الرخيصة الرصاص على البيت ثم الخطف .. أمضى عمري شهرا في ربوع ماليزيا وولاياتها الجميلة .. فماليزيا تتكون من اتحاد فيدرالي يضم ثلاث عشرة ولاية ، وفيها ولاية سلنجور دار الإحسان غربي ماليزيا عاصمتها شاه علم ، وقد أصبحت هذه الولاية قلعة الصناعة في ماليزيا ، وفيها أكبر ميناء بحري في الولاية ، وعموما تقع ماليزيا في قلب جنوب شرق آسيا ، وعلى هضبة في شبه جزيرة الملايو تقع العاصمة كوالالمبور ، في غرب ماليزيا على نهر كلانج ونهر جومباك ، ومليئة بالحدائق الوطنية والمحميات الطبيعية ، هناك حديقة تامان نيجارا على قمة جبل جوننج تاهان ، وحديقة تمبلر وتبعد ٣٠ دقيقة عن العاصمة ، وتوجد قريبا منها شلالات كانسينج ، ومحمية غابات سيرندا ، ومحمية غابات بوكيت لاجونج ، وتضم أماكن للتنزه بالقرب من الشلال ، وحديقة جوننج مولو وهي أكبر حدائق سرواك ، وماليزيا خليط من السكان الماليز والصينيون والهنود والاورانج ، وهم السكان الاصليون لشبه الجزيرة ، ومهرجانات ماليزيا كثيرة حسب جنسيات شعوبها ، وفنادقها كثيرة بل فيها أطول برج في العالم برج بتروناس .. في ربوع تلك الجزيرة استمتع السيد عمري ردحا من الزمن ، ولما اقترب موسم الحج أو قل دخل شهر ذي الحجة سافر من كوالالمبور إلى الرياض عاصمة المملكة السعودية ، ومنها إلى جدة المدينة الساحلية المطلة على البحر الأحمر بحر المرجان ، واستقر في أحد الفنادق الضخمة وحجز جناحا منتظرا قدوم الأسرة من مدينة الريحانة ، وكله شوق لرؤية أمه وزوجته وأخته بدرية وصهره الطبيب فائز لطفي .. ولما اقترب الموعد نزل الأهل في الفندق فوجدوا عمريا في انتظارهم فتعانق الأحبة ، ولما استراحوا تجمعوا في إحدى الحجرات يسمعون أخبار بعضهم ،

فذكرت زينب لزوجها حادثة الخطف فانزعج عمري قليلا ولكنه حوقل ثم قال : قاتلهم الله سوف يسقطون يوما ما .. ونعرف من هم هؤلاء الأوغاد الأوباش القتلة ؟ !

ثم انشغل القوم بأداء العمرة وكان عمري قد سبقهم بأداء العمرة ، وبعد حين انشغلوا بمناسك الحج مع عباد الله ، وبعد انتهاء الموسم عادوا لجدة ، ومنها للريحانة بسلام وبمزيد من الإيمان .. لقد كان عمري يبذل جهدا كبيرا في عدم اشغال نفسه بعدوه الخفي إنه يخاف على إيمانه والدخول في متاهات التجسس والتحسس والغيبة ، وكان عمري قد تعلم دروسا كثيرة مما تعرض له في السوق ، ومن إغلاق بعض المحلات والمتاجر ، وتوقفه عن التعامل بمواد البناء وغيره ، فلذلك بعد أن استراح من رحلة الحج وعاد الهدوء لنفسه وزادت ثقته بالله العظيم اتخذ قرارا مهما ، وبدأ يفكر في تنفيذه .. فهو يريد نقل بعض نشاطه إلى العاصمة حتى إذا ضرب ثانية في الريحانة تحول المواد إلى أسواق العاصمة فتباع فيها من غير خسارة كالتي أصابته في الريحانة ، ولما تشاور مع الدكتور يوسف حسان أعجبته الفكرة والتفكير والحل الذكي ، فعلق قائلا : رغم كبر أسواق الريحانة .. فالعاصمة سوق كبير لا يمكن ضربه بسهولة وإغراقه بالسلع ، ويمكننا أيضا أن نصنع أسواقا في مدن أخرى أو شركاء لنا في مدن أخرى ؛ فإذا تأثر سوق نتيجة المكر والخداع أو هبوط أسعار مقصود فنجد أماكن متنوعة لتوزيع البضائع والمواد وحتى شركة الإنشاءات يمكن تضخيمها إذا فتحنا فروعا لنا في العاصمة وعدد من المحافظات الكبيرة

لقد بدأ صاحبنا عمري يتطلع لعاصمة البلاد وتضخيم مشاريعه ، فقال عمري بعد موافقة الدكتور يوسف واقتناع سكرتيره احمد بأفكاره ووجهة نظره : الحمد لله رب العالمين .. إذن اتصلوا بكل إخواننا الذين اضطررنا للاستغناء عنهم نتيجة الأزمة الضارية ، فهؤلاء أولى الناس بالعمل معنا من وجوه عديدة .. وانظر يا يوسف من يحب منهم الرحيل للعاصمة وترك هذه المدينة .. وفكرا بالموضوع جيدا لنباشر العمل به قريبا جدا

سر كثير من العمال والموظفين الذين تم الاستغناء عنهم بسبب المشكلة منذ سنة لهذا الاقتراح واستبشروا خيرا ، ورغب الكثير منهم بالعودة والعمل مع السيد عمري ، وقد التمسوا له عذرا

فقد خسر أموالا كثيرة تلك السنة ، فقد ذهبت مئات الالوف نتيجة المؤامرة .. فرحل الدكتور يوسف حسان للعاصمة برفقة عمري ، وأغرب شيء وجده وهو يبحث عن شقة أو فيلا صغيرة عند سماسرة العقارات ، فقد وجد عند أحدهم فيلا والده ناصح معروضة للبيع منذ سنة ، فتحدث عمري مع مدير المكتب عنها فقال الرجل : رغم أنها فيلا جميلة ولكنها قديمة بعض الشيء ، فهي من أقدم المنازل في ذلك الحي .. ولم يتقدم للسؤال عنها إلا أنتم وصاحبها قد طلب فيها مائة ألف ثم تنازل إلى خمس وسبعين

فقال عمري : قل لمالكها على خمسين فنأخذها اليوم قبل الغد

فقال صاحب المكتب : قد يوافق هي بناء قديم عمرها أكثر من ثلاثين سنة

فقال عمري وهم يغادران المكتب العقاري : سجلها باسمك يا يوسف

فاستغرب الدكتور ذلك الطلب ، فلما غادرا المكتب العقاري ، شرح عمري له الصورة فقال : إنك مستغرب ، فهذه الفيلا لوالدي الذي حدثتك عنه .. وبعدما تشتريها يا يوسف من المالك وهو ابي ناصح سننقل ملكيتها لأمي .. سأتحدث معها الليلة هيا بنا إلى الفندق

بعد أن أكلا ما تيسر لهما في مطعم الفندق ، صعدا إلى الغرفة ، ثم اتصل عمري بوالدته التي وافقت على شرائها بعد أن رأت تشجيع عمري لها بفعل ذلك ، وفي الصباح ذهب الدكتور يوسف حسان مدير مشاريع عمري وصديقه إلى مكتب العقارات ، وكان الرجل قد تحدث مع محامي السيد ناصح الخابي وحدثه بعرض الدكتور يوسف ، فجاء المحامي عوض سامي إلى المكتب ، وبعد أخذ ورد استسلم لبيعها بخمسين ألف دينار بعدما أجرى اتصالا بالسيد ناصح وتمت الصفقة ، وذهبا لدائرة الأراضي وكاتب العدل لإجراء اللازم ، وكان عمري قد أعطى يوسف شيكا بالمبلغ المطلوب ، وكان عمري قد أودع المال المطلوب على حساب يوسف ، وعادت ملكية الفيلا بعد أشهر للسيدة الفاضلة مريم صادق .

المهم أن يوسف وعمريا قد وضعا نواة المشاريع التي ستقام في العاصمة .. مخازن لشراء الحبوب من قمح وذرة ، العمل بتجارة الأقمشة والملابس .. الأدوات المنزلية كالثلاجات والتلفزيونات وغرف النوم والمكاتب .. المعلبات المختلفة الأسماء والأشكال .. فخلال شهور قد بدأت

الانطلاقة في العاصمة ، وكانا يقضيان آخر كل أسبوع الخميس والجمعة في ترتيب محلات وتجارة العاصمة ، وقد تم جلب كثير من الموظفين السابقين للعمل معهم في العاصمة وقد تمكنا من فتح معارض أخرى ومتاجر في بعض المحافظات القريبة من العاصمة ، فخلال سنة مرت استطاع يوسف وعمري والسكرتير أحمد نقل خبراتهم التي اكتسبوها في مدينة الريحانة لأسواق العاصمة المدينة الكبيرة ، وبدأت تظهر أسماؤهما في سماء العاصمة ، فأكثر من خمسين مشروع ظهرت خلال السنة التي انصرمت ، من أهمها المواد الغذائية الحديد الأسمنت تجارة السيارات الجديدة ، وكانت الخطة فصل المشاريع نظريا عن بعضها ، إدارة محاسبة مستقلة لكل مشروع ، وقامت مشاريع مشتركة مع كبار التجار الذين يعرفون عمري محمود ويوسف حسان قبل مجيئهم للعاصمة ، فسنة التأسيس كانت موفقه كما أخبر الدكتور يوسف الأستاذ عمري .. وبدأ التخطيط لإنشاء عمارات وشقق سكنية تقوم بتنفيذها شركاتهم ، والإعداد لمستشفى خاص وعيادات طبية ، وإنشاء مصنع أدوية كالذي في الريحانة، وتم ترخيص عدد من المدارس ودور الأيتام .. هذا النجاح الصاعد كان يضغط على شخص أو شخصين أو ربما أكثر .

كانت أنعام تتحدث مع شقيقتها نوال – ولابد ان قارئنا الفاضل يذكر هذه الاسماء ، فهما بنتا عم صديقنا عمري محمود – فقالت : إيه يا نوال أتسمعين أخبار ابن عمك عمري ؟!.. لقد ظهر وبرز اسمه في مجتمع العاصمة ..فعمي ناصح يكاد يتميز من الغيظ ، وكذلك أبي .. يقول : هذا الصعلوك يتمدد ويتضخم .. كان لا يعرف إدارة مصنع سجاد .. فها هو يترك الريحانة للعاصمة ..

فقالت نوال : كفى يا أنعام ! إنني أنا أيضا أكاد أن أتمزق من الغيظ .. ألا يكفي أن قمرية تمزق افتدتنا بكلامها عن أخيها .. التقيت بها عند عمتي رباب ، ففقدنا عقولنا وتصدعت من كثرة إعجابها بأخيها وزوجته حتى جبر قال : إن العمل بجوار عمري سعادة وبركة الغيظ يكاد أن يقتلني .. أنا سبب كل هذا الخير .. لولاي ما ترك عمري البيت وحصل على كل هذا السعد

لا تتأسفي على ما فاتك .. هذا نصيبه وقدره .. عمري تغير من قبل أن يخطبك .. ما أخبار

زوجك المخمور ؟

فقالت بحزن عميق وتحسر : لم يصح بعد .. ينام على خمر ويستيقظ على خمر .. ملايين أبيه خسرها بالقمار والورق .. آه كم أكرهه وأبغضه ! أحيانا تراودني نفسي بقتله ! .. مرة تركني مع ضيوفه الرجال قائلا : هذه نوال معكم تابعوا سهرتكم إنني متعب أريد أن استريح .. لعين لا يهتم لشرف وعرض .. يغازل أي امرأة تعجبه أمامي لا يستحي مني ولا يراعي شعوري

فقالت أنعام : تستحقين ذلك .. ألم أقل لك يا بنية اصبري اصبري ؟! .. فها هي فتاة ثانوية عامة تملك كل هذه الملايين ، والكل يحلف بحياتها .. من كثرة ما حدثتني قمرية عنها على الهاتف اشتقت إليها ، ولولا غضب والديّ وزعلهما لزرتها في الريحانة ؛ ولكن قمرية كانت تقول أن عمريا بدأ بنقل مشاريعه للعاصمة ، وقد تعود العلاقات القديمة بيننا .. وها هو قد فعل .. أنا مشتاقة لبدرية وحتى لأمرأة عمي السيدة مريم صادق .. فتقول قمرية عن اختها : إنها ملكة بعد زواجها من الطبيب صديق أخيها ..

فهاجت نوال وقالت بحدة : أخوها .. أخوها .. أخوها .. صرعتم أرواحنا فيهم

فتبسمت أنعام وقالت : لا تغضبي .. عمري معجزة يا امرأة ! عرفت من جبر أنه يدير مئات المشاريع .. ماذا أقول لك أيضا ؟ ! يا أختي المحترمة ! إنني لما سمعتهم يتحدثون عنه ظننت أنه عفريت من عفاريت ألف ليلة وليلة .. لديه أعمال وشركات قد يزيد عدد موظفيها عن عشرة آلاف إنسان ، إن لم يكن أكثر ، وقد دعتني قمرية لزيارتها في الريحانة.. ما رأيك أن نفعلها يا نوال ؟ .. نزور السيدة مريم وبدرية ونتعرف على الفتاة التي وراء عمري .. هل تصدقين أن قمرية ناصح تقول أن زينب تحث زوجها على الزواج عليها وهو يرفض .

ـ ماذا قلت ؟!.. أمعقول هناك امرأة ترغب زوجها بأن يتزوج عليها ؟! .. لقد طلبت الطلاق من نادر ألف مرة ليته يطلقني وأتزوج عمريا

ـ أتقبلين ذلك وترضينه ؟ !

ـ والله إنني أقبل ما زال له في القلب لوعة وهوى .. قاتل الله الغضب والطيش

ـ وابنك الوحيد من نادر أفندي ؟

ـ أتركه لأبيه

ـ وتصلين وتصومين يا نوال ؟

فقالت وهي ساهمة الذهن : أصلي وأصوم يا أنعام .. لقد كبرت وقفزت عن الاربعين دخلت في العقد الخامس .. الزمن يقفز بسرعة

فقالت أنعام : إياك أن يسمع أبوك منك هذا الكلام ، فلك أكثر من خمس سنوات تطلبين الطلاق من زوجك ومن أبيك ، وهم يرفضان ، فكيف لو يسمعون مثل هذا التمني ؟! سينفجران في وجهك

فتنهدت بألم دفين وهمست قائلة : هو كلام .. لقد خسرت عمريا ونفسي قبل ذلك .. ورضيت بهذا المخمور الذي لا يصحو من الخمر ..

*****

كان ناجح أيضا يتحدث مع أخيه ناصح في صالة أحد الفنادق الضخمة في العاصمة ، فهما كانا في انتظار ضيف أجنبي ، فقال : أسمعت يا ناصح باشا أخبار ابنك المطرود والمفقود ؟

نظر ناصح الخابي في عيني أخيه وقال : لا تذكرني به يا ناجح .. أنا لما هجرت قمرية الفيلا استغربت ، ولما حدثت رباب بذلك ، قالت ساخرة إنها ذهبت لحضن أخيها .. لم تجد حضنا يتسع لها وللمرأة الشقراء ، فذهبت حيث الأم والأخ والأخت عرفت عندئذ مكان عمري ، فإذا هو سيد المدينة هناك .. الناس يا رجل يدعونه ويرغبونه لترشيح نفسه لمجلس النواب .. أرأيت ؟! .. إنني أبغضه أكرهه أتمنى موته .. إنه عاق حقير

فقال ناجح وهو يتذكر الماضي : والله إنها كانت ساعة مرة علينا عندما نزلنا به ضربا وصفعا هل يغفر لنا ذلك ؟! إنه قد فتح مشاريع كثيرة في المدينة ، واشترى الفيلا القديمة التي بعتها

فقال ناصح باستغراب : ماذا قلت ؟ ! اشترى الفيلا .. أبدا لقد ذكر لي المحامي أنه باعها للدكتور يوسف حسان

فقال الآخر : ألا تعرف من هو يوسف حسان ؟ ..هو يد عمري اليمنى ، مدير المشاريع رجل ذكي وخبير فطن .. ليس هذا فحسب يا ناجح بل أخبرتني رباب التي علمت من ابنتك قمرية

وزوجها جبر أن الفيلا أصبحت باسم زوجتك السابقة مريم صادق

صاح ناصح وقد هاج : ماذا تقول ؟! ماذا تقول ؟! مريم تشتري الفيلا .. لعنها الله .. لعنه الله إنه ولد عاق سأدمره سأحرقه

ـ ماذا تريد منه ؟ هل أخذ منك دينارا واحدا ؟ ترك البيت هاربا فارا .. فدعه

فقال ناصح بحقد قديم : أنت السبب ،.. أنت السبب وابنتك الملعونة لعنها الله .. اسمع إنني أعرف كل شيء عن عمري من قبل أن يغزو المدينة ، لما رحلت قمرية أرسلت رجلين من رجالنا فجاءوني بكل شيء عنه ، فجننت من نجاحه .. فإنني مغلول ومعلول ومقهور منه .. فأرجوك يا أبا صابر أن لا تحدثني عنه ثانية .. أين هذا الرجل ؟ أليس هذا الفندق الذي ذكروا لنا ؟

ـ أجل .. أجل يا ناصح .. اصبر سيأتي .. ما أخبار الزوجة الشقراء ؟

ـ إنها فاتنة .. أنا صريع الشقراوات والحسناوات

فقال ناجح باسما : أنا سمعت أنها طلبت منك خمسة ملايين

غضب ناصح وهو يسمع الغمز وقال : ممن سمعت ؟

ـ سمعت كما يسمع الناس

فقال : لا أحد يعلم ويدري بالموضوع الا أنا وهي

ـ منها هي .. ارتحت يا باشا

ـ أنا لست باشا يا ناجح .. الباشا اليوم عمري محمود !

ناجح في الريحانة

كانت عزيزة زوجة ناجح الخابي عندما تسمع أخبار عمري الخابي لا تصدق ما يقال عنه وعن مشاريعه وغناه والأيدي العاملة عنده ، ولما تسمع رباب تحدثها بذلك وتقسم لها ، تكاد تنفجر من الغيظ والقهر ، فهذا الخير في نظرها كان يجب أن يكون لابنتها نوال ؛ ولكنها تعود فتقول مواسية لنفسها : إنه رجل معقد مريض ؛ ولكن للأسف ها هي صحف العاصمة بدأت تبرز فيها صورة عمري ومدير مشاريعه يوسف حسان ، وأحيانا عندما تجلس مع ابنتيها ينحرف الكلام للحديث عن عمري الفتى الهارب قبل عشرين سنة تنقص قليلا ، فتأخذ أنعام بالحديث عن تقواه وصلاحه رغم كثرة المال الذي بين يديه ، وأنه بدأ من غير أن يأخذ من أرصدة والده شيئا فتمدحه ، وعزيزة ونوال ينهشن لحمه وينتقصنه ، وأنعام تزيدهن غيظا بالثناء عليه ورعايته للأيتام والفقراء وأصحاب الحاجات ، وتختم كلامها وتمنيها بالجلوس معه وسماع صوته ، فهي منذ هجر بيت الأسرة لم تره ولم تتكلم معه ، فتزداد نوال حنقا عليها فقالت بتهكم : دعي قمرية ترتب لك لقاء معه ألست ابنة عمه ورحمه وأرملة ولديك أيتام ؟ .. فبدلا أن يصرف عليك ناجح الخابي فليصرف عليهن راعي الأيتام والفقراء

فقالت أنعام بغيظ واستياء من تهكم اختها : والله يا حبيبتي أبوك أولى بالصرف عليّ ، وأموال زوجي رحمه الله تكفي وإن ذهب أكثرها لوالديه .. وأنا أقبل أموال أبي لأنه هو يصرفها عليّ ، وزوجي كان موظفا عنده ومات أثناء العمل ، وصدقي سوف أحاول وأسعى للوصول إليه وأسمع صوته ليزداد حنقك وغضبك

وقامت بحماس وحمية واتصلت بقمرية ؛ ولكنها لم تجدها في بيتها فقالت لها نوال : مجنونة أنت خذي الإذن من أبيك

ـ وهل زيارة ابن العم تحتاج لإذن من الأب ؟ .. ومتى كان هذا في قانون العائلة ؟

فقالت عزيزة بغضب : لابد من ذلك .. فأنت تعرفين ما بيننا وبين عمري

فقالت أنعام بقوة وتحد : لا شيء بيننا وبين عمري ، هو أوذي من أبيه وعمه ليس منا .. ونحن تألمنا لم حصل ؛ ولكنه كان خيرا كبيرا له ، ولم يخطبني لأثير الناس عليه كما فعل بعض

الناس

فهاجت نوال واشتد غضبها وقالت : ويلك ما أقسى قلبك ! كنت جاهلة صغيرة .. أليس كذلك يا أمي ؟

فقالت عزيزة : دعينا من كلامك يا أنعام .. هل نامت بناتك ؟

قالت : لا ..صعدوا عند خالهم صابر عند أولاد خالهم

فقالت نوال : أما ابني فقد ذهب يلعب مع جدته قالت ذلك باستهزاء وتهكم .

فقالت عزيزة : ضروري يتعرف على جدته حتى إذا حصل طلاقك من هذا المخمور يستطيع العيش مع أم أبيه في المستقبل

فقالت نوال بحيرة : وأعيش بدونه ؟ !

فقالت عزيزة : ألا يكفي بنات أنعام ؟

فقالت أنعام : وما بال بناتي يا أمي .. أيزعجنك ويلعبن فوق رأسك .. اعتبريهن مثل أولاد وبنات صابر

فقالت نوال ساخرة : صابر ذكر يا أنعام ؟

فقالت أنعام ساخرة أيضا : لا فرق بين ذكر وأنثى في بيوت العائلات الكبيرة والمنفتحة على الشرق والغرب

فقالت عزيزة بغضب : أتسخرن مني ؟! انظري إلى نهى ونهال يحضرن لزيارتنا بدون أولادهن خوفا من إزعاجنا ومضايقتنا ، نحن كبرنا لم نعد نطيق شغب الأطفال ؟

فقالت أنعام : أولاد نهى ونهال شباب يا أمي ! نهى لديها ولدان ونهال مثلها ، ثم إن أولاد نهى لا يحبوننا يرون أنهم أبناء أسر عريقة في الغنى والجاه

فقالت عزيزة الغاضبة : ما أطول لسانك !

فقالت نوال : إنها تقول الحق يا أمي .. أهل أزواجهن لا يحبون لهم الاختلاط بنا

فقالت عزيزة : دعوهن في بيوتهن .. كأن والدكن أتى

طلت أنعام من الشباك ثم قالت : أجل سيارة أبي وصابر وراءه .. لقد أتى الديوك

فضحكت عزيزة وعادت تقول : ما أطول لسانك يا ابنة ناجح !

فقالت نوال : أمعهم زوجي الشجاع ؟ !

قالت أنعام ضاحكة ساخرة : لا .. ذهب لمقاتلة السكارى في حانات المدينة ليثبت لهم شجاعته وفروسيته يا امرأة الشجاع نادر

فصاحت نوال : فعلا لسانك يحتاج إلى تقصير .. ففيه طول أكثر من اللازم

فتظاهرت أنعام بالضحك ثم قالت : نكتة قديمة

دخل ناجح وصابر وألقيا تحية الليل ، وقال الأب مداعبا : بماذا يتحدث الناس في بيتنا ؟

فقالت عزيزة : لا شيء .. بس عن لسان أنعام الطويل

وقبل أن يعلق أحد قال صابر : تصبحون على خير

فقالت أمه : مع السلامة يا ولدي ..أرسل بنات أنعام فهن مع أولادك

فقالت أنعام : مالك في بناتي .. ينزلن وحدهن يا أمي

- لا نريد أن يزعجن صابرا

- قلنا يا أمي لا فرق بين الذكر والأنثى أتتضايق منهن يا أخي العزيز ؟

فقال صابر وهو ينصرف : أبدا يا أنعام .. إنهن بنات أختي وصديقنا ماهر

فقالت نوال بمكر : ولكن فريدة لا تحب معاشرتهن لأولادك

فقالت عزيزة بحدة : دعينا من فريدة المرأة حرة فيها تفعل .. اذهب يا ولدي .. اذهب ..

صعد صابر للطابق الثاني حيث شقته .. وعادت عزيزة تسأل ناجحا قائلة : ما أخبار أخيك العزيز ؟

فقال ضاحكا : إنه مغلول ومقهور من ابنه عمري

فتظاهرت أنعام بالجهل وقالت: ولماذا هو مقهور ومغلول من ولده ؟ !

فقال ناجح باختصار مفيد : من نجاح ولده .. لا يحب له النجاح

فردت أنعام : عليه أن يفرح يا أبي .. هذا شيء يفرح القلب

فقالت عزيزة بضجر وامتعاض : عدنا لسيرة عمري ابن مريم .. هو لا يوجد في الدنيا إلا

عمري يا ناجح ؟

فقالت نوال بخبث مرة أخرى : أبي ! .. أنعام العاقلة تفكر بزيارة السيد عمري .. تريد أن تسلم على ابن عمها نصير الفقراء والأيتام والأرامل

تنهد ناجح من أعماق قلبه ثم قال وهو يهز رأسه : يا ابنتي ! عمري ولد مبارك ، لديه مشاريع يحتار المرء بكيف يدير هذا الرجل تلك المشاريع ؟! .. مدارس .. أيتام .. استيراد .. بيع .. تصدير .. بناء .. سيارات .. أنا ذهبت اليوم بنفسي لمكتبه هنا في العاصمة لأصالحه وأرمم ما بينه وبين أبيه بعد كل هذه السنين من البعد والجفاء .. فلم أجده .. عمري منا ونحن منه .. والحقيقة أن لديه رجالا مخلصين ، وفهمت منهم أن شعار عمري .. لا كنز للمال .. المال يجلب المال مشاريع مربحة مقابلها مشاريع اجتماعية تكافلية .. المال يشتغل أناس تعمل وتكسب وتنفق

فقالت أنعام بحماس : ما رأيك يا أبي بأن نزورهم في الريحانة ؟ .. نزوره في البيت ، ونرى امرأة عمي والبنات ، قد يكون لزيارتنا في بيتهم وقع في نفوسهم وأثر في الصلح الذي تسعى إليه

ـ فكرة طيبة !

فقالت أنعام بنفس الحماس والاندفاع : غدا نذهب .. نأخذ البنات معنا يا أبي .. سأتحدث الليلة مع قمرية لنعرف عنوان امرأة عمي مريم .. أتذهبين معنا يا أمي ؟

فردت بجفاء : لا .. أنا ونوال سنبقى هنا ، لما تتصالحوا مع عمري نتصالح معه .. أليس كذلك يا نوال ؟

فعلا ذهب ناجح لزيارة عمري في مكتبه في شارع قطز ، وجلس مع الموظفين وأخبرهم أنه عمه ، فرحبوا به وأحسنوا استقباله ودردش معهم ، وكان ناجح يفكر بجمع الولد مع أبيه بعد كل هذه السنوات ، وهو يتصرف بدون علم أخيه ناصح ، لذلك لما أصبح الصباح ولبست أنعام ثيابها هي وبناتها انطلقوا ، وأنعام منذ ترملت تركت التبرج السافر ، وبدأت تلبس ثياباً فيها بعض الحشمة ، وأحيانا تغطي رأسها بمنديل رقيق وتحاول المحافظة على الصلاة ، انطلق ناجح بحماسة نحو الريحانة، وهي مدينة معروفة له وتردد عليها كثيرا أيام الصبا ، وحتى أيام

الشيخوخة ، وبعد ساعات ثلاث دخل المدينة وسأل عن الطريق المؤدية للضاحية الجديدة ضاحية الصالح ، ومشى نحوها حتى أوقف السيارة أمام فيلا السيد عمري محمود ، فقال ناجح وهو يطفيء محرك السيارة : ابن عمك لا يذكر اسم الخابي على أوراق مشاريعه وشركاته ومتاجره .. هيا انزلوا

هبطوا من السيارة وضغطوا الجرس الكهربائي ، فسمعوا صوت الشغالة أم مالك ، فتحدث معها ناجح ، ففتحت الباب بضغطة زر ، فدخل ناجح وابنته وبناتها مدخل الفيلا فاستقبلتهم أم مالك ، وأدخلتهم لقاعة استقبال جميلة وقدمت لهم العصير البارد وهي تقول : إن والدة سيدي آتية بعد قليل

وبعد قليل ظهرت مريم من إحدى الأبواب ، وكان بين يديها عكاز، ولما رأت ناجحا هتفت : السلام عليكم .. أهلا بالسيد ناجح

فنهضوا يرحبون بها وأراد أن يصافحها مادا يده ، فقالت معتذرة : آسف يا سيد ناجح

فقال : عفوا يا سيدتي ! .. إيه لقد تغيرت يا مريم أم تخفين الشيب ؟

صافحت أنعام امرأة عمها سابقا وعانقتها وقبلت يدها ، وأظهرت ودها وحبها لامرأة عمها ورأت الهيبة والوقار والتورع في وجهها ، وفعلت الصغيرات كما فعلت أمهن ، فمسحت مريم على رووسهن برفق وحنان ورحبت بهم ، ونادت أم مالك وقالت : اذهبي بهن ليلعبن مع أولاد عمري في غرفة الألعاب ، وأطعميهن من الفاكهة .. فالمشوار طويل

ولما انصرفن تابعت مريم قائلة : أنا حزين لك يا أنعام .. العمر الطويل لك ولبناتك

فقالت أنعام وقد عادت للجلوس : أشكرك يا أم عمري .. أين زينب ؟

ـ ستأتي بعد قليل لتسلم على عم زوجها .. أهلا بكم

فقال ناجح وهو يتأمل مريم : والله تغيرت يا مريم .. إنني أتذكر الصور القديمة وصورتك الآن .. والله عمري ولد مبارك يا مريم ..

ـ الحمد لله .. الشكر لله .. كان ضربكم لولدي خيراً كبيراً لنا ..

وتحدثا وتذكرا وأكلا الفاكهة ، ثم أتت زينب التي كانت ترتب أمر الغداء مع زوجها القادم ،

وحيت الرجل بأدب وحياء وعانقت انعام بعاطفة وحب ، ثم سألت ناجحا عن صحته وأهله وسألته عن عمها ناصح، فتطلع إلى مريم فقالت : رد عليها يا ناجح .. أنا رأيت ناصحا بعد طلاقي ، عند زواج بدرية تقابلنا .. وهو والدها ، والمؤمن لا يبغض إلا أعداء الدين والعصاة المصرين

فعاد ناجح يتحدث عن إعجابه بهم وبإيمانهم ، فقالت مريم : أنت قد دخلت السبعين ماذا تنتظر ؟ .. لماذا لا تدرك نفسك ؟ فقال : يا ليت هذا يحدث يا مريم !

فقالت : باب التوبة مفتوح .. وما يمنعك ؟

فقالت أنعام : والله يا أبي عليك أن تسمع كلام الحاجة أم عمري

وأخذت مريم تتحدث مع السيد ناجح وزينب مع أنعام التي قالت لها: أحببتك يا أنعام مذ رأيتك .. لما أخبرتنا قمرية بمجيئكم سررنا وملأ الفرح قلوبنا .. وقلنا هذه خطوة لمصالحة عمي مع عمري .. مالك تنظرين إلى عمتي ؟ عمتي تدعو ليل نهار ليتحقق ذلك .. فعمي ناصح والد عمري بغض النظر عما جرى بين الأم وزوجها .

قالت أنعام بإعجاب : أنت رائعة يا زينب .. أنت شجاعة !

قالت زينب : أرجوك يا أنعام ! أنا لا أحب سماع مثل هذا الكلام ..

دخلت قمرية فصافحت عمها وعانقت أنعام بحرارة وشوق ، وعلق ناجح : والله يا مريم للمت الأولاد حولك .فقالت : ذكرتني يا ناجح .. سمري ما أخباره ؟

فقال باقتضاب : لا أخبار .. أتى قديما وقضى كم شهرا بيننا ، ثم انصرف إلى هناك .. فلم نستفد من دراسته وشهادته شيئا .. وأسمع أحيانا أنه يتصل بوالده أثناء احتفال الناس بأعياد الميلاد

دعت مريم لولدها بالتوبة والهداية وتساقطت بعض دمعات من عينيها على ضياع ولدها سمري ، وبعدما تحدثت قمرية مع عمها قليلا اندمجت الفتيات بالحديث ، وعاد ناجح ومريم يتحدثون عن الماضي ، وكانت قمرية تخاطب أنعام فتقول بسرور واعجاب : هذه زينب التي كنت أحدثكم عنها عند عمتي رباب .. إنها قمر ونور لنا وبركة .. أهلا بأنعام .. أين البنات ؟

ـ مع أولاد زينب

توبة ناجح

وجد ناجح حفاوة كبيرة من أبن أخيه ، حفاوة لم يكن يتوقعها ، وكان يعتقد أن عمريا ما زال يحمل له أحقاد تلك الليلة المشؤومة كما يقول ، ولمس أخلاق ابن أخيه وحلاوة لسانه وصدق لهجته ، وهنأه على مشاريعه ونجاحه المشهود ، وتناول العم ناجح مع أسرة ابن أخيه وأختيه قمرية وزوجها جبر وبدرية وزوجها الطبيب فائز لطفي وأولادهم الغداء، مما أفرح قلبه وعرف معنى السعادة في الاجتماع والإيمان ، ولما اقترب موعد العودة أبى عمري وأصر وصمم على مبيت الجميع معهم في الفيلا ، وبعد تمنع رضخ ناجح للأمر ، وخلال السهرة كان ناجح يحدث عمريا عن الصلح مع أبيه ، فقال عمري بدون تشنج : أنا مستعد لذلك يا عمي إذا لم تمح كل هذه السنوات تلك الصفعات والإهانات ..فالإيمان الذي نحمله في قلوبنا يدعونا إلى ذلك .. أنت رتب ذلك وأنا جاهز .. وأنا في الغالب أقضي الخميس والجمعة عندكم في العاصمة .. حتى أمي مستعدة لئن تكون علاقتها بأبي علاقة إنسانية طبيعية.. فالطلاق لا يعني الحقد والغل فالطلاق عندنا في الاسلام حل لمشكلة ولبقاء الإيمان .. فهل إذا طلق الرجل ابنة عمه يهجرها ولا يصلها .. لكل شيء حدود ونظام متناسق وواضح ، فالقريب يبقى قريبا ، والرحم تبقى رحما رغم المشاكل والمشاجرات .. قديما يا عم كانت المطلقة تتزوج مرة واثنتين وأكثر من غير أي إحراج ونظرة قاسية نحوها من قبل المجتمع ، فالرسول الحبيب ﷺ تزوج مطلقات ومارس الطلاق ، فهذا الصحابي زيد بن حارثة [٣] ﷺ كان كثير الطلاق وكثير الزواج ، والأرملة كذلك هذه القضايا كانت سهلة الحل .. وأنا عرضت على أمي الزواج منذ أتت إلى هنا ؛ ولكنها قالت بكل صراحة لم يعد بي رغبة للرجال

فقال ناجح : أنت فعلت ذلك ؟!

من حقها يا عمي أن يكون لها زوج إذا رغبت ، فكما عند الرجل شهوة فعند النساء شهوة

---

[٣] – "كان النبي (ﷺ) قد زوجه مولاته أم ايمن فولدت له أسامة ولما تبناه زوجه زينب بنت جحش فلما طلقها للقصة المشهورة زوجه أم كلثوم بنت عقبة فولدت له زيد ورقية ثم طلقها وتزوج درة بنت ابي لهب ثم طلقها وتزوج هند بنت العوام أخت الزبير .. الإصابة ١ / ٥٦٤ "

فكما من حق الأرمل أن يتزوج فمن حق الأرملة أو المطلقة أن تتزوج ؛ ولكن هناك نساء يصبرن عن الزوج ، وهناك رجال يصبرون عن الزوجة ، حسب قدرات وطاقات الإنسان

كان ناجح يسمع هذا الكلام وهو مبهور من ابن أخيه ، فلم يكن عمري كذلك قديما ، كان لا يسمح لنفسه بالحديث معه أو مع أخيه ناصح عشر دقائق على بعض ، ولما سمع كلام ابن أخيه عن الأرامل والمطلقات تذكر ابنته التي كانت تجلس مع البنات داخل الفيلا يتحدثن فتشجع ، وقال : يا ابن أخي كما ترى أنا رجل كبير وابنة عمك أنعام منذ سنوات وهي أرملة ، فكلامك هذا شجعني لئن أقول أمامك بكل صراحة أن تحاول إقناعها بالزواج من رجل من أصحابك ومعارفك الطيبين

فوعده عمري خيرا ، وأخذ يعيد الحديث عن التوبة والصلاة ، فقال ناجح لما سمع تشجيع عمري له مرة أخرى على التوبة : والله لما رأيت أمك يا بني أصابني ذهول .. لقد غيرت في عائلة الخابي .. عندما تتصالح مع أبيك بمشيئة الله سترى مني ما يسرك ، وسأقوم ببناء مسجد كبير من حر مالي

فقال عمري : سأصبر على ذلك يا عمي رغم أن الموت لا ينتظر .. فنيتك بالتوبة مهمة يا عم

ـ كنت آتيا وكلي خوف وقلق من مقابلتك

ـ لأ ، يا عم .. أنت تظل عمي .. وسأزوركم قريبا إن شاء الله .. فلقد تملكت أمي فيلا أبي زوجها السابق ، ونحن نفكر بهدمها وبناء فيلا جديدة مكانها والسكن فيها أيام نزولنا للمدينة فقد بدأت مشاريعنا في العاصمة تكبر وتمتد حتى للمحافظات الأخرى ، وكثير من الإنشاءات أخذت تنتهي .. وابني محمود سيلتحق قريبا بالجامعة وهو راغب بدراسة الطب في جامعة ابن النفيس فربما نسكن فيها حينا من الزمن

ـ يا ألف مرحبا .. من المهم أن لا تنسى يا أبا محمود أختك أنعام ، فهي منذ فارقتنا وتكن لك المحبة والتقدير ، وكم نصحت أختها المنحوسة بالصبر والرضا بالمقدر .. فهي تسمع كلامك ، فرغبها بالزواج مرة أخرى ؛ وليكن رجلا صالحا من جماعتك وأصحابك

حاول عمري عند الصباح الضغط على عمه لقضاء عدة أيام في ضيافته ، فأبى ناحج وأثنى على

ابن أخيه كثيرا وقال : والله يا عمري ! لقد غيرت من نظري نحو هؤلاء المشايخ وأصحاب اللحى .. فالذي يعرف عمريا وأم عمري يصاب بالدهشة ويقول سبحان الله ! لله في خلقه شئون لقد أضعنا عمرنا في الهواء والهوى .. الحق على والدينا .

فقال عمري مقاطعا لتأوهات عمه : أدرك نفسك يا عم ! التائب من الذنب كم لا ذنب له التوبة تجب ما قبلها

ـ إنني مقتنع بما تفوهت به يا ولدي ! ..سترى مني ما يسر قلبك .. أين أمك الحاجة ؟ نريد العودة قبل اشتداد الحرارة

ـ أتحب أن أبعث معك سائقا ؟

ـ لا داعي يا ابن أخي ، ما زال بي قوة لقيادة المركبة

وأتت مريم وزينب والأولاد فسلموا على عم أبيهم ، وحيوا بنات أنعام ، وأظهرت أنعام شكرها الكبير للسيد عمري وأمه ، ودعت لهم بطول العمر والصحة ، فشكرها عمري وقال مودعا : أنت رحمي يا أنعام .. وبناتك بناتنا .. ونحن لدينا مشاريع في العاصمة لرعاية اليتامى ومدارس أهلية .. وأنا أحب الأيتام وأعطف عليهم لقول النبي (ﷺ) أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة وأشار بالسبابة والإبهام .. أنا أعرف ومتأكد أن عمي غير مقصر في رعايتهم .. وأنا لك أخ كصابر ..

فقالت : أنت عزيز يا عمري ورجل فاضل وشهم .. وزوجتك امرأة فاضلة أو كما تقول أختنا بدرية عنها أحلى امرأة في العالم

كانت زينب تخجل من كثرة كلام الإطراء لشخصها وأفعالها ، فهي طيبة بالسجية ، فأحنت رأسها بالشكر ، ولما ركب ناجح في السيارة وصعدت البنات في المقعد الخلفي ، وجلست أنعام بجوار أبيها بعدما عانقت أم عمري والنساء ، قالت مريم : يا أبا صابر .. حنن قلب ناصح على ولده واسعً بالصلح بينهما .. فعمري لا تكتمل سعادته في هذه الدنيا الا بالصلح مع ابيه وعودة المياه لمجاريها .. لا تقصر في هذا المسعى الطيب

فقال : هذا أمر يا أم عمري .. إني سعيد بهذه الزيارة .. سنلتقي قريبا . شكرا لكرمكم

وضيافتكم وحبكم الغامر لنا

وانطلق بالسيارة وهو منشرح الصدر ويقول لأنعام : إيه يا أنعام ! .. أرايت العز الذي فيه القوم

فقالت : نحن عندنا أموال مثلهم يا أبي

فتبسم وقال : لا أقصد ذلك .. نحن ولدنا ونحن نأكل بمعالق الذهب ونشرب بأكواب الفضة العز الأمان .. الحب .. الصفاء .. الكل يحب الكل .. أنا مريم أعرفها منذ خمسين سنة ، عندما دخلت الأسرة كانت ماكرة ماجنة ساحرة ، أما الآن فنور الهداية يشع من بريق عينيها ، لقد غيرها نور الإيمان .. وعمري أنت تعرفينه وتعرفين أخباره هنا وأثناء وجوده في لندن وأوروبا وبعد عودته .. أما الآن فهو ملك وملاك ، ولا يظهر عليه ذلك ، أقول له يا ابن أخي هذه المشاريع كل هذه المشاريع كيف تتابعها وتراقبها وتديرها ؟؟ فضحك وقال تريد أن تحول اللقاء لدروس في الاقتصاد والتجارة الأمر هين .. القاعدة الأولى عندي عدم كنز المال ، طرحه في السوق ، فالمال إذا تحرك أنتج قد يكبو أو يخسر لكنه ينهض ثانية .. فالمال يزيد والناس تعمل وأما مراقبة المشاريع .. يكون باختيار كوادر وعناصر العمل الصالحة .. فإذا كان عندهم ضعف في الإيمان ـ لئن الناس تتفاوت في ذلك ـ تشحذ وتقوى ونحفز القوي .. وإذا وجدنا الضعيف لا يتقدم نغير موضعه .. والمراقبة تتم عن تقارير النفقات والمصروفات والإيرادات .. مقارنة الموازنة مع السنوات السابقة، ثم مقارنة الموازنة مع مشروع مشابه مع مراعاة الظروف والأحوال لكل مشروع ، ويكون ذلك بأيدي خبراء وثقات فبذلك نستطيع معرفة جدوى المشروع أو الشركة .. هذا ببساطة كلام دقيق ورائع منه يا أنعام وقال أيضا أما وضع الجواسيس وفصل التعاون بين الإدارة والعمال بقصد إثارة القلق والرعب بين الأطراف فهذا أسلوب أراه ضعيفا .. فالإنتاج يتبع راحة العمال وقناعاتهم التامة بالعمل وتوفير أسباب التمكين والراحة لهم وحل مشاكلهم ومراعاة أحوالهم النفسية ، ووجود محسنات العمل ومكملاته عوامل مساعدة .. فالعامل مهما كان عندما يجد من يساعده إذا مرض ويصبر عليه إذا استلف فسوف يشعر بالمسؤولية وتجده محبا للورشة ومكان العمل ، وأن يقصد الإنسان بذلك وجه الله سبحانه وأن يكون الإحسان في المشروع .. أكيد سيتحقق النجاح ولا ينظر للخسارة على أنها كارثة

ومصيبة .. بل عليه أن يراجع ما بينه وبين الله من صلات ودعاء ، وما بينه وبين العباد من عدل وظلم ودعاء مظلوم ..وترك الحرص والطمع وحب زيادة المال من غير فائدة ، فقط للزيادة وزيادة رصيد الحساب فحسب ..

قالت أنعام : كل هذا حفظته منه يا أبي ؟ !

ـ ألم أقل لك عمري عجيب ؟! .. بهذه الأفكار والخطوات تمشي المشاريع .. عنده فريق عمل مهمته دراسة المشاريع ورعاية مشاكلها ، وهناك مستشفى تابع لشركاته ، وهو يبني آخر في العاصمة ، فهو يوفر العلاج بشكل رمزي للفقراء وعمال الشركات والمحلات والمدارس فهو يملك مجموعة من المدارس الخاصة كل من أحب الدراسة فيها من أبناء العاملين معهم له تسهيلات خاصة ، وهناك دور الأيتام لمن يموت من العمال فتقوم الدور على رعاية أسرته إذا رغبوا بذلك .. مشاريع إنتاج مقابلها مشاريع خيرية إنسانية ، بل عندهم مشاريع ترفيهية نوادي تعليمية ورياضية متواضعة وحدائق ترفيهية للأطفال وفيها الحيوانات الممتعة .. عجيب هذا الولد عجيب .. لا أكاد أصدق .. لقد جاءنا من بريطانيا مسطولا .. ولكنه ذكي منذ صغره

فقالت أنعام بإعجاب : صدق يا أبي .. تـقول امرأة عمي وزينب أن لديه رجالا يحبونه حبا كثيرا .. بالحب والتفاهم الكبير بينهم والأخلاق الإسلامية تدار كل هذه المشاريع

فعاد ناجح يسأل بعد أن أكد كلام أنعام قائلا : كيف رأيت زينب يا بنيتي ؟

فقالت باسمة : ماذا أقول عن زينب ؟ ! .. كلام لا يصدق .. عندما كنت أسمع عنها يا أبي كنت أظن أن الناس يكذبون أو لأن مصالحهم مع زوجها .. لكن في يوم وليلة تبين لي أنها مظلومة معهم .. أتصدق يا أبي أنها لا تتدخل في مشاريع زوجها ؟ !

فضحك أبوها وهو يقول : عمري نفسه لا يتدخل في مشاريعه

ـ معك حق .. المهم أن مهمتها العظمى رعاية زوجها وأم زوجها وأولادها ، وأنها تحب عمريا حبا لم ألمسه في امرأة أعرفها .. وأتذكر أمي وامرأة عمي قديما عندما كن يحببن أن يدسسن أنوفهن بكل شيء ..

فضحك أبوها مرة أخرى وقال : صح كلامك .. المشكلة كن يحببن حشر أنوفهن في كل شيء ولا يفعلن شيئا .. إنما للحديث أمام نساء المجتمع بأسرارنا ومشاريعنا وأحلامنا .. آ .. أكملي يا أنعام

ـ زينب أدب راق !.. ثقافة رائعة .. تحدثك عن الدين والإسلام بكلام حسن ميسور واضح تلمس فيه الحكمة والموعظة ، تدهش للمعاني التي تراها من قصصها وحكاياتها .. أولادها كلهم أدب وتفاؤل .. وأعجب شيء علمته عنهم أن حماتها تقول إن زينب تعرض على زوجها الزواج من امرأة أخرى كصاحبه الدكتور يوسف حسان .. فهذا الرجل متزوج من ثلاث نساء ويعشن في عمارة واحدة وحدثتني الحاجة مريم عنهن كلاما جميلا وهو عجيب.. وتقول الأخت زينب أهم شيء يجب أن يكون في حياة الناس الحب .. لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه .. هذا كلام النبي (ﷺ) إنهم يحيون بالحب ، ليس كحبنا يا أبي .. فالحب عندهم غير الحب عندنا ، فلما سمعت كلام أم عمري قلت لزينب أمعقول هذا ؟ ! فهزت رأسها بالإيجاب وقالت هذا أمر عادي في عائلتها ، أبوها متزوج مرتين ، وكذلك اخوتها ، ولهم أخ عنده امرأة واحدة فهم يعيرونه ويعيبون عليه ذلك فلما سألتها لماذا ؟ قالت : إنهم يرون أن المرأة إذا كان لها شريك بزوجها .. تفكر مليون مرة قبل أن تزعله منها .. فهناك البديلة فتحفظ نفسها وتحفظ زوجها وتكسب الجنة .. لأن الرجل الزوج مفتاح دخول المرأة الجنة ، وذكرت لي جملة من أحاديث النبي (ﷺ) في حق الرجل على المرأة ، وختمت كلامها بأن التعدد لصالح الأمة وأباحه الله ، وهو هدي النبي وخلفائه الأربعة ، ولولا أن فيه خيرا للأمة المجاهدة المحسودة من أعدائها ومن كفار الدنيا ما شرعه الله ﷻ .. وكنت أحاول الدفاع عما كنت أسمعه من أمي وأم عمري فتضحك وتقول المسلمون يعددون بشرع الله ، والكفار يعددون بالزنا والشذوذ ومما هو منتشر في بلادهم حقيقة كلامها منطقي إذا لم يغلب الهوى والتعصب ، بل أردفت خاتمة الكلام أمام امرأة عمي والله أنت يا أنعام امرأة جميلة وابنة عم عمري ! .. وقد يكون اقترانه بك من مصلحة العائلة غير المصلحة الشرعية . فقلت وكلي استغراب أترضين بذلك ؟ فقالت بدون تردد : أرضى ولم لا أرضى .. كلام لا يصدق عندنا أليس كذلك يا أبي ؟

ـ بلى ولكن هؤلاء الشيوخ لهم أفعال وتصاريف مدهشة ومحيرة .. ولو فعلها عمري أتقبلين به وتكونين زوجة ثانية مع ضرة يا أنعام ؟!

فقالت : بصراحة قد لا أقبل الآن يا أبي ! ولكن عمريا لا يريد ، ورأي البنات مهم .. وعند الجد لا ندري ما يكون موقف أمي مريم وأمي عزيزة وأنت وأختي نوال وزينب نفسها

ـ أنا أرى أن أهم موافقة بعدك طبعا موافقة الحاجة مريم .. أنا بصراحة جرى بيني وبين عمري كلام بهذا الموضوع .. عن زواجك مرة أخرى ولكني لم أشر إليه .. بل أشرت لصاحب وصديق عزيز عليه .. مطلق أو أرمل .. أنت لست صغيرة يا ابنتي .. ولم يبق من العمر قدر ما ذهب والأموال لن تغنيك عن الزواج وابن الحلال .. تكلمي مالك ساكتة ؟

فقالت : ماذا أقول يا أبي ؟ نحن قدمنا لنتصالح أم نتزوج ؟ !

ـ الكلام جر بعضه بعضا يا أم سهام ، وهؤلاء الناس لا حرج معهم ولا تكلف يتكلمون ببساطة وحرية وحسن نية

فهتفت أنعام بفرح : صدقت يا أبي .. العفوية في تعاملهم ، لا يحبون تعقيد المسائل والكلام والأحاجي

وقضى الرجل الشيخ الطريق إلى العاصمة وهو يتحدث عن عمري ومريم والأسرة ، ولما اقتربوا من المدينة قال : قد يغضب ناصح من هذا اللقاء .. فهو حاقد على ولده حقدا كبيرا ولكن كان لابد من هذه الخطوة يا أنعام

قالت : إنها خطوة شجاعة ومباركة بمشيئة الله

ـ لا تتحدثي عن الزواج أمام اخوتك حتى يتم الصلح الأكبر بين الابن وأبيه .. أيقظي البنات .. كأنهن لم ينمن الليلة

غضب الاب

قد علم السيد ناصح الخابي بزيارة أخيه ناجح للريحانة لمقابلة ابنه عمري ، عرف ذلك من عزيزة ، اتصل بها يسأل عن أخيه ، فذكرت له أمر الزيارة ، وناجح لم يطلب منها إخفاء جهة الرحلة ، فاجتاحته موجة غضب وهيجان على ولده وأخيه ، وأمرها أن تتصل به عندما يعود ودخل الليل ولم يعد ناجح كما يعلم القراء ، وقد كرر الاتصال في بيت أخيه عدة مرات ، ثم أخبرته عزيزة أن أخاه اتصل وأعلمهم بأنه سيقضي الليل عند السيد عمري ، فاستشاط غضبا وقهرا على ولده وأخيه، وأخذ يسب ويشتم مما لفت انتباه الأرملة الشقراء ، فسألته عن الأمر فاختصره لها فقالت : ولماذا أنت هائج كالثور وغاضب كالشيطان الرجيم ؟!

فصاح بغضب : كيف لا أغضب ؟ ابني يهجرني منذ عشرين سنة ، ويتخلى عني بسببه وسبب ابنته ثم يسير إليه على حسابي ، وقد حذرته من التدخل في هذا الموضوع ؟

فقالت وفي نبرة صوتها تهكم : عشرون سنة ! أعتقد أنها كافية لإصلاح ما بينكما ، فناجح راغب بإصلاح ما بينكم ، وها هو اتخذ الخطوة العملية الأولى .. وعمري كما علمت قد نـقل مشاريعه للعاصمة .. فالصلح مطلوب يا ناصح هذه الأيام لن أصالحه .. إنني أبغضه .. لن اصالحه أبدا

فقالت : أنت تبغض نجاحه بدونك ، بدون أموالك .. فعمري اسم يتردد في المدينة منذ أشهر وبدون أن يكون للسيد ناصح الخابي يد في ذلك .. بل لا يعرف كثير من الناس أنه من آل الخابي عزيزي ناصح أنت رجل كبير ، لا تدع الحمق والجهل يتغلبان عليك ، فابنك الآن رجل كبير قد اقترب من الخمسين عاما ليس طفلا ..

ـ لماذا تدافعين عنه وأنت لم تريه ولم تعرفيه ؟ !

فقالت : أنا رأيته منذ شهر .. هو لم يعرفني بل قد يكون لم يرني .. كانت هناك حفلة خيرية في مدارس رزق الله حمالصي ، ودعي لها رجال أعمال معروفين بمشاريع الخير والبر والإحسان فكان من ضمنهم ولدك عمري ، وتخلل الحفل خطابات قصيرة لإثارة الحاضرين بالتبرع ، فتكلم رجل بضع جمل ترحيبية ، ثم أشار للسيد عمري ابن الريحانة الذي صعد للمنصة ،

وتكلم بضع كلمات ونزل ، ثم علمت أنه تبرع للمشروع الذي أقيمت الحفلة من أجله بخمسين ألف دينار من ماله الخاص ..

فصاح ناصح مستهجنا هذا التبرع الكبير : أرأيت إنه ولد خائب ؟! .. ألا يكفي ألف دينار أو بضع مئات ؟.. إنهم متسولون بأدب وحيل ناعمة؟

فعادت تقول : المهم رأيت عمريا .. الذي أسمع عنه منذ زمن بعيد .. وقلت صراحة خسارة أن يكون هذا الرجل ابنك

فصاح بها : لماذا يا عاقة يا ناكرة الجميل ؟ !

قالت ساخرة : لماذا ؟ .. أنت قبل قليل أجبت على لماذا ؟ .. إنك تعبد المال أو قل الأرصدة فقط ؛ لأن المال في البنوك هنا وهناك ، ولسوف تموت ولن تراه .. أرقام في دفاتر .. أما أنت فتتبرع بمائة دينار أو بخمسمائة ، أليس بينكم فرق ؟! .. اسمع يا ناصح إذا أتاك أخوك يصلحك مع ولدك فلا تتردد ولا تكابر هذه نصيحتي إليك وأنت حر

ـ إنه ابن عاق ومجرم ونسيته منذ عشرين سنة

ـ هذا شأنك وشأنه .. تصبح على خير ..

تركته حائرا منهارا غاضبا عليها وعلى ولده ؛ ولكنها لا تخشاه ، فهو كالخاتم في يدها لا يستطيع أن يمنعها من فعل شيء ـ مهما كان هذا الشيء ـ منذ تزوجها مدعيا حبه وولهه بها ، وهي أيضا تعامله باحتقار وإذلال ، ولقد نـقل إلى رصيدها أكثر من خمسة ملايين بدون أي كلام أو اعتراض ، وهي التي تسمح له بلقاء فلان أو فلان ، وإذا تمرد تهجره بالشهر والشهرين فيعود إليها باكيا ذليلا مدعيا إنه محب ولهان عاشق ، ومع كل ذلك وتلك السيطرة كانت الأرملة الشقراء لا تحرجه مع موظفيه والذين يعملون معه ، فقط تظهر سيطرتها عليه أمام أصدقائه وزوجاتهم ، ورضي بالذل والخضوع ، فكان يخشى من عودة ولده ، ويعرف بهذا الذل والعار ، فتصير المشاكل ، وقد يرغمه على طلاق هذه المرأة التي أذلت أمه ودفعته لطلاقها وذلها ، فهو خائف من لقاء ولده رغم ما كان فيه من القسوة والتعصب والحقد ، فلذلك لما اتصل به ناجح وأخبره بعودته قال : لا تخرج من البيت إنني قادم

وترك مكتبه وأسرع مسرعا إلى فيلا أخيه ، ولما التقيا أخذ يسب عليه ويشتمه ويعاتبه ، وناجح صامت ومتوقع لهذه الثورة والهياج من أخيه الأكبر ، فلما خفت صوت ناصح وأفرغ ما في جعبته من سب ولعن، خاطبه ناجح بهدوء : ماذا تريد ؟! أنا ذهبت لرؤية ابن أخي الذي أهنته في يوم من الأيام وضربته ، فذهبت إليه معتذرا نادما .. فأنا في أيامي الأخيرة

أخذ ناصح يضحك ويضحك ضحكا عاليا وقال ساخرا : نادم يا ناجح أنت تعرف الندم ؟

ـ ألست إنسانا ؟ .. ألا يندم الإنسان ؟!.. اعتذرت له وقبل اعتذاري وقبل رأسي ويدي وانتهى ما بيننا .. والولد راغب بالاعتذار إليك رغم ما فعلته به ؟

فصاح ناصح بغضب : لست راغبا باعتذاره وندمه ، فات الوقت .. أي اعتذار ينفع بعد عشرين سنة يا مجنون ! .. هو استغنى عنا فيجب أن نستغني عنه .. إنه ليس ابني .. إنه ابن مريم الشيخة مريم

وخرج ساخطا ناقما حاقدا ، فلم يكترث ناجح لذلك الغضب والخروج ، بل دخل حجرة النوم لينام من تعب الطريق الطويلة .

*****

دخلت عزيزة وراء ناجح الغرفة بعد أن انصرف ناصح غاضبا ساخطا ، فقالت باستغراب لموقف ناجح مع أخيه : أغضبته يا رجل ؟ ! .. أنت تعرف غضب أخيك

فقال بغير اكتراث وشجاعة لم تعهدها فيه من قبل : لا تقلقي بعد اليوم .. لقد كان لقائي بابن أخي أعظم لقاء في حياتي .. لقد وعدته بالتوبة والصلاة ، فمن يرافق عمرياً لا يخشى إلا الله .. كفى طول أمل .. رائع للغاية ابن أخي ! لقد قلب حياتي رأسا على عقب في ليلة واحدة عرفت منه لماذا خلق الله المال ؟ ! .. الحلال طيب يا عزيزة .. اذهبي اغتسلي وتوبي إلى الله .. اذهبي لإنعام لتعلمك الصلاة والتوبة

فقالت عزيزة باستغراب : مالكم ؟ ! أذهبتم إلى ساحر ؟ ! .. فأنت مذهول بابن أخيك ! وأنعام مفتونة بزوجة ابن أخيك وحماتها ! .. وها أنت لا تسأل عن غضب ناصح بل تتركه ينصرف غاضبا ولم تلحق به معتذرا متاسفا ؟ !

فقال وهو يهز رأسه وقد أدرك أن هذه أول مرة لم يبال بردة فعل أخيه: يا عزيزة ! لم يبق من العمر بقية ، ولو لم أفعل ما أردت قبل أخذ الإذن من ناصح ، فلن يقبل ، ولم أذهب ، وقد أخسر نفسي وإنقاذ روحي من النار .. اذهبي يا امرأة وافعلي ما طلبته منك لم نعد صغارا يا عزيزة

فقالت عزيزة وهي تغادر الحجرة : ماذا جرى لهؤلاء الناس ؟! .. ناجح يريد أن يصلي .. الله أكبر .. إن هذا لشيء عجيب .. نحن لو لم نر أنعام تصلي في هذا البيت بعد ترملها لحلفت وأنا صادقة أنني ما شاهدت أحدا يصلي في هذا البيت منذ خمسين سنة أو ستين سنة ؟ ! هذا مفتون بابن أخيه وتلك مفتونة بزينب وحماة زينب !

وقد جلست في الصالة تدير في ذهنها الصور الأخيرة التي مرت عليها خلال الأيام الأخيرة ، وسمعت أنعام تقول بنبرة فيها تهكم كما بدا لها : هل غضب عمي ؟

التفتت إليها وقالت : ألم تسمعي صراخه وسبه وشتمه وهياجه ؟! .. إنه ناصح إذا غضب وأنا خائف على أبيك منه .. ناصح حقود وحسود ولا يغفر الأخطاء .. والمصيبة أن أباك غير مكترث لسخطه وغضبه .. ولم يلحق به لإرضائه والاعتذار إليه كما تعودنا .. يبدو أن عمريا سحركم وقلبكم على ناصح

ضحكت أنعام لسذاجة أمها وقالت : وهل عمري ساحر أو حاوي يا أمي ؟! .. ذهب أبي الطيب لمصالحة ابن أخيه والاعتذار عن ذلك اليوم السيء ، ثم تشجيع عمري ابن أخيه على مصافحة أبيه .. وتحقق ذلك فقد سامح الرجل أبي ، ووافق على أي لحظة يسمح له والده بلقائه إنه راض بالصلح وتقبيل يدي والده وفرضت أخلاق عمري الحسنة نفسها على أبي .. أم صالحة ابن صالح .. زوجة صالحة .. أولاد صالحون .. أنت تعرفين من هو عمري قبل توبته ؟ .. وتعرفين مريم أيضا ؟ .. أما زينب فهي صالحة من بيت أبيها فقد ربيت على الإيمان والتقوى منذ نعومة أظفارها .. وفقهم الله وأسعدهم الله في الدنيا والآخرة

فقالت على استحياء ورهبة : أبوك يطلب مني الاغتسال والصلاة

ـ افعلي يا أماه .. وهل أنت طفلة ؟ ! ألم تشبعي بعد من متع الحياة وزينتها ؟ !

ـ إني خائفة ؟

ـ خائفة ؟ ! .. خائفة بما ستقول عنك العجائز .. كل واحدة مشغولة بنفسها يا أمي .. هيا أعلمك الاغتسال للعبادة

ـ وهل أنا لا أعرف الغسل يا شيخة ؟ !

ـ لا .. غسل العبادة يختلف عن غسل النظافة العبادة لها أركان وواجبات وسنن وآداب

رن جرس الهاتف فمشت عزيزة نحوه وردت : آ .. نعم أهلا ناصح .. إنه نائم .. حقك عليّ تعب السفر .. لا ، لم يتغير إنما هو تعبان .. لا تزعل حقك عليّ .. مع السلامة

وضعت السماعة وقالت : عمك صدره كالمرجل على ناجح يقول والله يا عزيزة صار زوجك لا يهتم ولا يسأل عن غضبي ونكدي أسمعت ؟ أيعجبكم هذا ؟

فقالت أنعام بأسف : مسكين عمي !

فقالت عزيزة : أنا خائفة على أبيك من جنونه

فقالت أنعام غامزة : امرأته الشقراء موجودة

فقالت عزيزة وقد عاد لنفسها بعض الاطمئنان عندما ذكرتها أنعام بزوجة ناصح الشقراء كما يسمونها : صدقت .. عندي زيارة للست سعدية

ـ الدكتورة ؟! .. لمَ ؟!

ـ زيارة روتينية .. لا تقلقي لإجراء الفحوص الضرورية والاطمئنان على صحة القلب .. ومن ثم شراء الأدوية اللازمة هل تذهبين معي ؟

ـ لا .. خذي نوالا .. إنني أريد النوم فرأسي فيها صداع مؤلم

*****

كان السيد ناجح قد ترك ممارسة العمل منذ سنوات ، فقد دهمه مرض فسافر للخارج للعلاج ولما عاد معافى أعفاه ناصح من الدوام والعمل في المكاتب ، فهو له أكثر من خمس سنين لا يتردد على الشركات والمكاتب إلا كزائر وضيف ، ويتابع أعماله بواسطة ابنه صابر ، فلذلك وجد أن كلام عمري عن التوبة وترك السيئات غير أنه حاجة ملحة له فقد وافق هوى في نفسه ، فلذلك

تحمس للصلاة .. وأخذ يتردد على المسجد القريب من منزله ، ولما علم ناصح بهذه الأفعال زاد حنقه وغضبه على أخيه بل طلب من عزيزة أن تحثه على الذهاب للعمل وأن الشركة بحاجة إليه .. ولما علم ناجح بهذا غضب من أخيه ، واتصل به وطلب مقابلته ، ولما التقيا دار بينهما حوار حاد ومتشنج هدد على أثره ناجح بالانسحاب من جميع الشركات والمصانع .. فلم يتردد ناصح بقبول ذلك .. فقد زاده الحقد ضلالا ، فطلب من فريق المحاسبة على الفور إعداد أوراق الفسخ فسخ العقود المشتركة بينهما ، فتحدث ناجح مع ابن أخيه حول ذلك ، وأن والده يصر على العداوة ، ولا يريد الصلح معه الآن بل يحاربه لأنه سعى في ذلك ، فطيب عمري خاطره ، وطلب لقاءه في مكتبه يوم الخميس في شارع قطز قص ناجح على ابن أخيه القصة منذ التقيا بالريحانة ..

فقال عمري : أنا معك يا عم ! ولست ضد أبي أيضا .. فأنا أعرف أبي وعناده وقسوته إذا قسى ألا يقبل الاجتماع بي ؟

ضرب ناجح رقم هاتف الشركة وطلب من عاملة المقسم السيد ناصح ولما رد عليه قال : ابنك يريد مقابلتك الآن

كان عمري يسمع السب والشتم من جهة أبيه ، ثم إغلاق السماعة بغضب فوضعها ناجح بحزن وأسف وقال : آسف يا ابن أخي .. يقتلك إن اقتربت من أبواب ومكاتب الشركة .. ويقول لي إن العقود الجديدة جاهزة

فقال عمري : تصرفات غريبة .. على كل حال الصبر مفتاح الفرج .. تصبر يا عمي ! .. فالقلوب بيد الله يقلبها كيف يشاء .. وأنا جد آسف لما سببته لك من متاعب وعداوة أبي

فقال ناجح : أبدا يا ولدي أنا أتيتك برغبة مني ، ولا تظن أنني حزين على فسخ عقود الشراكة والشركات .. أنا لم أكن أحب أن تكون هذه النهاية وبهذه الصورة القذرة بين أولاد الخابي .. لكنك أنت الآن أملنا ورجاؤنا .. أنت ابن مبارك .. سأعود للبيت ، وأحب أن تذهب معي للغداء ، وتلتـقي مع ابن عمك صابر ، فهو منذ حدثت هذه المشاكل وهو معتكف وحابس نفسه في البيت ، ويلومني على زيارتي إليك بدون موافقة ناصح .. اعمل خيرا تلق شرا

اتصل ناجح بالبيت وتحدث مع عزيزة ثم قال لابن أخيه : هيا

تحدث عمري مع السكرتير أحمد والدكتور يوسف حسان وذكر لهما رقم هاتف منزل عمه ، وكان ناجح قد ركب سيارته فأشار عمري لسائقه وحارسه وطلب منه السير وراء سيارة عمه ناجح ، وخلال نصف ساعة كانت السيارتان تقفان أمام الفيلا ، توقف عمري قليلا أمام الفيلا قبل أن يدخل من الباب كأنه يتذكر سنوات مضت وقال : كم من السنوات مضت لم أطرق هذا الباب يا عماه .. أما زال عميش عندكم ؟

سلم عمري على البواب أو الحارس عميش الذي لم يعرفه ابتداء ، واستغرب لدخول هذا الشيخ الملتحي مع سيد الفيلا ، فلما عرف أنه عمري ناصح عانقه ثانية عناق الأحبة والصداقة ودخل ناجح وخلفه عمري وسائقه وحارسه ، وكان عمري لا يحب اتخاذ الحرس ؛ ولكن بعد حادثة إطلاق الرصاص عليه في منزله في الريحانة طلبت أمه منه أن يكلف رجلا بحمايته مع اعتقادهم أنه لا يرد من القدر شيئا ؛ ولكن الأخذ بالأسباب لا يمنع من ذلك .. في مدخل الفيلا كانت تقف عزيزة في انتظار وصولهما .. فلما شاهدت عمريا اضطرب قلب عزيزة هيبة من رؤيته .. فلما وصلوا إليها حياها عمري بتحية الإسلام وأشار لها بيده ، وأخذ يسألها عن صحتها وحالها وهي ترد بانبهار ورهبة وتقارن بين عمري القديم الشاب وعمري الشيخ الكهل ، ولما دخلوا صالة الاستقبال وجلسوا على المقاعد أتت الخادمة بالقهوة العربية المرة .. فأخذ السائق الدلة تيرموس منها ، وسكب للجميع ، وكانت الخادمة تحيي السيد عمري وتسأله عن أمه وأخواته فهي منذ الصبا وهي تعمل لدى الأسرة ، ولما شربوا العصير وحدث عمري امرأة عمه عن أخبار أمه وأنها تهديها السلام والتحية وتدعو لها بالخير والإيمان ، واستأذن السائق والحارس بالخروج والانتظار في السيارة ، فأذن لهم عمري وناجح ثم قال ناجح : أين صابر يا عزيزة ألا يريد تحية ابن عمه ؟

فقالت وهي تنهض : سأصعد إليه .. فالمسكين منذ بدأت المشاكل وهو لا يخرج من الغرفة فقال عمري : أزمة وستمر يا امرأة عمي !.. وليس إغلاق شركة أو خسارة مشروع نهاية العالم ونحن أهل .. ولديّ بفضل الله سبحانه كما يعلم عمي مشاريع ضخمة في العاصمة وهي

بحاجة لرجال طيبين مثل ابن عمي صابر .. لا تبكي يا امرأة عمي .. نحن أقارب وبيننا صلة رحم .. وأبي يتصرف بعصبية وغطرسة .. وإنا قبل أن نأتي إلا هنا تحدثنا معه لأزوره .. فرفض وهددني بالموت أليس كذلك يا عمي ؟

ـ بلى .. ولا أدري لماذا يتعامل معنا بهذه الصورة المخيفة ؟! .. ابن يريد مصالحة أبيه لماذا يعقد الأمور ؟ !

ـ الله أعلم ، الأيام ستظهر سبب شدة هذه العداوة .. توكلي على الله يا امرأة عمي وأرسلي لنا أخانا صابرا فأنا مشتاق لرؤيته

ولما انصرفت الأم للمجيء بولدها الوحيد ، وأثناء ذلك دخلت نوال وأنعام فألقتا السلام على أبي محمود وقالت نوال : كيف أنت يا عمري ؟

فرد بحياء وهو ينظر إلى الأرض : بخير يا ابنة العم كيف أنت ؟ كيف حالك يا أنعام ؟

فردت كلاهما أنها بخير ، وسألته أنعام عن أمه وزينب والأولاد وبدرية وزوجها وقمرية وجبر وعمري يرد عليها بإيجاز ، ثم أخذت نوال تعتذر عما سلف منها معه قديما فقال : أوه .. هذا شيء ذهب مع الماضي يا غالية .. لولا الحساسيات لأتيتكم قديما .. فصلة الرحم مهمة في شرع الله .. أرجو أن تكوني سعيدة بحياتك

فبكت وذرفت الدمع ، مما أدهش صاحبنا عمري فاستفسر فقالت أنعام : لا تهتم بذلك يا أبا محمود .. هكذا هي

فقال ناجح بغضب : يا ابن أخي .. تريد الطلاق من زوجها بحجة أنه مخمور ولا يترك القمار وأنا لم أجبرها على الزواج منه .. فبعدما فارقتنا بسنة تقدم لها هذا الشاب نادر ، وهو من أبناء الأغنياء فهو غني بثروة أبيه وبثروته ، وفرحت به وسافر بها في عدة بلدان كما كانت تحلم، وهي تعرف أنه سكير ولاعب قمار قبل الزواج ، وكانت مقتنعة به وتظهر إعجابها به ، وأنجبت منه ولدا واحدا فقط ، ومنذ سنوات تدعي أنها تبغضه ولا تطيقه ، وأصبحت تقضي أكثر وقتها عندنا ، وخصوصا بعدما ترملت أنعام ، ولا تذهب للبيت إلا باليوم أو الساعات ، فيتشاجران فترجع ثانية ، ويأخذ الرجل ابنه إلى أمه ، وينصرف للزنا والحانات والنوادي الليلية ، وتريد

الانفصال عنه ، وهو لا يريد وكذلك أهله يرفضون الطلاق ولا أنا أرغب فيه

أسف عمري لحالها ورثى لها ؛ ولكن مجيء صابر غير الموضوع، وتعانق أبناء العم ، ورحبا ببعضهما ، وأسفا لتدابرهما كل هذه السنوات وأبدا كل منهما عذره ، وبدأ الحديث عن صابر وغضبه من أبيه لإغضابه عمه ناصح ، وتكلم عمري بأحاديث كلها أمل وتفاؤل وحب، وأن الأمور كلها بيد الله يعز من يشاء ويذل من يشاء ويفقر من يشاء ويغني من يشاء ، وتحدث عن الرزق مما ترك أثرا حسنا على نفس وروح صابر ، فاندفع للبكاء وأن يعترف قائلا : أنت عظيم يا عمري ! .. لقد كافحت وصنعت لنفسك أمرا عجزنا عنه .. مع ما نملك من رأس المال والثقافة

فرد عمري : أشكرك ، فهذا كله بتوفيق الله وليس بشطارتي .. أليس هو الذي يلهمنا الأفكار الصائبة ؟ .. أنا إنسان فرد ولكن الله هو الذي وفق لي أصحابا ورجالا قاموا معي بإخلاص وتفان حتى تحقق هذا النجاح الذي تراه أو تسمع عنه .. فكل الفضل لله وحده .. هو يدبر الأمر وييسره سبحانه .. ونحن ندعوه ونسأله أن ييسر لنا الخير حيث كان ويديم علينا النعم ويحفظها بفضله ومنه وبركته عز وجل

كانت نوال جالسة بينهم – وقد كفكفت دموعها – تسمع وهي مفتونة بكلام ابن عمها ، وتنظر لإنعام بطرف عينها كأنها تقول لها إنك على حق بوصفك أن عمريا معجزة .. فهو في قمة التواضع والأدب وحتى النظر

ولما شرع صابر يستسلم لأفكار وخواطر عمري ، قالت الأم : هيا يا بنات ! فأم أحمد تقول أن الطعام قد جهز

فنهضت البنات وأمهن من المجلس ودخلن المطبخ .. وكانت عزيزة تقول لابنتيها : هل هذا عمري ابن مريم يا أنعام ؟!

فهزت أنعام رأسها ضاحكة ، وكانت تضع الأواني على مائدة المطبخ لتملئها بالطعام الذي أعدته الخادمة أم احمد : نعم هو عمري يا أمي ! .. ابن مريم .. لا يتحدث إلا عن الإيمان والذكر وحتى أثناء حديثه عن المشاريع يكثر من ذكر الله وأسماء الله وفضل الله وتوفيق الله وبركة الله

ورضا الله وحب الله .. هذا عمري الخابي ابن عمنا ناصح !

فقالت نوال : يصلح أن يكون طبيبا نفسيا .. صابر لم يبتسم منذ شهر .. منذ عاد أبي من الريحانة

فقالت عزيزة : لا أكاد أصدق أن هذا الولد الشقي عمري الذي عرفناه .. لقد كنت أسمع شكاوي أمهات البنات لأمه من عبثه وطول لسانه وقذراته مع بناتهن ..سبحان مغير الأحوال ! .. إيه والله يا نوال لقد أفلت زوج باهرا من بين يديك

فقالت نوال : لم يفت الوقت يا أمي طلقوني .. ولسوف أجد ذرة حب في قلبه .. إنه يعرف أنه كان فارس أحلامي أيام الصبا

فقالت عزيزة : إنه متزوج .. وزوجته تحبه ويحبها .. وهي أحلى امرأة في الدنيا كما نسمع أترضين أن تكوني ضرة ؟

ترددت قليلا قبل الإجابة وقالت : قد أقبل يا أمي عزيزة

فضحكت أنعام وقالت : الله أعلم !!

صابر يستريح

كان من عادة عمري عندما يعود من سفر أو من العاصمة إذا دخل البيت تراه يبدأ بحجرة أمه فيسلم عليها ويقبلها وتقبله ، ويطمئن على صحتها ، ويجلس متحدثا معها ، وبعد حين تأتي الزوجة والأولاد فيسلمون عليه ، ويجلسون في حجرة الجدة مريم ، فلما سألته أمه عن أخبار الأهل والأقارب في العاصمة قال : الأمر لا يسر يا أمي!.. فأبي تشاجر مع عمي بسبب زيارته لي ومحاولته الإصلاح بيننا وقص عليها مشاكل عمه مع طليقها ، ولما وصل الكلام للقتل قالت الأم باستغراب : ولماذا كل هذه الحماقة ؟ !

فقال بحيرة : لا أدري يا أماه ، أنا ابتداء ظننت أن عمي أتى بتصرف وحركة من أبي لمعرفتي الشديدة أن عمي العزيز لا يفعل شيئا إلا بإذن أخيه الأكبر سيد العائلة .. أنا رغم معرفتنا بكره أبي الشديد لزوج عمتي رباب ورباب نفسها لم أكن أتصور أن تكون العداوة والحقد والبغض في نفسه إلى هذا الحد الكبير

فقالت : كبر .. أبوك حقود .. أنا أعرف الناس به .. واستغفر الله من زلة اللسان ومن الغيبة ولكن القتل أمر مخيف يا ولدي .. لا تذهب إليه، لا تغامر قد يفعلها بحمقه

ـ إنني قلق .. هل تركت هذا السنين جرحا حادا في قلبه لهذا الحد عليّ .. أنا فكرت قديما وحديثا أن أتصالح معه ؛ ولكني أعرف بطر أبي للحق وعجرفته

ـ الأيام يا بني دواء لكل الجروح هو لم يحاول البحث عنك يوما ما

ـ أخشى أن يسيء لعمي أكثر فأكثر .. فالسيد صابر حزين مما حدث ، وأخشى أن أمد له يد المساعدة فيشتد حقد أبي علينا ، ويتصرف تصرفات حمقاء تفسد كثيرا ، وفي نفس الأوان لا أريد أن أدع عمي وابنه في هذه المحنة ولا أقدم لهما المساعدة والعون .. لا يجب أن يبقى صابر من غير عمل ، قد يجن فهو رجل هادئ ، ويحب الروتين ، فقد تعود على الخروج صباحا والعودة مساء منذ عشرات السنين هل من حل يا أمي ؟

ـ سيلهمك الصواب والحق مولاك العظيم يا عمري .. ماذا فعلتم بالفيلا القديمة ؟

ـ نعم ، لقد تم هدمها ، وقريبا سنبدأ بالبناء فقد أعد مكتبنا الهندسي الرسومات والتصاميم

المناسبة وستكون الفيلا تحفة فنية وواسعة يا أمي إن شاء الله

فقالت الأم بسرور وإعجاب بولدها : الجميل فيك يا عمري رغم المشاكل والقضايا الشخصية التي تعصف بك أن أعمالك لا تتوقف !

أشكر ثقتك بي يا أمي فلدينا رجال مخلصون ـ جزاهم الله خيرا ـ يفرقون بين العمل والقضايا الشخصية .. والحمد لله كثيرا .. التفاهم والألفة والتوفيق بيننا

فدعت الأم قائلة : دامت المحبة بينكم

ـ خلال أشهر يسيرة سيتم البناء الجديد .. وسوف ننتقل للعاصمة الكبيرة كما اتفقت مع الدكتور يوسف حسان ، وسنجعل ثلاثة أيام في الشهر نقضيها في الريحانة في بيتنا هذا .. حتى تكتمل مشاريعنا في العاصمة وتستقر ، ثم نختار المكان الأهدى للاستقرار والراحة بمشيئة الله فدراسة الأولاد في العاصمة ستغير من نمط الحياة بضع سنوات

كانت الزوجة زينب والخادمة أم مالك قد أعدتا مائدة الطعام ، فنهض الجميع إلى غرفة الطعام فأكلوا ما قسم الله لهم من الرزق والطعام والشراب ، وجلسوا يشربون الشاي والعصير كل حسب رغبته وصحته، ويتحدثون في أحوالهم ومشاكلهم وأحلامهم ، ثم انصرفوا للنوم آمنين ولربهم شاكرين حامدين .

التفكير يشغل قلب وبال عمري ، كيف يتجنب الصراع مع أبيه ؟ وفي نفس الوقت يكسب عمه التائب والذي رمى حمله عليه ، وهو لا ينقصه المال ؛ ولكنه يريد عملا لابنه صابر الذي صدم من أفعال أبيه معهم ، فوفقه الله إلى فكرة تتلخص بشراء مصنع من غير أن يظهر هو في الصورة ، هو ولا كبار أصدقائه وشركائه في المشاريع المختلفة ، فتحدث مع عمه في الفكرة ، وطلب منه عدم الحديث عن دوره أمام النساء أو حتى صابر نفسه ، فاقتنع ناجح بفكرة عمري وأظهر امتنانه وقال : فكرة صائبة .. فوالدك قد جن ..

تم شراء مصنع كبير بملايين الدنانير بمواده وعماله ، وكان ناجح وصابر هما اللذان يتحركان أمام الناس ، وعمري وفريق العمل معهما من وراء الكواليس ، وتم نقل ملكية المصنع إلى السيد ناجح وشريكه ابنه صابر ، وتسلم صابر إدارة المصنع الضخم .. ولما وصل الخبر لناصح أصابه

الذهول فقد حاول قديما شراء هذا المصنع ففشل ، فكيف استطاع أخوه شراءه ؟ فأرسل رجاله وأعوانه وعيونه فلم يصلوا إلى ما كان يرجوه ناصح من أن لعمري يدا في الموضوع أو لأعوانه وقد حاول معرفة ذلك عن طريق عزيزة ، فأنكرت بشدة أن لعمري يدا في عملية الشراء ، بل أظهرت امتعاضها منه ، وأقسمت على ذلك ، وتحدث ناصح مع صابر مباركا ومتعسسا ، فأكد صابر عدم تدخل عمري في الموضوع ، وقال له : هي جهود أبي وعلاقاته القديمة قبل تقاعده في البيت

لم يطمئن ناصح بل ظل الشك في قلبه ، فهو يذكر كم محاولة بذلها لأصحاب المصنع حتى يتملكه ، وكانت عزيزة ونوال تظهران الغضب أمام ناجح على ابن أخيه عمري فيقول : يا عزيزة .. عمري ابن ناصح .. عليك أن تفهمي ذلك ، فهو بين نارين زعلنا وزعل أبيه .. ها أنت ترين اتصالات ناصح لما علم بشرائنا للمصنع ؛ لأنه حاول كثيرا تملكه وفشل .. فقلت لابن أخي دعنا نتصرف وحدنا فتصرفنا

أما أنعام فقد كانت تحس وترى أن عمريا له يد في شراء صابر للمصنع ، وأدركت كما أدرك والدها من قبل ثقل عمري في السوق ، واستنتجت أنه لا يحب أن يظهر في الصورة حتى لا يزيد من غضب وكره والده نحوه ، وصارحت أباها بذلك ، فابتسم واضطر أن يقر بفطنتها وطلب منها عدم التحدث بذلك أمام أحد سواء أمها أو أخيها أو أختها ، فوعدته بالصمت ، فكانت نوال تتعجب من ثبات أنعام على مدحها لابن عمها كلما يتحدثون عنه أو تأتي سيرته عرضا في أحاديثهم فكانت نوال تقول : رغم حاجتنا لمساعدة عمري خلال الأيام الماضية في شراء المصنع فابتعد عنا مدعيا أنه لا يستطيع مساعدتنا للحساسية في الموضوع

فقال أنعام بهدوء : أليس هو أباه ؟ وأبوه يريد أن يظل علينا واليا وسيدا، ونحن لن نتمكن من تدبير أمرنا بدونه .. أليس هذا ما يهدف إليه ناصح من حربه علينا ؟

ـ إنك تدافعين عن عمري بحماس وتعاطف كبير.. ما بينكم ؟ !

ـ ماذا تقصدين ؟ !

ـ أقصد هل عمري شريك لنا في المصنع ؟

ـ لا .. فالمصنع باسم أبي وصابر فقط

ـ أنا غير واثقة بكلامكم .. فأبي ما زال محبا ومعجبا بعمري .. وأنت كذلك ، وهذا ما يثير قلقي واستغرابي اصدقيني القول هل من مؤامرة ؟!

ـ لا .. ستثبت لك الأيام غير ما تظنين .. وعمري اعتذر لأبي كما تعلمين من التدخل في الصراع القائم بين أبي وأخيه وقد قبل أبوك العذر .. وعمك هو رحم عمري

*****

ولما علمت امرأة ناصح الشقراء بما حدث بين الاخوة حاولت التدخل ، فمنعها ناصح من ذلك وقال بحدة وسخط : أنا لا أحب تدخلك بيننا ، وقد انتهى ما بيننا ، فقد فضل ابني عليّ .. وأنا نسيت ابني الذي تخلى عني منذ عشرين سنة .. أنا ليس لي أبناء .. فأرجوك ألف رجاء لا تحشري نفسك بيننا .. أنا لا أهل لي

أخذت الأرملة الشقراء توبخه وتذمه وقالت في النهاية : ماذا فعلت لابنك عندما هرب ؟ لم تبحث عنه ؟ ادعيت أنه سافر للعلاج ألم يحصل ذلك ؟ أنا لن أتدخل بينكم ؛ لأنك رجل أحمق وأصلا أنا لا أحب كل أقاربك ولا أطيـق رؤيتهم والحديث معهم

فقال : جيد هذا جيد .. فلتظلي في مشاريعك وأوهامك وأحلامك أنت في واد وأنا في واد أنا بدأت أكرهك

ضحكت وصرخت فيه : تكرهني !! فأنا أكرهك منذ أصبحت ظلي يا رجل .. أنت رجل غبي .. إنني لا أدري كيف وافقت أن أكون لك زوجة؟

فأظهر غضبه عليها وغضبت هي الأخرى وتطاير الكلام البذيء بينهما ، ثم قالت : أنا مسافرة سأغيب عدة أسابيع .. فحل مشاكلك مع أخيك .. وأرجو أن لا أسمع أحداً يتحدث بهذه المشاكل أمامي ..

ـ أين ستسافرين ؟

ـ لا يهمك أين سأسافر ؟

ـ مع من ؟

ـ مع نفسي

ـ أخشى أن أخنقك بيدي هاتين .. للصبر حدود يا ملعونة

أنت رجل هرم خرف .. منذ البداية وافقت وحلفت أنك لا تسألني مع من أجلس مع من أسهر مع من أسافر

ـ أنا لست حيوانا

ـ بل أنت أكبر حيوان

ـ إنك شر امرأة عرفتها

ـ ها أنت تدين نفسك بلسانك .. فكما سمحت لنفسك بالنوم مع العشيقات .. وأنا أعرف أغلب الشقق التي تقضي فيها شهواتك الحيوانية .. فأنا أسمح لنفسي بالجلوس والنوم مع المعجبين بي وعشاقي

كان يضغط على شفتيه من القهر والغل ؛ ولكنه يدرك أن كلامها صحيح ، ألم تدخل عليه ليلا في إحدى الشقق وقد وجدته مع صبية صغيرة قد استطاع إقناعها بالفاحشة والزنا ؟ .. فعاد يقول مستسلما : افعلي ما شئت يا ابنة الملاعين والشياطين

فقالت : نظف نفسك قبل أن تنظف غيرك

لقد أدمن الرجل رغم شيخوخته على ارتكاب الفواحش وزيارة علب الليل ونوادي الليل وتصيد الفاجرات وبنات الهوى ، فلذلك كان يخاف من عودة عمري إليه يخاف على هذه المتع والملذات .. فأشياء كثيرة يخافها من مصالحة ولده .. ولكنه مقهور ومغلول من نجاح ولده وكثرة مشاريعه، وتردد اسمه على الألسن رغم حداثة سنه في العاصمة .. وكان يعرف كثيرا من عشاق زوجته الشقراء ويجالسهم على مضض ويتظاهر بالانفتاح وعدم الضيق والغيرة .. ولكنه جبان ..

*****

مضت سبع سنوات أخرى وقد هلك في آخرها السيد ناجح ، وقد هداه الله في آواخر عمره على يد ابن أخيه ، وكانت عزيزة قد عرفت دور عمري في شراء المصنع لولدها صابر ، وكذلك

صابر عرف ، اعترف أمامهم ناجح بعد سنوات بجهود ابن اخيه ، ووصاهم على محبته والسير في ركبه .. وقبل الموت طلب وترجى ناجح ابن أخيه أن يتزوج من ابنته الأرملة أنعام ، وقد وافق عمري على ذلك ؛ ولكنه أجل ذلك بعد شفاء عمه ؛ ولكنه كان مرض الموت .. ولما انتهت فترة الحزن تحدث عمري مع عزيزة وأنعام عن موضوع الزواج وخيرها بالبقاء على ذمته أو الفراق ، فقبلت بالزواج منه وتحقيق رغبة ابيها والحياة معه في الفيلا ومع زوجته زينب المحبوبة التي لم تمانع بهذا الزواج .. وكان زواجا بسيطا حفلا صغيرا في الفيلا ، فانتقلت على أثره أنعام وبناتها للحياة مع عمري وأمه المريضة وزوجته زينب .. وكان محمود الابن البكر لعمري قد أنهى دراسته الجامعية وأصبح طبيبا ، والبنت الكبرى على الطريق وسافر محمود لأوربا للتخصص والدكتوراة فزوجه أبوه قبل سفره .. ورفض ناصح خلال هذه السنوات السبع كل التدخلات للجمع بينه وبين عمري ، ورحل لأمريكا وأمضى فيها سنة يتداوى ويتعالج .

سهام ابنة انعام

كان عمري يتمنى أن يصحب أباه معروفا في آواخر حياته ، وقبل رحيله إلى أمريكا للعلاج تحدث عمري مع أكثر من صديق لوالده ليسمح له بمرافقته في رحلة العلاج ، فأبى وأصر على السفر وحده ؛ لأن زوجته الشقراء رفضت السفر معه ، فهذا ما كان يقض مضجع عمري يومئذ وخلال السنة التي مضت لم ييئس عمري من المحاولات ، لقد كان على اتصال دائم بالممرضة الخاصة التي رافقت أباه ويطمئن عليه منها ، وقد حاول الحديث معه مرارا بواسطة الهاتف في لحظة ضعف ؛ ولكنه كان يصرخ في وجه الممرضة ويهدد ويتوعد بالويل والحقد .

كانت حياة السيدة أنعام مع زوجها الثاني حياة طيبة وهادئة ، وكانت ترى زينب أختا وصديقة لها فهما متقاربتان في السن ، لم تشعر بأنها ضرة لها ، وحتى بناتها الثلاث لم يشعرن باغتراب أو إحراج أو ضيق في بيت الأسرة الكبيرة ؛ ولكن الفتاة الكبرى سهاما كانت قد اقتربت من إنهاء دراستها الجامعية ، وكانت تظهر امتعاضها وألمها من اللباس الإسلامي ، فهي لم تلبسه إلا عندما تزوجت أمها من ابن عمها عمري .. وكانت لا تتحمل سخرية بنات العائلات وزميلات الجامعة من لباسها المحتشم .. وكانت تحدث بينها وبين أمها المشاجرات حول ذلك الأمر .. فالسيد عمري لا يتهاون في مسألة اللبس ، فكل بناته وبنات أختيه قد أصبح هذا اللباس لديهم أمرا طبيعيا ، أما سهام كبرى بنات أنعام لم تستطع الانسجام معه .. فكانت تتذمر منه كثيرا .. حتى فكرت أنعام أن تعيد ابنتها للحياة مع أمها عزيزة لتحررها من ذلك الحرج والضيق .. فالتربية ابتداء لم تكن إسلامية .. فمن المعروف أنهم أسر متحررة في هذا الأمر وإذا لم تقتنع الفتاة المتبرجة اقتناعا عقليا ووجدانيا فلن تستمر على ذلك .. وكان ذلك يزعج أنعام ، وكان عمري يشعر بذلك الحرج والضيق ؛ ولكن فتح هذا الباب فيه إثم وحرج، وأيضا لم يستجب لفكرة إرسال البنت الكبرى والوسطى للحياة عند جدتهم عزيزة .. فرقابة الأم لبناتها وأسرتها في هذه السن ضرورية وحاجة ملحة ، ورأوا أن الزواج هو الحل الأسلم لذلك ولكن أين الزوج المناسب ؟ .. لقد كان في سيرة حياة سهام شاب يدرس معها في الجامعة وفي نفس الكلية ، وكان بينهما ود متبادل ؛ ولكنه لم يتطور إلى علاقة عاطفية حميمة .. صداقة كما

يدعون ، وكانت الفتاة تخشى تطور ذلك إلى حب وغرام كما تفعل كثيرات من بنات الجامعة ، فزوج أمها رجل تراه متعصبا ومعقدا رغم حبها الكبير له ، فهي لم تنس ذلك اليوم الجميل عندما ذهبت مع جدها ناجح وأمها لزيارتهم في الريحانة ؛ ولكنها كانت صغيرة ابنة ثلاث عشرة سنة ؛ وكان زواجه من أمها كان مقبولا أيضا في البداية ومرحبا به .. فأنعام كانت معجبة بابن عمها وتراه الزوج المناسب لمن هي في سنها امرأة تجاوزت الأربعين .. هذا كانت الفتاة تدركه ولكن لما جاء الوقت كانت تدرس في الجامعة ، فعارضت ذلك الزواج ولكن بضعف ، إنها لا تريد أن تقف أمام سعادة أمها .. ولكن الذي كان يثير دهشتها أكثر حب خالتها نوال لعمري وكانت تريد الانفصال عن زوجها أملا في تحقق هذا الزواج والحلم القديم .. فشاء الله أن يلزم العم ابن أخيه وهو يموت بالزواج من ابنته الأرملة .. هذا كله كانت سهام تعلمه .

وكان صديقها في الكلية يضيق أيضا من لباسها الشرعي ويجعله مادة للسخرية والتخلف والعصبية .. فكانت حائرة وحتى أنه قال لها يوما : يا سهام ! لو تخلعين هذه الثياب قد أفكر بخطبتك وأرتبط بك

فتشرع بالحديث عن زوج أمها وتدينه ، وتظهر له المعزة في قلبها والاحترام ؛ وتخشى أن يرفضه بسبب عدم تقبله اللباس الشرعي ، فيتعجب من ذلك ويقول : أدبك رائع يا سهام وأخلاقك مع الشباب رائعة أيضا ، أهلي وخصوصا أمي لو تسمع أنني أرغب أن ارتبط بفتاة تلبس ثوبا طويلا لـتضربني وتقيم الدنيا عليّ ،إن أختي منالا تحبك ومعجبة بك وبتعقلك

ـ هذا من لطفك يا فواز ! ومن لطف أختك منال .. أنا لو لم أكن أعيش عند زوج أمي لخلعت هذه الثياب .. فأنا غير محب لها ؛ ولكن أمي تجبرني على ذلك ، وبنات خالتي زينب ضرة أمي يلبسن اللباس الإسلامي الشرعي

فيقول : على كل حال لنبقى أصدقاء .. السنة نتخرج من الكلية فتبدأ حياتنا العملية فلربما تيسر لنا الزواج يا سهام .. فالبنات كثيرات معنا يا سهام ولكن جمالك وأدبك جذاب

ـ أذكر أنك قلت سابقا أن والدك يجب أن تدرس الماجستير والدكتوراه مباشرة بعد البكالوريوس

ـ هم يريدون ذلك ، وأما أنا أفكر بالعمل مباشرة والاستراحة من الدراسة .. مللت لي ثماني عشرة سنة أدرس يا سهام ألا يكفي ؟!

ـ أنا أيضا بدأت أفكر بدراسة الماجستير .. فخالي صابر قال ستعملين معنا وسيسمح لي بالدراسة على نفقته أيضا

ـ خالك هذا رائع يا سهام !

ـ شكرا لك أيها الصديق .. أفكر أحيانا بالحياة مع جدتي وابنها صابر ، ولكن زوج أمي يبدو لي أنه يعارض هذه الفكرة .. لذلك أمي لا تحبذ ذلك ولا تريد إغضابه .. فهي تراه ملاكا يمشي على الأرض

ـ هذا تعصب وتشدد

وأخذ الشاب يعيب على الشيوخ والمحجبات ، وتظهر سهام تأييدها وتعاطفها مع كلامه وتعليقاته الحادة .

كانت أنعام ترى زواج سهام حلا مناسبا ، ولكن من أين يأتي هذا الزوج ؟ .. وهل يوافق عليه عمري الشيخ المتدين ؟ .. لذلك كان يراودها شعور بالندم أحيانا من موافقتها على زواجها من عمري ، وترى أنها نسيت البنات في غمرة ميلها لابن عمها ، فتشجع نفسها لتطلب منه الطلاق ، ثم تضعف عن ذلك ، وكان هذا الهدف قد كبر في وجدانها عندما علمت أنها لن تحمل منه فعندها ضعف شديد في المبايض ، ومشاكل أخرى في الرحم ، وكان عمري مشغولا عن فهم ظروفها لاهتمامه ومتابعته لصحة والده ، ولديه إحساس أن والده قد يفارق الدنيا قبل أن يتسامحا ؛ وأما زينب الذكية كانت تدرك ما عند أنعام من هموم وصراع داخلي ، وهي حائرة بالخطوة المناسبة لأن أي حركة خاطئة ستدمر البيت ، وتثير حولها الشبهات والغيرة والحسد من ضرتها ، فكان جل اهتمامها تلك الأيام برعاية أمها مريم التي لم تعد تستطيع مفارقة السرير وحدها ، لها سنوات تعاني من أتعاب وأسقام الشيخوخة المبكرة .

وتخرجت سهام من الجامعة وفرحت أمها لها فرحا كبيرا ، وأقامت لها حفلة جميلة في الفيلا ، سمح لها عمري أن تدعو لها كل من تشاء من صاحبتاها ورفيقاتها وأقارب أمها وجدتها عزيزة

وحاولت سهام أن تدعو بعض أصدقائها الشباب ، فرفضت أمها بشدة هذا الأمر ، ولم يشارك في الحفلة إلا النساء والفتيات من أقاربها وبعض زميلات الجامعة ، وقد تألمت وحزنت سهام من ذلك الموقف المتشدد ، كانت تود وتطمع بحضور فواز لهذه الحفلة ليتعرف على أمها .. وقضت سهام بعد الحفلة ثلاثة أيام مريضة ومرهقة بدلا من الفرح ، وحضر الطبيب من أجلها ثلاث مرات .. حرارة صداع عدم رغبة في الطعام ، وقد احتار الطبيب في تشخيص المرض ، وأخذ يفكر بعمل التحاليل المخبرية لها ..

وتحدثت زينب مع أنعام فقالت : ألم تعرفوا بعد سبب المرض يا أنعام ؟

فقالت بحزن : للأسف فالطبيب لم يقل شيئا مهما .. ويفكر بإجراء تحاليل دم وبول وغير ذلك

فقالت زينب : اجلسي معها يا أنعام ! وتحدثي معها بصراحة فأنا أرى أن تعبها نفسي فعندها هموم ومشاكل شخصية

دهشت أنعام لتحليل زينب فقالت : ماذا تقصدين ؟ !

ـ المفروض أن تقابل سهام النجاح والتخرج بفرح وسعادة ؛ ولكنها كانت حزينة يوم الحفلة ولم تكن مسرورة ومرحة

ـ لاحظت ذلك ، وأظن أن ذلك سببه عدم موافقتي على مجيء بعض زملاء الكلية

أحسنت يا أنعام .. كانت سهام ترغب بذلك ، فلابد أن سببا مهما دفعها لذلك ، ولما فشلت بتحقيق ذلك المطلب أصابها المرض والانهيار

ـ ماذا تقصدين مرة أخرى يا زينب ؟!

ـ أقصد أن هناك شابا في حياتها ربما كانت ترغب أن يتعرف عليك بهذه المناسبة

ظهر الضيق على وجه أنعام فقالت : وما يدريك ؟ ! هل صارحتك بذلك ؟ ..لم تحدثني بشيء من ذلك خلال السنوات الأربعة التي مضت يا زينب

فقالت زينب بهدوء وثقة : لا .. لم تصارحني بشيء ؛ ولكن إصرار البنت على حضور الشباب أو الزملاء تلك الحفلة ، وتشاجرها معك وإغلاقها الغرفة على نفسها عدة مرات محتجة يدل على أن في حياتها شابا و ..

فصاحت أنعام وهي تظهر الغضب : ولماذا لا يتـقدم لخطبتها هذا الشاب ؟

ـ هذا ما يجب أن تعرفيه منها .. دعيها تفتح قلبها لك

ـ والله يا زينب أنت تتكلمين كلاما غريبا

ـ يا أنعام الطيبة ! .. بنت ليس عندها مشاكل عائلية خاصة .. وأسباب الراحة متوفرة لها فلماذا تبدو حزينة متألمة وسارحة ومهمومة؟!

تبرمت أنعام وقالت : تعالي يا زينب لنتحدث معها .. أنا حقيقة مندهش ومستغرب وأعجب من كلامك الغريب .. سهام تحب شابا ولم تخبرني بهذا ؟ !

ـ اذهبي وحدك

ـ لا .. اذهبي معي

سارت المرأتان إلى سرير سهام ، فقبلتها زينب ودعت لها بالشفاء والعافية ، وذكرت بعض أحاديث وأدعية عيادة المريض ، ثم قالت أنعام : يا ابنتي لك ثلاثة أيام راقدة .. لا تأكلين إلا القليل .. والطبيب لا يرى تحسنا في صحتك هل أنت غاضبة من تلك الحفلة ؟

هزت رأسها نافية ذلك ، فتطلعت أنعام بزينب ثم قالت : بصراحة يا سهام ! أمك زينب تقول إنك متضايقة ومتعبة لعدم موافقتي على حضور أصدقائك الحفلة ؟

فأغمضت عينها ولم تتفوه بكلمة فعادت أنعام تقول : يا حبيبتي ! أنا رفضت ذلك لأننا لسنا في عالمنا الماضي .. وعمك عمري الطيب يضيق بذلك ، وأنت لست في بيت أبيك ـ رحمه الله ـ ولا في بيت جدك .. فالاختلاط هنا ممنوع .. وإذا كان لك صديق أو زميل يحبك ويرغب بك فليأت من الباب ..

ففتحت عينيها وقالت هامسة : كنت أحب أن يتعرف عليك إنه ..

نظرت أنعام لزينب وهي مصعوقة وقالت مقاطعة بتوتر : أحدثت خالتك بشيء من ذلك ؟

فقالت زينب : لا .. أبدا يا أنعام .. يا حبيبتي يا سهام أنا أعرف الحيرة التي تعيشين فيها في هذا البيت .. هذا بيت طباعه وعاداته تختلف عن عادات بيت جدك ناجح .. ومن حقك أن تحبين وتهوين .. فإذا كان هذا الشاب يحبك حبا صادقا وراغبا بك زوجة فليتحدث مع عمك عمري

أو أمك مباشرة

فقالت الفتاة : لم يصل بيننا الحب إلى هذه الدرجة يا خالتي ! هو صديق لي كان يسمح لنفسه بأن يحدثني عن الخطبة والزواج ولكن هناك أشياء أخرى ..

فقالت أنعام بقلق : حبيبتي سهام .. هل خنت ثقتي بك ؟

ـ لا .. يا أمي .. أنا ابنتك ، لا يذهب عقلك لشيء قبيح

فقالت زينب : الحمد لله على سلامتك يا سهام .. تأكدي أننا نحبك ولا نضغط على حرية اختيارك .. فإذا كان الشاب فقيرا فنحن لا ننظر إلى المال

فقالت : لا .. بل هو شاب ثري .. أخ لمنال لقد عرفتك عليها يا أمي

فهزت أنعام رأسها بنعم .

فقالت زينب : تكلمي بكل آلامك لأمك يا حبيبتي.. فسوف يرتاح قلبك ويصح بدنك إنني ذاهبة إلى أم عمري

فقالت أنعام : أشكرك يا زينب ..والله أنا ما خطر في بالي مثل هذه الأفكار لأنها لم تحدثني يوما عن علاقتها بشاب

فقالت الفتاة بحدة : لا توجد علاقة يا أمي .. مجرد زميل

ـ حسنا .. مجرد زميل .. حدثيني عنه

تركت زينب ضرتها مع ابنتها البكر ، ومشت نحو حماتها تشرف على أحوالها .

*****

فلما عاد عمري مساء من العمل ، وتعشى مع والدته كعادته ، وتحدث وسمر الجميع في حجرتها طلبت أنعام من زوجها الحديث على انفراد فاستغرب عمري طلبها ، فقالت موضحة السبب امام السامعين : سأتحدث معك عن سهام

فقال قـلقا : قد مررت عليها ، فهي طيبة ، وأحسن حالا من أمس .. عن إذنك يا أمي

فأشارت له برأسها أن نعم ، اذهب ، فخرج إلى مكتبه الواسع في الفيلا الجديدة ، فوجد ابنته عائشة التي تدرس في كلية الطب تجلس فيه ، فقال بعد السلام : عفوا عائشة أنت هنا .. لماذا

لا تجلسين في المكتبة ؟

ـ أهلا أبي الحبيب ، وعليكم السلام .. أهلا خالتي .. أحببت الجلوس هنا يا أبي

ـ أتسمحين لنا بالحديث هنا وحدنا ؟

أخذت تلملم الكراسات والأوراق والأقلام وقالت : أنا آسفة

ـ المكتب تحت أمرك ؛ لكن خالتك أنعام تريد أن تحدثني بموضوع خاص فهذا سبب إزعاجنا لك

فقالت وهي تبتسم : أبدا .. إنما هو تغيير جو ، أنت تعلم أنني أحب القراءة والجلوس في المكتبة الرائعة التي كونتها يا أبي

فتبسم وقال : الفضل لزينب بعد فضل الله سبحانه

قبلت الفتاة رأسي أبيها وخالتها ، وأغلقت الباب وراءها ، وقد سمعت والدها يقول : لتصنع لنا أم احمد القهوة يا عائشة

قالت أنعام : أنا لا أدري يا سيدي كيف أبدأ ؟ !

فضحك عمري وقال : أنعام الحبيبة حائرة من أين تبدأ ؟! .. ابدئي من حيث شئت .. أليس الموضوع بشأن سهام كما قلت .. فابدئي من حيث تشائين من الأول من الآخر .. فأنا أحب سهاما وهي كابنتي عائشة

قصت عليه حكاية الفتاة وبغضها للملابس الشرعية والجلباب ، وحدثته عن زميلها فواز ورغبته بخطبتـها لولا خوف أهله من هذه الثياب وبغضهم للزي الشرعي .. ولما انتهت أنعام من تفصيل قصة فواز وسهام لزمت الصمت ، تنتظر كلام عمري الذي لزم الصمت بدوره منذ بدأت الحديث ، وإن كان يتغير لون وشكل عينيه ووجهه وجبينه أثناء سرد القصة ولم يتكلم رغم صمتها ، فقالت أنعام : أسمعت كل ما قلت ؟

فهز كتفيه قائلا : سمعت بالطبع .. هذا يؤرق الفكر والقلب .. الشاب لا يريد التقدم إليها إلا إذا خلعت هذه الملابس

ـ هكذا هي تقول .. شاب معجب بها ، وكذلك أخته ؛ ولكنهم يبغضون هذه الثياب ..

ـ والصلاة .. هل يعرف أنها تصلي ؟

ـ لم تذكر من ذلك شيئا

فقال : هي الآن أنهت الكلية .. كيف ستراه ؟

ـ سألتها عن ذلك ، فردت أن هنالك أخته ستنقل له الصورة الجديدة لها ، من خلعها الثياب الطويلة وعودتها للبس البنطال والثياب القصيرة .. فتقول إذا وجدتها تفعل ذلك ستشجع أخاها على الاقتران بها

فقال عمري بعد تدبر : يطلبها ويكتب كتابها ، ولما تنتقل لبيته أو بيت أهله يلبسها ما يشاء أما أن تفعل ذلك قبل الزواج فأنا غير مطمئن لذلك ولا ارتاح لمثل هكذا شرط .. أنا ليس من حقي أن أفرض عليها شيئا؛ ولكن هنا نظام عام في البيت علينا مراعاته .. فأنا صحيح فقط زوج أمها لست أباها ، وأعرف أن زواجنا قد أثر على نفسيتها ، وأنا لم أحب أن تعيش في بيت عمتي عزيزة حبا لها ، وعدم إبعادها عن حضنك ورقابتك وعن أختيها

فقالت : وما الحل في نظرك ؟

قال : الحل سهل .. يتقدم لطلب يدها إذا كان صادقا في إعجابه وعواطفه نحوها ثم يقترنان نحن فعلنا ما يليق بها وبنا .. أو نصبر شهرا أو شهرين ؛ فإذا اندمجت في العمل واندمج فواز بذلك قد ينساها وتنساه ، وإذا كانا متمسكين ببعض ستحدث تتطورات .. فالبعد يحدث النسيان والجفاء ، ومن ثم تظهر حقيقة المشاعر

ـ إنها لا تريد العمل الآن

ـ لا بأس ، فخالها صابر في انتظارها..وكل شركاتنا ترحب بها ، فالشاب بعدما تبتعد عنه سيظهر صدقه من كذبه ، ومن حقها أن تختار من يرتاح له قلبها .. أما التعري في البيت لا تساهل فيه .. وهذا ليس تعصبا ، ولكن هذه مملكتنا قد بنيناها وشيدناها بصبر وجهاد طويل وأنا أيضا على استعداد لاستقبال هذا الشاب والتعرف عليه

ـ إذن الحل الزواج

ـ هل من حل غيره ؟

ـ أسكن أنا والبنات في فيلا أخرى .. نستـقل عنكم

وقف عمري غضبا ونهضت قائمة مثله وقال : ويلك ، ما هذا الكلام ؟! أتعيشين وحدك وأنت ذات زوج ؟ .. لو كان هناك ابن أو أخ لربما رضيت بذلك ..

ثم خفض من صوته محاولا إعادة الهدوء لنفسه متابعا كلامه : سيدتي يا أنعام ! .. المشكلة ليست بهذا التـعقيد .. الدين أولا ، ومهم في حياتنا ، وأنت خير من يعرف هذا ، ولا يجوز أن نستسلم لنفاثات الشيطان ، ونفخات الجهل ، وأنا قلت قديما واليوم إنه لا سلطة لي على سهام وأختيها ، ولست محملا لهن جميلة لحياتهن معنا في هذه الفيلا ، فمن حقهن العيش والحياة مع أمهن .. ولكني اليوم لهن بمقام الولي والوصي

فقالت أنعام والدموع تنساب من مقلتيها : إنني حائرة يا ابن عمي

ـ ولم الحيرة ؟! .. وهل إذا خلعت ثياب الحياء والدين تزول الحيرة والمشكلة ؟! .. دعيها تتصل به ليقابلنا أنا وأنت ، ونجتمع به هنا في هذا المكتب ونتعرف على حضرته؛ فإذا كان جادا فلسوف يأتي

ـ اطلب منها ذلك

ـ هيا يا عزيزتي .. اذهبي اغسلي وجهك .. أما أن تسكني وحدك وبدوني فهذا لا يجوز ولا يحل يا عزيزتي

بعد أن غسلت وجهها ، ذهبا سوية إلى حجرة البنات ، فوجدا سهام وحدها نصف نائمة ، فالقيا التحية ، وقالت أمها : يا سهام استيقظي .. فهذا عمك أبو محمود قد حدثته بكل شيء

فمسحت الفتاة عينيها الذابلتين وقالت بخجل وصوت ضعيف : تأكد يا عمي أنه ليس بيني وبينه شيء يشين .. إنما تعارف وزميل في الكلية وليس بيننا حب عنيف أو قصة حب فقط إعجاب وميل وتفاهم ورغبة بالاقتران وأنا أحبك يا عماه وأحترمك وأسمع كلامك

ـ بوركت يا بنية ! فأنا بمقام والدك ـ رحمه الله ـ وتأكدي أنني لست طاغية أو جبارا في الأرض ولا أنكر هذه العواطف والهوى بين الناس ، وسمعت كل ما قلتيه لأمك ، فقلت لها مقترحا أن تتصلي به ويأتينا لنتـفاهم ونتـفق بعدما نتعارف .. فأنت ابنتنا كما أنت ابنة أنعام .. وأعلمي أن

أحق شخص له الموافقة على زواجك إخوة أبيك أو جدك والد أبيك .. فهؤلاء هم أولياؤك الشرعيون .. ولكن سؤال بسيط خطر على بالي .. هل يعلم هذا الفواز أنك تصلين ؟! اصدقيني القول ؟

فقالت : لا أدري .. ولكن أخته منالا تعرف عني ذلك ولا بد أنها حدثته عن ذلك .. ولكن لماذا هذا السؤال ؟

ـ فالصلاة مهمة جدا في حياتنا كما تعلمين ، وهي أهم وأخطر من اللباس .. فبعض الناس من الفساق وتاركي الإسلام وراء ظهورهم ينـفرون ممن يصلي ويصوم ويذهب للمسجد ، فقلت ربما لو عرف أنك تصلين لابتـعد عنك .. فعلى المرء أن يتأكد من عواطف الناس نحوه في أحيان كثيرة .. وأنا قلت لأمك أن تتحملينا شهرا أو شهرين .. فإذا الرجل يودك ويرغب بك شريكة حياته سيديم جسور الوصل والاتصال معك .. لأن البعد ينسي العواطف المزورة يا سهام .. فأنت بالخيار ، أخبريه بموافقتنا على مقابلته والجلوس معه والتعرف عليه .. أو تتركين الموضوع إلى حين من الزمن .. فكري بما قلت .. سامحيني يا بنيتي عما نسببه لك من ضيق وحرج .. تحملي هذه الظروف والفرج قريب

فشكرته سهام وقد تناولت يده وقبلتها وهي تقول : أعرف أنك سيد فاضل .. كريم .. إنسان رائع .. أعرف حرجك من خلعي لهذا الجلباب ؛ ولكن يا عماه لا تلمني قد تعودت على السفور والتبرج ، وقد مرت عليّ هذه السنة والنصف كأنني اصعد جبالا شاهقة ..

الموت لا مفر منه

بعد اللقاء الصريح البين بين عمري وبنت زوجته انعام الآنسة سهام، تشجعت الفتاة وتحدثت مع منال وشقيقها فواز بالهاتف ، ورحب فواز بلقاء زوج أمها واستعد لهذا التعارف ووعدها أن يتصل بها ليحدد يوما للتعارف ، وقد حدث ـ قبل أن يتصل فواز هاشم بسهام لتعيين يوم للتعارف بأهلها ـ أن تلقت أسرة عمري هاتفا من الدكتور سمري ناصح الخابي المغترب منذ عقود في أمريكا ، وكان الاتصال يطلب من عمري السفر لأمريكا لأن والده يريد مشاهدته قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة ، لما علم عمري بذلك تحدث مع سمري على الرقم الذي تركه لهم وكانت ممرضة ناصح قد أخبرت عمري بسوء حالة والده قبل اتصال أخيه ، وقد ذكرنا سابقا أن عمريا قد كان يتصل بها بين الحين والآخر .. حصل عمري على التأشيرة لدخول أراضي الولايات المتحدة الأمريكية ، لم يكن ناصح الخابي يعالج في فيرجينيا حيث يعمل ويحيا سمري إنما كان يعالج في ولاية تكساس الجنوبية وقد دفع آلاف الدولارات للدواء ولإعادة الصحة فلم ينفع ذلك ، تتحسن أحواله أياما ثم تنتكس أحيانا أخرى ، قضى أغلب تلك الأيام على أسرة المستشفيات الأمريكية ، أمواله الكثيرة لم تمنع من تدهور صحته وانحداره نحو الموت .. أخبر بهذه الحقيقة .. ظهرت على بدنه آثار الكحول والدخان والمعاصي ، فطلب سمري وطلب منه أن يرسل وراء أخيه عمري ، أتى سمري بعد حين من الأيام وسمع من أبيه كلاما قاسيا وجارحا ، وأخبره أنه سيحرمه من الميراث ومن أمواله إذا لم يأخذ إجازة ويظل هذه الأيام عنده فوق سريره .. بداية لم يكترث سمري لهذا التهديد ؛ ولكن سيزانا حثته على البقاء بجوار أبيه حتى يلفظ أنفاسه الأخيرة .. وتيسر سفر عمري إلى أمريكا فدخل تكساس بعد أيام قضاها في السفر ، ذهب إلى المستشفى الراقد فيه ناصح الخابي يتلقى العلاج والعناية الطبية ، وجد الأب عودا أو هيكلا عظميا ، لقد ذابت اللحوم والشحوم ، والتقى الأخوان عند سرير الأب المريض بعد أكثر من عشرين سنة ، فتح الأب عينيه على عناق الأخوين فهمس الأب الواهن : عمري !

حيا عمري الممرضة الخاصة ، وانحنى فقبل جبين أبيه والدموع تنسكب على خديه وقال

بحرقة وتأثر : كنت أتمنى يا أبتي أن أراك وأنت قويا وفي غير هذا الظرف والحال

أشار الأب لسمري والممرضة بالابتعاد والخروج من الحجرة ، وقال بصوت واهن : أنت قتلتني تخليت عني .. اخترت أمك

فقال عمري الباكي : لا تتعب نفسك بالكلام والعتاب .. دعوت الله أن ألقاك يا أبي قبل أن نفارق هذه الدنيا الفانية العاجلة .. ولكن لم أحب أن يكون اللقاء في مثل هذه الحال والظرف

ـ كرهتك يا ولدي بقدر ما كنت أحبك .. تمنيت موتك .. ودمارك ، غرت منك وآلمني نجاحك الكبير .. كنت أنا ناصح الخابي خائفا منك .. لا أريد قربك .. أردت توريطك في المخدرات لتعود إليّ ذليلا مهانا صاغرا .. أنا الذي أحببت خسارتك فأغرقت أسواق الريحانة ببضاعة معدومة

ـ أنت فعلت ذلك ؟! لماذا فعلت كل ذلك يا أبي ؟ !

ـ حسدت نجاحك بدوني ، حسدت استغناءك عن ثروة أبيك .. حسدت إيمانك ، وخشيت أن تبعد عني امرأتي الفاجرة المومس التي ابتليت بحبها ، فخشيت إن تصالحنا وتتعرف عليها وأحوالها أن تفرق بيننا وتعيد إليّ مريم .. الملعونة .. ولكني طلقتها قبل سفري الأخير بساعات تزوجتني لأكون غطاء لفجورها .. هذا كنت لا أريدك أن تعرفه عني يا ابن مريم .. والآن ما أخبار أمك ؟

ـ إنها في أيامها الأخيرة ..سامحها يا أبي

ـ وأنا في ساعاتي الأخيرة .. لما علمت أنك تعيش في الريحانة ، وكان ذلك بعد رحيل قمرية جن جنوني .. ولما علمت بنجاحك الكبير هناك فقدت عقلي ، وصممت على تدميرك لتعود إليّ ذليلا ، ففشل أعواني بتلبيسك قضية المخدرات .. نظافتك حمتك وكثرة مشاريعك حمتك من ضرب الأسواق في الريحانة .. وأما الرصاصات التي أطلقت على بيتك .. لم نقصد بها قتلك .. إنما كان ذلك لإزعاجك والتشويش عليك .. وخطف الرجال ابنك حسنا لإيذائك وقذف الرعب في قلبك .. فلما علمنا من أهل بيتك بسفرك أعادوا الصبي .. وأنا أرسلت وراءك لأقل لك كل هذا وغيره .. ثم أقول لك نم هادئا .. فقد هلك عدوك .. واغفر لأبيك الحسود الحقود

وقل لأخواتك أن يسامحنني .. وكذلك أولادكم لم أسمح لهم برؤيتي ومقابلتي رغم سعيهم المتكرر لذلك .. كنت أنانيا ومتكبرا ومحبا لنفسي وكارها لكل من يقف في طريقي ولا يرضخ لحمايتي .. قل لأمك أن تسامحني يا عمري .. ولو بنيت عن روح والدك مسجدا لعل الله يقبله ويغفر له ذنوبه التي لا تحصى .. كم من الناس أفسدتهم ،كم من البنات أفسدت ، كم شربنا من الخمر .. أهلكت عمري في الفجور والشرور .. واعلم الآن وأنا أموت يا ولدي أن زوج أنعام التي زوجها لك أخي ناجح أنني أنا السبب في قتله .. لـقد اكتشف بعض الوثائق الخطيرة وأراد اللعين ابتزازي .. فدبرنا التخلص منه ..

فكان عمري مدهوشا ومصعوقا لم يسمع؛ ولكنه يدرك أن هذا اعتراف مودع فهمس رغم شدة الكلام : هل كان عمي ناجح على علم ؟

ـ ناجح ليس بالرجل الحازم الفطن ، فهو كابنه صابر ينفذ ما يؤمر به ؛ ولكنه شك فيّ ولزم الصمت ؛ وهو ضعيف أمامي .. هو يعرف غضبي وسطوتي .. وجرائم كثيرة ارتكبتها يداي خلال كل هذه السنوات .. هل يغفر ربك يا عمري ؟!

ـ نعم إنه يغفر .. يغفر كل شيء إلا الكفر

ـ أمعقول هذا ؟!

ـ معقول ونصف

ـ عمري أريد أن تظل بجواري حتى تفيض روحي ، فالأطباء لا يرون أن بقائي سيطول فالأورام انتشرت في جميع البدن ، وضعفت الأدوية عن أداء مهمتها

ـ سأبقى بجوارك يا أبي .. رغم ما أسمع منك من الأهوال والذنوب .. واستغفر ربك وتب إليه وأكثر من قول لا اله إلا الله محمد رسول الله ، لـعل الله يرحمك ويختم لك بها .. سأتركك تستريح الآن وأذهب للحديث مع سمري

ـ المهم ألا تسافر قبل موتي .. أنا أرسلت وراءك لأقل لك هذه الحقائق التي فعلتها معك ليهدأ بالك ، وتتابع مسيرتك وأنت مطمئن .. وسأقول لك الكثير في يوم آخر حتى لا يستغلك الرجال الذين تآمروا معي خلال السنوات الهالكة ، وتكون على حذر منهم .. سيدعون أشياء

كثيرة فلا تصدق إلا ما أتفوه به

ـ سامحك الله يا أبي .. لم يخطر ببالي أنك سبب كل الأذى الذي لحق بي وإن أشارت أمي ذات مرة إليك ، فقد قالت قد تكون هذه أفعال أبيك فاستغربت من قولها فهي قد صدقت

ـ إنها تعرفنني ، وتعرف ماذا أفعل إذا حقدت على شخص أو كرهته ؟ سلم لي عليها إذا أدركتها حية كما تقول .. انصرف وعد غدا .. ودع رقم هاتف الفندق الذي تنزل فيه مع الممرضة وعند استعلامات المستشفى

لم يكن عمري يتصور في يوم من الأيام أن أباه بهذه الوحشية والإجرام ، فهو كان يسمع عن قسوته وشدة معاملته لموظفيه وخصومه ، وكان يظن أن ذلك من طبيعة العمل ، ثم سافر لبريطانيا للدراسة ، فلم يعد يسمع جنون وطيش أبيه والتهى بالمدنية الغربية ، ولما رجع بعد الدراسة وقضى معه خمس سنوات ، لم يكتشف خلالها شيئا مخيفا في حياة والده لعدم اهتمامه بحياة وأسرار والده ، وأمه لم تكن تتحدث بشيء من ذلك العنف ، أو أنها تجهل ذلك كله ، أو تراه تنافسا بين أفراد ورجال شركات ، ولم يطفو منه شيء على صفحات الجرائد والصحف ثم هربه وخروجه من حياة الأسرة واجتهاده في بناء بيئة جديدة .. فلذلك لما عاد للفندق بما سمع من اعترافات ناصح كان مصدوما ومذهولا، وإن بدا متماسكا أمام الرجل المحتضر ، فذرف الدمع الغزير .. فقد رآه وحشا هائلا ، أو لا يعي ما يقول ، ولكن الأحداث التي جرت معه كقضية وضع المخدرات في مخزنه المهجور تدل على عقلية إجرامية ماكرة .. وكذلك إغراق الأسواق ببضائع زهيدة الثمن للانتقام يؤكد صدق الاعترافات ، وأن له يدا ومعرفة بذلك .. ويدل على ذكاء وتخطيط وتفكير .. وإطلاق الرصاص عليه في البيت .. هل هو صادق بأنه لم يشأ قتله إنما أراد تخويفه كما ادعى ؟ .. الواقع يدل على صدق هذا الادعاء ، وخطف الصبي بضع ساعات لماذا كان ؟ .. فحسن يذكر أنهم لم يتحدثوا معه .. فيبدو أنهم كانوا يرغبون بكسب المال تعويضا لخسائرهم في المخدرات والبضائع وإرهابنا .. وهمس وأنا متألم لمقتل زوج أنعام ابنة عمي .. آه ما أقساك يا سيد ناصح !.. تمزق قلب عمري وهو يسمع ويكرر هذه الاعترافات بين حناياه وفؤاده .. وأدرك أن أباه لم يحن للصلح والمصالحة وإنما أرسل وراءه من

أجل هذه الاعترافات الرهيبة ، وتمنى أنه لو لم يأت لسماع هذه الأخبار المخيفة .. وحمد الله أن أنـقذه من هذه الظلمات ، ولم يكسب عن والده شيئا من طباعه وإجرامه .. وقد اغتم قلبه وحزن حزنا شديدا وهو يتأمل بكل ما سمع ، ودهش من وحشية بني آدم .. ما أقسى الإنسان ! وما أصبر الرحمن على هؤلاء العصاة الأشرار ! .. فكر بالهرب والعودة قبل سماع المزيد ؛ ولكنه رأى توسل رجل يحتضر ، وهو أبوه رغم كل هذا الإجرام والوحشية ، ولما آفاق من ذهوله سأل في الفندق عن سمري ، فقيل له إنه غادر إلى فيرجينيا وسوف يعود .. قضى عمري الساعات ساهما حزينا ذارفا للدمع وداعيا إلى الله أن يغفر لأبيه العاصي الفاجر وقال بألم شديد : يا ليتني لم آت إلى هنا لأسمع هذه الاعترافات المرعبة ..

ولما ذهب في اليوم التالي للمستشفى وجلس بجوار أبيه ، وقد تظاهر أمام والده بالثبات والصبر ولكن والده قال له : لا تحزن يا عمري على ما سمعت من سيرة والدك المحتضر فأنا كنت في غابة كلها وحوش ، فكان عليّ أن أصير وحشا مثلهم وإلا أهلكوني ، ولما درست أنت في بريطانيا ، ولا درس أخوك في أمريكا ، ولما سكنت في فيلا كبيرة ، ولما ركبت سيارة أو طائرة ولما احتضنت فتاة أو خائنة ، ولما أحنت لك الرؤوس رأسها ..اغفر لأبيك يا عمري .. كنت أريدك أن تكون مثلي وحشا إنسانيا ؛ ولكنك نجوت وعرفت الطريق فتولاك مولاك .. وانتصرت على أبيك وعلى أفكار ابيك .. وكسبت كل من حلق حولك .. كنت أعجب من أفعالك والتفاف الخيرين حولك .. كنت أرى أن كل الناس شر وشياطين ولا خير في الدنيا .. إنما هي صراع وقتال ومال وقوة .. قتلتني من الداخل بنجاحاتك .. هزمت مبادئي التي ترعرعت عليها وشبت عليها .. أدركت أنني كنت أعيش على الوهم والمرض والشهوة .. اغفر لأبيك جنونه ووحشيته .. سلم على بدرية وقمرية وكل أحفاد ناصح محمود الخابي .. لا تبكي أمامي أنا أبغض الضعفاء

ـ اسأل الله أن يغفر لك ، هو وحده غفار الذنوب .. سوف أسلم لك عليهم .. إنهن بشوق إليك وحمّلنني كثيرا من السلام والتحيات .. غفر الله لك يا أبي ! ما كنت أعرف كل هذا الشر عنك

ـ ألم أقل لك إنك نجوت ؟ ارسلت لبلاد الانجليز لتكسب جبروتهم وقسوتهم وطباعهم الانجليز حكموا العالم مع قلة عددهم .. كنت أريد أن ترث كل شيء عني ؛ ولكنك فلتّ بسبب تلك الفتاة .. وبسبب ذلك الجامع الذي أنشي قريبا منا

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله

كان عمري لا يحب سماع اعترافات أبيه وهو متضايق من معرفة المزيد ؛ ولكن الأب عندما يراه لا يحلو له إلا الحديث عن قبائحه وسيئاته، كم امرأة أفسدها على زوجها ! كم رجل تخلص منه إما قتلا ذكيا أو إعاقته ، كم امرأة ادعى حبها وضجر منها ! كم عملية احتيال ونصب مارسها فوجد أو اكتشف في هذا اللقاء الذي كانت تهفو نفسه اليه منذ سنوات طوال أن أباه كتلة شر ، وأن الثياب الجميلة البراقة التي يرتديها كانت تخفي وراءها إنسانا شريرا ثعلبا ماكرا .. ذكر أمامه أسماء مديرين وموظفين وموظفات تعاونوا معه .

قضى عمري شهرا صعبا علقما ، كل جلسة عند سرير أبيه يتجرع فيها سما زعافا ، فما صدق أن لفظ الرجل أنفاسه الأخيرة .. لـقد أوهى قلبه ومزق روحه بما أفاض أمام ولده من الاعترافات والغدر والخيانات .. فاستعان ببعض المسلمين الموجودين هناك ، وقام بما يلزم الميت المسلم ، وقد سوى حسابات المشفى ، ونـقد الممرضة أجرها وصرفها للبلاد ، وأرسل لأخيه سمري برقية يعزيه بأبيه ، وبعد أيام قليلة ركب الطائرة عائدا لبلاده ، وهو يحمل هموما كالجبال من الصفحات السوداء التي قدمها والده بين يدي الله .

خطبة حسن

قبل أن يحط عمري قدميه في بلاده تلقى وهو في إيطاليا نبأ وفاة أمه منذ أيام ، كان عمري قد نزل إيطاليا ليقضي فيها أسبوعا من الاستجمام والراحة ، ولما استراح من تعب الطائرات اتصل بالبيت فأخبر بالخبر ، وأنهم اتصلوا بالفندق بتكساس ، فعلموا أنه قد غادر الفندق ، فتـقبل تعازي الأسرة واسترجع وذكر دعاء مصيبة الموت ، وأخبرهم بدوره بوفاة والده ودفنه هناك في مقابر الجمعيات الإسلامية ، وحدثته زوجته زينب بعدما عزته بوالديه أن الدكتور يوسف حسان قام بكل إجراءات الدفن والعزاء ، وحثته على البقاء حيث هو ليريح أعصابه قبل نزوله المدينة ، فشكرها واثنى عليها وعلى الأخ يوسف حسان صديق الريحانة والمشاريع ، كان تعب عمري الحقيقي مما سمعه من أقوال أبيه ، فقد قتله في أحلى اللحظات التي ينتظرها من مصافحة ومعانقة والده ، استدعاه ليقول له تلك الصفحات السوداء من حياته ، وكان السؤال المهم ماذا يفعل من أجل أبيه ؟ممن أساء لهم أبيه ؟هل يفتح دفاتر أبيه وملفاته العتيقة ؟ فوجد أن الوضع مـعقد وبعض القضايا مضى عليها عشرات السنين .. فقضية زوج أنعام ماذا يستطيع أن يفعل إن نبشها ؟ أبوه لم يتحدث عن تفاصيل الحادثة .. ولماذا ؟ ! وما هي الأوراق الخطيرة التي عجلت بقتله وتدبير مكيدة له ؟ ! .. وبعد نظر وتدبر وتفكير عميق رأى أن أفضل حل لما سمع أن ينساه .. فالاعترافات وحدها لا تكفي .. أين هم الذين شاركوا في هذه الجرائم ؟ الأعوان مسؤولياتهم التفصيلية ، هل هم عصاة لليوم ؟! أم تابوا بعد ذلك ؟ أم هل هم أحياء ؟ .. ليس هناك تفاصيل واضحة أستطيع الاستفادة منها .. ذكر أسماء رجال أحياء وأعوان ونساء مجهولات .. ولكني لا أعرفهم شخصيا .. فليس من السهل نبش أي قضية .. فبعد عشرة أيام من التفكير والتدبر والنظر اتخذ قرارا مهما وحاسما ، وهو عدم فتح ملفات الماضي وتسليم أمرها لله ؛ ولكن إن صدف والتـقى بضحية من ضحايا أبيه سيحاول التكفير عنه .. وسينفذ وصية والده ببناء مسجد عن روح والده ، فبعدما انشرح صدره لهذا الرأي نزل البلاد ، وما كاد يجلس في البيت حتى أقبل الأصدقاء والمعارف لتعزيته في والديه ، فتقبل التعازي وقدم الشكر لصديق العمر الدكتور يوسف حسان وولديه على ما بذلوه من جهد على جنازة أمه من غسل وتكفين

ودفن والقيام بواجبات الميت ، وقدم الشكر لسكرتيره العتيد احمد ، ولأخوة زينب ولصديق العمر الأخ حسن ، ومكث عمري أياما يتقبل عبارات المواساة والصبر في البيت وفي العمل .. ثم شرع بتصفية شركات أبيه ، وحصر أمواله لتسديد ديونه وتنفيذ وصاياه وتوزيع ميراثه ، وعرضت عليه البنات ضم شركات أبيه إلى شركاته فرفض ، وقال : يجب أن يعرف كل وارث حقه وحصته

وأيضا لم يرض بشراء أي شركة أو مصنع من مصانع وشركات ناصح الخابي ، فكان يرى أنها مغموسة بالظلم والدم والحرام ، فكلها عرضت للبيع أو التصفية ، وكذلك تم حصر ثروة أمه ودفع ما عليها من ضرائب ومستحقات للدولة ، وتم توزيعها على الورثة للذكر مثل حظ الانثيين ، وتم تحويل حصة سمري إلى أمريكا الذي أعادها لعمري معتذرا عن قبولها ، وطلب منه أن ينفقها على مشاريع خيرية عن روح أمه ، وحثه على التعجيل بحصر ثروة أبيه وارسال حصته له ، فوعده عمري خيرا .. وقبل أن ينتهوا من حصر ثروة الوالد وتصفية شركاته قام بتشييد المسجد عن روح والده من ماله الخاص ..

وذات مساء عاد مبكرا للمنزل ، والتقى بسهام في حديقة الفيلا فحياها ، وجلس يتحدث معها ويسألها عن صحتها وأخبارها ، ورغب أن يدخل السرور على قلبها ، فسألها عن فواز ، فاستغربت ذلك السؤال واعتقدت أن وقته غير مناسب ، فقال باسما : الموت والأحزان لا توقف الحياة يا حبيبتي ! فأنا كما أفكر بنفسي أفكر بكل من هو في فلكي ، وصدقي أنك لم تغيبي عن بالي خلال هذه الشهور التي انقضت ، وأنا في أمريكا وإيطاليا وهموم الإرث وبيع أموال أبي وأنا ما زلت انتظر اللقاء

فقالت بحياء : لقد تحدثت معه قبل سفرك الأخير ، ولما اتصل بي لتحديد موعد لم تكن أنت هنا ، ورفضت أمي مقابلته بدونك .. فاضطررت أن أشرح له الموقف وأعتذر له

فقال : لا بأس .. خيرا إن شاء الله ! .. ألم يعلم بمجيئي بعد ؟ فإذا كان الشاب راغباً بك زوجة سيتصل ثانية وثالثة .. أو اتصلي به

فقالت : أخبرت منالا بعودتك .. لا تتعب نفسك معي يا عمي

ـ يا بنية هذا واجب ، نحن يهمنا سعادتك واقترانك بشاب يحبك لتدوم الحياة الزوجية .. فالحب الحقيقي سلاح يقضي على كثير من المشاكل الزوجية ، فتوكلي على الله سبحانه ولا تحملي الهموم والنكد من الآن

وبينما هما يتحدثان أقبلت نحوهما أنعام ـ فإنها لما سمعت أن زوجها يجلس في الحديقة مع ابنتها لبست ثيابها ، وخرجت إليهما ، وقد تبعتها الخادمة بفناجين القهوة ـ فرحبوا بها وقالت أنعام لما أخذت موقعها وجلست بالقرب من عمري : سهام تحبك كثيرا يا عمري ! .. وترى أنك في هذه الشهور عوضتها عن رعاية الأب وحنانه ، وهي معجبة بثباتك وعدم جزعك وعدم تظاهرك بالمبالغة بالحزن رغم وفاة والديك في زمن متقارب ، فهي تذكر ما حدث عندما مات جدها ناجح ، وما فعلنا من اللطم والصراخ والبكاء والحداد ؛ ولكن عندما ماتت الحاجة مريم - رحمها الله تعالى وغفر الله لنا ولها ـ لم يظهر صراخ في البيت وعويل وندب ، فقد كانت زينب سيدة الموقف .. حزن ودموع وبكاء هادئ ، وبالمثل فعلت بدرية وقمرية والبنات ..لم يفعلوا كما فعلنا من النوح واللطم .. فقلت لها يا بنية هؤلاء قوم مؤمنون يتحرون السنة ، سنة النبي ﷺ في أفعالهم وأقوالهم ، وذكرت لها قصة حزن النبي ﷺ على وفاة إبراهيم ابنه ، وموت ابن ابنته ﷺ ، وعمه حمزة رضي الله عنه ، وأن الصراخ والبكاء المرتفع من فعل الجاهلية ، وأكثره نفاق ومجاراة ومماراة أمام الآخرين .. فقد سرت من ذلك التواضع وعلقت يومذاك الحزن في القلب هو الحزن الحقيقي

قالت سهام كأنها تذكرت ذلك الحديث : أجل يا عمي !.. الحزن حزن القلب ، وإن يظهر على الوجه بعضه ، ولكن هل هذا الحزن حقيقي أم وهمي متكلف ؟ ولما حضرت وعزيناك كنت طبيعيا لم تظهر أمامنا بحزن مزيف وأنك وأنك ..

فابتسم عمري وقال معجبا بكلامها : دقيقة الملاحظة يا بنية .. فأنا بكيت أبي هناك ، وفي إيطاليا بكيت أمي إن العين لتدمع وإن القلب ليحزن ولا نقول ونتكلم إلا بما يرضي الله سبحانه .. فالإنسان عارية مستردة .. كتاب مؤجلا ففي فعلنا الصواب نأخذ الثواب والحسنات ، وفي اللطم وضرب الخدود وقد الجيوب نأخذ السيئات ، ونؤلم الميت ، ونتشبه بأهل الجاهلية .. فأيهما

خير ؟ .. أنا قلبي ممزق على أبي الضال يا سهام ! كنت أتمنى وأحلم ليلا ونهارا أن أراه مهتديا تائبا .. فأمامنا درب طويل بعد الموت .. وهذا الدرب يحتاج لزاد ، وخير الزاد التقوى، ويتحصل عليه المرء في سنوات هذه الدنيا ، فالتزود بالتوبة وهدي نبينا محمد ﷺ سيساعدنا على قطع الطريق ، والنجاة من النار ، وأنفاس النار، والموت غاية ونهاية كل كائن حي .. وفقك الله يا سهام الطيبة وأطال الله عمرك

رعش قلبها لكلمات عمري الدافئة ، وتمتمت الفتاة بالشكر ، وقالت أنعام : أخبرتني أمي أن السيدة نوالا قد رفعت طلبا للقاضي بطلب الطلاق من زوجها نادر ، وقد غضب صابر منها لو تتدخل يا ابن العم يا أبا محمود

فقال عمري : طلاقها خير لها يا أنعام ! عمي كان يمنع ذلك ، ولا يريده لاعتبارات الصداقة الحميمة بينه وبين والد زوجها .. والرجل ليس ممن يتاجر به ..

ـ والله لو تسمع هذا الكلام لتتـعلق بعنـقك وترحل إليك وتأخذك مني

فضحك عمري وسهام ، فهم يعرفون تعلق نوال القديم بعمري ، فقال : لا تخافي إنها لا تحل لي .. لا يجمع بين أختين في إسلام .. ولكن لعلنا ننـقذها من ذلك المخمور .. ساعديها يا أنعام وليتركها صابر تفعل ما تشاء .. أبوه وقد مات ، وابنها قد كبر ودخل الجامعة ، وهو لا يحبها ، وهو يعيش مع عماته وجدته

فقالت سهام : هذا رأيك يا عمي ؟

فقال ملتفا إليها : رأيي ورأي الشرع .. فالشرع إذا كان الزوج فاسقا يحق للمرأة أن تطلب التفريق إذا خشيت على دينها ونفسها .. ثم هي ليست المرأة الوحيدة في حياته ، فله كثير من الخليلات وبنات الهوى .. فهؤلاء المتغربون للأسف لا يرون الزنا عيبا وذنبا وعارا بل هو متعة ولذة منشودة .. المهم موافقة الطرفين على الفاحشة

ـ شيء مقرف ومهين

فقال عمري : لكل ذي لب وعقل كبير ، وأما من يحيا حياة الحيوان فلا .. حتى أن بعض الحيوانات تأبى ذلك .. فطلاقها خير لنفسها ولدينها .. وهي تبغضه وتراه جلادا لها .. تحدثي

يا أنعام مع صابر وانـقلي له قولي ورأيي .. فأنا مشفق عليها

فقالت أنعام : إنني أغار من هذا الكلام .. أخشى أن تسلبك مني

فقال عمري مستنجدا بسهام : اسمعي أمك يا سهام ! .. ويحك ! .. كبري عقلك فنوال أكبر منك وقد تجاوزت الخمسين على ما أظن .. فهل يطمع فيها رجل ؟!

كانت سهام تبتسم وهي تسمع أمها وزوج أمها يتحدثان أمامها بهذا الكلام ، وعادت أنعام تقول : كلما التـقي بها تقول لي سرقت عمريا مني ألم تكوني تعلمين أنني سأصل إليه ولو آخر يوم في عمري فقالت سهام : والله يا عمي إنها تتكلم بذلك ، وتكرره أمامنا بدون خجل أو حياء

فقال : الكلام ليس له ثمن .. أنا أنعام رغم معزتها في قلبي كنت أخجل أن أتقدم إليها كزوج ولولا وصية عمي ناجح لما تجرأت على الزواج ثانية .. فأنا أخاف النساء

فقالت أنعام ضاحكة ضحكة قصيرة : يبدو أنك فعلا نسيت سنوات المراهقة ولندن ومرسيليا

فقال ضاحكا : أيام جاهلية وجهل .. أسأل الله أن يعفو عني كنت ابن أبي .. ما أروع طهر الإسلام يا أنعام ! ونظافة الإسلام وعفة الإسلام !

وقضى الثلاثة سهرة ممتعة في حديقة الفيلا ، بل طلبوا العشاء فيها، فحضر باقي أفراد الأسرة ومعهم السيدة زينب ، وسمروا وانبسطوا بتلك الجلسة العائلية ، ولما رأت زينب حبور القوم وسعادتهم ، وقبل انقضاء السهرة العائلية وانفضاضها ، أحبت أن تزيد الفرح بينهم ..

فقالت فجأة وبدون تمهيد : يا أبا محمود .. ابنك حسن راغب بالزواج

التفت الجميع لزينب وقالت أنعام : حسن .. أين حسن ؟ وكانت تبحث عنه ، فلم يكن حسن موجودا ، وبينما أنعام تبحث وتتسأل عن حسن ، نهضت ابنة أنعام الصغرى الآنسة ريهان مغادرة ـ وهي تنظر لامرأة زوج أمها بنظرات فيها تهديد خفي باسم ـ فقالت زينب مخاطبة لها وهي تبش في وجهها : أين يا ريهان ؟ !

فقالت والخجل يملأ وجهها : سأقضي أمرا في البيت السلام عليكم

كانت أنعام تنقل نظرات عينيها بين زينب وريهان وأحست أن بينهما كلام فقالت لزينب بهمس

: ما الأمر يا حبيبتي ؟

فقالت زينب هامسة : الآن ستعرفين الأمر

فلما عاد الهدوء للمجلس بعد انصراف ريهان ، قال عمري : يا زينب لم تكملي كلامك عن حسن.. هل حقا صارحك عن رغبته بالزواج ؟ .. هل بلغ ثمانية عشر ربيعا ؟

فقالت : هكذا سمعته يحدث خاله حسنا وهو يقول يا خال علمت أنك تزوجت صغيرا قبل أن تبلغ العشرين سنة هل صحيح ذلك ؟ فضحك أخي حسن وقال أتريد الزواج يا حسن ؟ فقال حسن الصغير بدون تردد نعم يا خالي ! .. عسى أبي أن يزوجني فقال أخي حسن عاشق يا خال ؟ من هي سالبة لبك ؟!

فقال عمري : وهل أتى حسن اليوم ؟

فقالت أجل أتى ومعه زوجته وبعض الأولاد وانتظرناك على الغداء ؛ ولكنك اعتذرت لقيامك بزيارة مريض كما قلت في المستشفى .. كيف حال مريضك على ذكره ؟

بخير إن شاء الله .. عامل سقط عليه قضيب حديد فشج رأسه ، ووضعه مؤلم ومحزن ولكن الطبيب أخبرنا فقال : إنه تماثل للعافية وزالت مرحلة الخطر .. ونسأل الله سبحانه أن يشفيه ويذهب البأس عنه والأمر بيده سبحانه .. آ .. أكملي من هي معشوقة الشاطر حسن ؟ !

فعادت زينب تقول : فلما أقر حسن بذلك أمامنا صراحة قلت له والله يا حسن كبرت وصرت تفكر بالبنات والزواج .. أخبرنا من هي فتاة أحلامك ؟! ـ ثم نظرت لإنعام نظرة ضاحكة التي قالت ضاحكة: ويحك !

زينب تضحك ثانية وهي تقول ريهان .. ريهان يا أبا محمود !! ؟

وأكدت زينب بابتسامة رقيقة : نعم الآنسة ريهان

فأخذت الفتيات بالتعليق الهادىء على هذا الحدث اللطيف ، وقالت الطبيبة عائشة التي أنهت دراسة الطب وتستعد للتخصص : هذا آخر خبر أن تدور في الفيلا قصة حب ونحن نائمون

فقال محمد وهو صبي أصغر من حسن : لا تظلموا القوم .. حسن يحافظ على الفروض ، وكذلك ريهان ؛ ولكن بينهما انسجام وإعجاب

فقالت زينب بجد : لم أغفل عنه يا عمري ! فهو ابنك وتربيتك ، وحسن طيب ، وهو كما قال محمد أصابه ميل لريهان ، فقال لي : يا أمي زوجوني من ريهان أنا قلبي يميل إليها وهي لا ترفضني .. فقلت له يا ابني أنت ما زلت صغيرا على الزواج غدا لما تدخل الجامعة سوف تقابل بنات أخريات فقد يتغير هواك فاصبر ؛ ولكنه مصر على حب ريهان ، فقلت أكشف لكم الأمر قبل فوات الأوان وهو من أجل ذلك رفض أن يشاركنا العشاء ؛ لأنني قلت له سأخبر أباك ، فقال أخبريه وأرجو أن يوافق .. ومن أجل ذلك انسحبت ريهان الجميلة غاضبة مني ..

فقالت أنعام ضاحكة : والله يا حسن ! أليس هذا الولد الذي خطف صغيرا يا زينب ؟!

فقالت زينب : بلى .. وهو لليوم لا ينسى ذاك الحادث

فقال عمري لنفسه وهو يسمع ذلك : كيف لو يعرف ويدري أن جده هو الذي خطفه ؟! وأن جده شارك في الخلاص من والد الفتاة التي يهواها .. يا لله من هذه الدنيا !

وقالت زينب : أين سرحت يا أبا محمود ؟

فقال : نعم الفتاة ريهان .. وهذا الأمر يعود لها ولإمها أولا ، وقبل أن نتوسع في ذلك ننتظر حتى نتهي من موضوع سهام الغالية .. وقد نكتب كتابهما الشرعي إذا رغبا بذلك ، ونؤجل الزواج بعد انتهاء امتحان الدراسة الثانوية فقد بقي بضعة أشهر للامتحان النهائي أليس كذلك يا عائشة ؟

فردت عائشة : بلى .. والله يا حسن تريد أن تصبح عريسا وزوجا !

فقال عمري : والله يا ابنتي كان الناس قديما يزوجون أولادهم صغارا ، وكذلك بناتهم ؛ ولكن أحوال الناس في هذا الزمان وخصوصا أهل المدن تختلف عن ظروف وأحوال ذاك الزمان ، وكذا تختلف أحوال أهل البادية والقرى عن أهل المدن .. والتعلم والجامعات والمال والمهور كل ذلك يؤخر سن الزواج هذه الايام

فقال محمد وهو ينهض : سأذهب لأبشر حسنا وريهان ، فلابد أنهما يجلسان في المكتبة ينتظران النتيجة

فقالت زينب : لم نسمع رد أم سهام بعد ؟

فقالت أنعام باسمة : ويحك يا حبيبتي !.. لقد قلتم وفصلتم فهل يبقى لي كلام ؟ .. والكلام الأول والأخير للبنت ثم عمها عمري .. أما أنا فأقول إذا كان لها رغبة بالزواج ومؤهلة لذلك تتزوج .. فريهان لا تحسن صنع كوب من الشاي أو فنجان من القهوة

فقالت أحلام ضاحكة : ولماذا تصنع الشاي أو القهوة يا أمي والشغالة أم احمد موجودة ؟ ثم تتعلم .. فامرأة عمي ماهرة في الطهي فسوف تلقنها ذلك .. عقبال عندي يا أمي

فقالت عائشة بعدما ضحك القوم على تعليق أحلام : لا تخافي يا حبيبتي ، سوف يأتي العريس وفارس الأحلام .. فابن عمتي بدرية ينتظر إنهائك الجامعة ليطلب يدك من خاله العزيز ..

فقالت أنعام مقطبة : والله أنا هنا كالأطرش في الزفة كما يقولون يا أبا محمود فقال عمري ضاحكا : وأنا مثلك

فقالت عائشة شارحة خبرها : هو قال لنا ذلك يا أبي ! منذ زمن عندما ذهبنا مرة للريحانة ودعتنا عمتنا بدرية للغداء معهم ، وكانت أحلام معنا في تلك الزيارة ، فلما رآها ادعى أنه رأى أجمل امرأة في العالم

فتبادلت أنعام وزينب وعمري النظرات والابتسامات وتذكروا عباراته الخالدة في زينب أحلى امرأة في العالم ، ثم رسموا على وجوههم الضاحكة ابتسامة أخرى ، وقالت زينب : سنة الحياة سبحان الله ! .. أدام الله علينا العافية والسعادة والنعم وبارك الله لنا في كل ذلك بفضله وجوده فرددوا جميعهم آمين

وانصرفت الشابات إلى حجر النوم ، وظل عمري وزوجتاه يتأملون القمر المكتمل في نصف رجب وتمتم عمري قائلا : من عاش رجب شاهد العجب

رصاص مرة اخرى

بعد تلك السهرة الممتعة لعمري بين زوجتيه وأفراد العائلة بأيام ، حدث لعمري حدث كاد يورده المهالك ، وينتقل به من الدار العاجلة إلى الدار الآخرة ؛ إنها ساعة الأجل لم تأت بعد ، فقد لطف الله وخفف البلاء، ولم تكن ساعة المنية قد حانت .. و للحق فصاحبنا عمري لم يغفل عن هذه الساعة ، فكانت أموره المالية مرتبة أحسن ترتيب ، ووصيته مكتوبة عند رأسه ، فالموت يأتي بغتة ، فالذي حدث كان مفاجأة للجميع .

عند ظهيرة ذاك اليوم عند مكاتب الشركات الرئيسية في شارع قطز في العاصمة الكبيرة والجميلة ، وقف شاب في العشرين من عمره أو دون العشرين سنة على الرصيف المقابل لتلك الشركات ، وكان يضع على رأسه كوفية حمراء ، وعلى عينيه نظارة خضراء ، وبين شفتيه سيجارة وكان يرتدي جاكيتا أسود وبنطالا ازرق ، وأخذ هذا الشاب الصغير يقرأ اليافطات المعلقة حتى شاهد يافطة أو لوحة كبيرة كتب عليها مجموعة الشركات العمرية ، كانت لوحة كبيرة على مساحة من واجهة العمارة الكبيرة ، فانبسط الشاب لما قرأ تلك اللوحة ، وكأنه وجد ضالته التي يبحث عنها ، وادخل البطاقة (الكرت) في جيب الجاكيت ، وتحسس مسدسا يخفيه على وسطه تحت الصرة ، ثم قطع الشارع المزدحم بالسيارات يمينا ويسارا ، وتوقف أمام مدخل العمارة ورفع النظارة عن عينيه وسأل أحد الحراس الواقفين أمام مدخل البناية فقال : هل هذه شركة السيد عمري الخابي ؟

صفن الحارس لحظات قبل أن يرد وقال : عمري الخابي آ .. قصدك عمري محمود الخابي ؟

الشاب : نعم

فرد الحارس متفحصا للشاب : هذه البناية كلها للسيد عمري محمود .. ماذا تريد ؟

تململ الشاب قليلا وقال وهو يخرج الكرت ثانية ويمد به نحو الحارس : هذا كرت باسم الشركة .. فقد أرسلني قريب لمقابلة السيد عمري الخابي لمساعدتي في إيجاد فرصة عمل

فقال الحارس بعد نظره في الكرت التعريفي واعادته للشاب : هنا مكتب للتوظيف .. اصعد إلى الطابق الأول .. واسأل عن مكتب الأستاذ جلال خليل .. خذ هذا الكرت معك

دخل باب العمارة فوجد حارسا آخر يسأله : أين يا شاب ؟ فأخرج الكرت من جديد ـ فكأنه اعتبر هذا الكرت بطاقة هوية ـ وهو يقول : أرسلني قريب لي للعمل هنا في شركات عمري الخابي ، وقال لي الحارس في الخارج أن أذهب لمكتب الأستاذ جلال خليل

فقال الحارس : اطفىء السيجارة يا شاب .. فالتدخين ممنوع في داخل الشركة

طرح الشاب السيجارة في مكان مناسب ، ثم عاد وسأل الحارس : هل السيد عمري موجود في مكتبه ؟ .. فالرجل أرسلني إليه شخصيا ، فأنا يتيم ، وأبي كان يعمل عندهم قديما عند عمه ناجح أبي صابر

فقال الحارس : يا ابني .. اذهب حيث الأستاذ جلال ، وسوف يهتم بك وتشتغل بدون أن تقابل السيد عمريا

صعد للطابق الأول ، ولم يذهب لمكتب الأستاذ جلال ، بل سأل أحد الفراشين عن مكتب السيد عمري فقال له : إنه في الطابق السابع يا ابني

فتركه وركب المصعد إلى الطابق السابع ، وأخذ يقرأ لوحات الغرف حتى قرأ لوحة عليها مكتب المدير العام لشركات ومؤسسات المجموعة .. ووجد صالة فدخل فيها ، فكان فيها رجلان يتحدثان ، فسأل: هل هذا مكتب المدير العام عمري بيك ؟

فالتفتا إليه وقد قطعا حديثهما وقال أحدهما : أجل .. انتظر حتى يخرج السكرتير

كان السكرتير يتحدث مع المدير في الداخل ، والحارس الشخصي كان في دورة المياه تلك اللحظات القاتلة ، وعاد الرجلان للحديث معا ، فقام الشاب بالوقوف أمام الباب لحظات ، ثم دفع الباب بهدوء وأدخل رأسه ، فالتفت السكرتير والمدير إليه وقال السكرتير مخاطبا له : انتظر

ولكنه دخل ولم ينتظر ، وقد أشهر مسدسه ، وهو يصيح وبانفعال شديد : إني قاتلك يا عمري بيك .. فلتمت يا ابن الظالم

وأطلق الرصاص سريعا قبل أن ينهي كلامه ، فأصاب ذراع عمري الذي رمى نفسه على الأرض وفعل السكرتير مثله .. وكان الشاب يطلق الرصاص بهياج وغضب وصراخ وعصبية

وكان الحارس قد عاد لتوه، ففزع لما سمع صوت إطلاق الرصاص ، فدفع الباب سريعا ، ورمى الرصاص على القاتل الذي سقط على أرض باب المكتب ، فهجم عليه الحارس ، وكان عمري رغم إصابته قد ضغط على جرس الإنذار والحماية ، وصارت فوضى في المكاتب ، وتم نـقل السكرتير المصاب وعمري المصاب أيضا إلى المستشفى ، وكذلك الشاب الجريح ، وبدأ التحقيق وكانت رصاصتان قد استقرتا في كتف وذراع عمري ، وأصيب السكرتير برصاصات في فخذه وبعد انصراف البوليس والأمن .. أعاد الدكتور يوسف حسان الأمور إلى نصابها ، وطالب الجميع بالهدوء والانصراف للعمل حتى يعلم رجال الشرطة سبب ودوافع هذا الاعتداء الغادر على السيد الفاضل عمري ناصح محمود الخابي .

نشرت صحف المساء تفاصيل الاعتداء على شخصية السيد عمري في مكتبه الكائن في شارع قطز .. وأعادت هذه الحادثة الذكريات القديمة يوم تعرض بيت عمري في الريحانة لإطلاق الرصاص ، وحادثة خطف حسن ، والكل يتسأل عن سبب هذا الاعتداء ومحاولة القتل الغادرة، فالسيد عمري رجل مشهور بنظافة اليد ، ومعروف بالعطف والإحسان ، وأعماله تقوم على الإحسان أكثر منها على كسب الأموال ، وتوفر فرص العمل للعاطلين ، وتدعم وتمول المشاريع الخيرية والاجتماعية ، فجانب كبير من الأموال يذهب لدور الأيتام والمعوقين والمستشفيات والعيادات الطبية .

وأما بيت الأسرة فكانت الدموع تنسكب من عيون أهل البيت صغيرهم وكبيرهم ، فهل لهذا الرجل الطيب أعداء لهذا الحد من العداوة والبغضاء ؟ .. ولما اتصل بهم الدكتور يوسف ليلا طمأنهم على صحة عمري وصديقه احمد ، وأن فريق الأطباء نزع الرصاصتين ، وأنهما بعيدتان عن القلب ، دب الفرح في قلوب المحبين ، وكثر الدعاء ، ولجأت الزوجتان للصلاة والدعاء والابتهال إلى الرحمن بأن يفرج الكرب عن عبده عمري محمود .. وكانت ريهان تجلس في صالة من صالات الفيلا ومعها أختها أحلام ، وحسن وأخوه محمد وأختهم مريم الصغرى ، فكانت أحلام تقول بحيرة واستفهام : لماذا يكرهون عمي عمري ؟ !

فيقول حسن : لماذا خطفوني قبل عشر سنوات ؟ !

وأخذ حسن يتذكر يوم جاءه الرجل إلى المدرسة وركب السيارة معهم ، ثم خدروه وساقوه إلى مكان مجهول ، ولما أفاق من تأثير المخدر أو المنوم أركبوه في السيارة ثانية ، وتركوه قرب البيت ثم عاد يقول : لماذا يكرهوننا ؟ ماذا فعلنا لهم ؟

فتقول مريم : من هم هؤلاء يا حسن ؟ !

فيقول باسما لأنه هو نفسه لا يعرف منهم هؤلاء الاعداء : أعداء الخير .. أعداء السلام .. أعداء الأمن ..لم يبق سوى بضعة أشهر ثم التحق بكلية الأمن والشرطة .. ولسوف أحارب المجرمين بغير هوادة .. سوف أفعل بهم وأفعل ..

فقال ريمان : على هونك يا بطل !.. قبل أن تفعل بهم كذا وكذا عليك أن تعرف سبب فعلهم لهذه الجرائم .. لماذا انحرفوا ؟ لماذا أجرموا؟ لتنـقذهم من إجرامهم قبل أن تفعل بهم ما تحلم به من الأفعال

فقال محمد : معها حق يا حسن .. لماذا يسرق هؤلاء اللصوص ؟ لماذا يقتل هؤلاء القتلة ؟

فعاد حسن يقول : صحيح أن هناك دوافع وأسبابا للجرائم المختلفة؛ ولكن على الإنسان ألا يستـغل هذه الدوافع للانحراف والشذوذ والشر ، عليه أن يضبط نفسه ويتمالك أعصابه ولا يستسلم لنوازغ الشر والشيطان .. الحقد له علاج .. والغضب له علاج .. ولو كل شخص تربى تربية فاسدة أصبح قاتلا ومجرما ولصا لاختل أمن الناس وأحوال معيشتهم .. كثير من الناس فقراء ولكنهم لا يسرقون .. كثير من الناس يربون تربية سيئة لا يقتلون .. فليس بالضرورة أن كل فقير عليه أن يسرق وينصب ويحتال ويمكر فهناك العمل الشريف والصبر والأمل

فكان السامعون مبهورين من كلام حسن ، فعلقت أحلام قائلة : كلامك أكبر من سنك يا حسن ! ولكن لا تنسى أن عند كل إنسان نقاط ضعف قد تدفعه في لحظات معينة لفعل أشياء يرى فيها أنها دفاع عن نفسه .. فعلينا أن لا ننسى الرحمة والعطف بيننا ، وأن نتعامل مع المجرم على أنه مريض ، ونعالجه كما نعالج المريض ، فهناك أمراض يتمكن الطب من علاجها ومنها أمراض لا يستطيع علاجها ، يعجز الطب عنها .. وبعضها بين بين .. فهناك منحرف يمكن

تقويمه وإعادته للجادة والصواب ، وبعضهم لا يمكن تحقيق ذلك معه .. ومنهم بين بين أيضا يتحسن تارة وينحرف تارة أخرى

فقالت ريهان : فلسفة مهمة يا أحلام ! .. ولكنها قريبة من الصواب ؛ ولكن أسباب الجرائم أحيانا تأتي فجأة .. أحوال ظروف عواطف مشاعر .. انفجار .. أليس كذلك يا أخ حسن ؟

ـ بالتأكيد يا ريهان .. فالأمر ليس بهذه البساطة التي نتحدث فيها ، فالإنسان كائن معقد ، ليس كالمواد التجريبية والعناصر الكيميائية نتحكم فيه بالتصنيع والتغيير حسب المعلومات والصفات .. غدا سنذهب لزيارة الوالد .. من سيذهب معنا ؟

فقالت أحلام : كلنا سنذهب .. فقد قال الدكتور يوسف إن الأطباء غدا سيسمحون للناس بزيارته .. فكلنا نحب الأستاذ عمري يا حسن ! هو أبونا كما هو أبوكم

ـ الشكر لكم .. نحن نعرف حبكم لنا ولأبينا وحتى لأمنا

فقالت ريهان : ماذا تقصد ؟ ! أتشك يا ولد بحبنا لأمنا زينب ؟

فقال ضاحكا : أقصد أن الناس يقولون كثيرا على أبناء الضرائر وبناتهم..

قطعت ريهان استرسال حسن عن أبناء الضرائر قائلة : يا حسن .. نحن لسنا أبناء ضرائر .. كانت أمي تتمنى لو يهبها الله ولدا من أبيك .. إنها خائفة علينا فـتريد أخا ليربطكم بنا أكثر في المستقبل

فقال باسما : أيّ مستقبل ؟! المستقبل عند الله .. فها نحن سنتزوج يا قمر .. فهذا أفضل رباط أليس كذلك يا أحلام ؟

فقالت أحلام : بلى .. لم يسع أمي الفرح لما علمت بذلك الحب والزواج، ولما دخلنا البيت قالت لنا الآن اطمئن قلبي عليكن .. فحسن ولد مبارك كأبيه .. لا يحمر وجهك ولا يصفر .. فأمي تحبكم كلكم مثلنا ، وربما أكثر وترى أنكم ملائكة أو تشبهون الملائكة

فقال حسن : نحن بشر ؛ ولكن دعوات الأب والأم مستجابة يا أحلام ! وأنا سأكون لكن كالأخ وزيادة .. وأنا أحب أمي أنعام ـ وريهان تعرف ذلك ـ من قبل أن أضعف أمام نظرات العيون الساحرة .. وأمي زينب تحبكم ، ولا أريد التدليل على ذلك ، بل فرحت بالمصاهرة كفرح

أمكم إن لم يكن أكثر

كان حسن ذكيا وهو يحلم بأن يصبح ضابط أمن وشرطة ليلاحق ويطارد الخارجين عن القانون والنظام .

*****

لم تكد زينب وأنعام يعدن من زيارة عمري الراقد على سرير الشفاء حتى أخبرتهن الخادمة أم احمد أن البواب حارس الفيلا أخبرها أن رجلا شرطة يرغبون بالحديث مع السيدة انعام ، فقالت أنعام : أمتأكدة مما تقولين لي يا أم أحمد ؟!

ـ هكذا أخبرني عمران

فقالت زينب : أدخليهم قاعة الاستقبال نحن قادمتان إليهما وهيئ لهما القهوة والتفتت لأنعام قائلة : لا تقلقي بعد قليل سنعرف سر قدومهما

أدخلت الخادمة الضابطين الشرطيين لصالة الزوار ، وذهبت للمطبخ لإعداد القهوة لهما ، ثم أقبلت المرأتان وألقتا السلام ورحبتا برجال الشرطة ، وقالت زينب بقلق : مرحبا بكم .. ما الأمر يا حضرات الضباط ؟!

فتبسم أحد الضباط وقال : السيدة أنعام ؟

ـ لأ وأشارت لضرتها ، فقالت أنعام بخوف وتوتر : أنا أنعام ما الخبر يا سيدي الضابط ؟!

فابتسم الضابط المتكلم ثانية وقال : نأسف للإزعاج ؛ ولكننا نحقق بموضوع الاعتداء على السيد عمري محمود

فقالت أنعام بحيرة وارتباك : وما دخلنا في الموضوع ؟!

ـ لا تقلقي يا سيدتي ! .. الآن ستعرفين وتذهب عنك الدهشة والحيرة

فقالت مقاطعة : عفوا سيدي الضابط .. فالتحقيق معي في هذا الموضوع خطير ومخيف .. أليس كذلك يا زينب ؟

فقال الضابط باسما : لا يذهب بالك بعيدا .. أنت لست متهمة بشيء يا سيدتي ..نريد بعض المعلومات

قالت انعام وما زالت الدهشة تسيطر عليها : معلومات !

فقالت زينب : اصبري قليلا يا أم سهام !.. الضابط سيوضح لنا القضية؟

فقال الضابط : أنت كنت متزوجة قديما من رجل يدعى ماهر خلس؟

تطلعت أنعام بعيني زينب ثم نظرت في رجل الأمن وقالت بحيرة : نعم ، وهو والد بناتي الثلاثة سهام وأحلام وريهان .. وقد مات قديما بحادث سيارة .. وأنا منذ سنتين أو ثلاث تزوجت زوج هذه السيدة الأستاذ عمري وهو ابن عم لي

فقال الضابط مفكرا بكلام أنعام : هل كنت تعلمين أن ماهرا هذا كان متزوجا قبل الزواج منك

فقالت : نعم ، كان متزوجا من ابنة عم له ، وقد طلقها ثم تعرفنا وحصل النصيب .. ولقد كان موظفا في مجموعة شركات عمي والد عمري وأبي ناجح الخابي

فعاد الضابط يسأل : هل كنت تعلمين أن له أولادا من زوجته الأولى ؟

فقالت بدهشة : أولاد .. ماذا قلت ؟!

ـ ألم يخبرك ويقل لك أن له أولادا من زوجته الأولى ؟

ـ لا ، لم يخبرني أو يحدثني بشيء من ذلك ، ولما تزوجنا لم أسمعه مرة

واحدة يذكر أولاده أو أن له أولادا حتى ما سمعته ذكر مطلقته في حديث دار بيننا

فقال الضابط : يا سيدتي ! اعلمي أنه كان لزوجك المرحوم ماهر ثلاثة أطفال عندما اقترن بك والذي أراد قتل زوجيكما هو الابن الأصغر للسيد ماهر

فهتفت أنعام برعب : فظيع هذا الكلام ! .. ولماذا يريد قتل زوجنا ؟

ـ يقول انتقام .. يدعي أن والد عمري قتل أباه فهو يريد أن ينتقم لمقتل أبيه ماهر

فقالت بصوت مرتفع شيئا ما : زوجي الأول لم يقتل يا حضرة الضابط .. مات في حادث سير عادي ..

فقال الضابط : هذا ما أدلى به الشاب رامي ماهر خلس .. عمري كما أخبرنا أنه لا يعرفه ، ولا يعرف حتى زوجك السابق لظروف شرحها لنا .. فذهبنا لقرية زوجك الأول فالتقينا بمطلقة السيد ماهر فقالت أن ابن عمها تزوجها أثناء دراسته في الجامعة ، أحبها وطلبها من عمه

وتزوجا ، وبعد الجامعة طلقها وهاجر للمدينة ، وكان يتردد على البلدة في المواسم والأعياد فقط ثم قالت علمنا بأنه تزوج ببنت من بنات المدينة ، ثم علمنا بأنه مات بعد سنوات من الزواج بحادث سير رهيب ؛ ولكن عرف والده من بعض أصدقائه في العمل أن السيد ناصح الخابي كان وراء الحادث .. ولما وصل خبر موت السيد ناصح للقرية قبل شهور عن طريق الصحف التي نشرت النعي المصحوب بالصور الكبيرة ، سمع رامي ابن ماهر أمه تقول لهم عندما شاهدت صورته في الجريدة وعلمت اسمه إن هذا قاتل أبيكم ثم حدثتهم عن هجرة والدهم للقرية وعمله مع السيد الخابي ، ثم زواجه من ابنة ناجح الخابي ، ثم موته بحادث سير مدبر .. هذه هي القصة يا سيدة أنعام .. فهل ترين فعلا أن لعمك الخابي يد في مقتل زوجك ؟

ـ لا أصدق ذلك ، مات ماهر بحادث صدم ولم أسمع شيئا على أنه مدبر .. أنا كنت اشتغل وماهر في إدارة واحدة .. كان شابا وسيما وطموحا ، وكان قد حصل على الماجستير في الإدارة المالية والمحاسبة عندما اشتغل في الشركة ، وكان مسؤول قسم التوثيق والتدقيق ، بل كان ماهرا في إعداد الموازنات العامة الحقيقية والوهمية ، لقد حاز على رضا عمي وأبي .. وكنا نتكلم نتيجة العمل والمجاورة في المكتب ، فحدثني عن طلاق امرأته في القرية وزواج أهل الريف ، ووضح لي أن أسباب الطلاق هي التي دفعته إليها ، وأهمها الجهل والأمية ، وبعد سنوات من التعارف لمح لي بالزواج .. فقلت له تحدث مع والدي ، وفعلا تحدث مع أبي ناجح ـ رحمه الله ـ وكنت يومها ابنة خمس وعشرين سنة ، ولما شاورني والدي بأمره وافقت وتزوجنا وسكنا في شقة في إحدى عمارات عمي ناصح .. ولم يخبرني أن له أولادا من زوجته الأولى قط لا قبل الزواج ولا بعده .. وكان عمي يكلفه بمهمات حساسة ودقيقة لثقته الكبيرة به إلى كان يوما عائدا من مهمة وعلى منعطف إحدى الطرق اصطدم بسيارة كبيرة .. نقل على أثرها إلى المستشفى ، وبعد أيام توفاه الله ، ويوم الوفاة التقيت بأمه وبعض أخواته، ولما انتهى العزاء لم نعد نرى منهم أحدا ، وهي كانت المرة الأولى والأخيرة التي التقي بأمه وأهله .. حتى إنهم لم يسألوا يوما ما عن بنات ابنهم المرحوم .. ثم تركت الشقة وسكنت أنا والبنات مع والدي وأمي حتى تزوجني ابن عمي عمري .. ولكن لماذا ينتقمون من عمري ما داموا يشكون ويظنون أن قاتل ابنهم السيد ناصح

ـ لئن عمري ابن ناصح ، وناصح قد مات ، ولولا موته ونشر صورته في الجرائد ما عرف الشاب بذلك .. هذا سبب زيارتنا لك يا سيدة أنعام ..

وأحضرت الخادمة أكواب العصير ، ولما انتهيا من شربها قال الضابط وهو ينهض : الحمد لله على سلامة أبي محمود .. أشكر لكم تعاونكم ، ونأسف على ازعاجنا لكم ، وندعو الله أن يعافي لكم السيد عمري فهو رجل فاضل

اخوة البنات

قد بان الآن علاقة المجرم بالسيد عمري وسبب الاعتداء عليه ، الأب يرتكب الجريمة والابن يدفع الثمن ، ماهر خلس كان متزوجا من ابنة عمه التي هويها في أيام المراهقة ، وأثناء الدراسة في الجامعة تزوجها ، وأنجبت له بنتا وولدين أصغرهما رامي ، ولما تخرج من الجامعة بشهادة علوم محاسبية لم يرتح لحياة القرية أو التنقل بين القرية والمدن الكبرى لمزاولة العمل والشغل فماذا يعمل في القرية بشهادته ؟ ، فطلق ابنة عمه التي أحبها ، وهاجر للمدينة الكبرى العاصمة طمعا بفرصة عمل أو وظيفة في دواوين الحكومة ، فهو من حملة الشهادات الجامعية ، ثم تيسر له العمل في شركات الخابي وخلال ست أو سبع سنوات كان رجلا مهما في شركات الخابي أو في مكاتبها المهمة .. وهناك ـ بعدما أنهى الماجستير ـ في المكاتب الرئيسية التقى بأنعام ابنة ناجح بيك شريك ناصح في هذه الشركات والمصانع ، وكانت أنعام فتاة هادئة بطبيعتها ومرحة ، فتعرف عليها واحتك بها كأي موظف يعمل في الشركة ، وقد عملا في مكتب واحد وإدارة واحدة ، ولم تأكد أنها غير مرتبطة بشاب من أبناء العائلات الكبيرة والثرية ، وقد كان بحكم الزمالة والعمل قد حدثها قديما في جلسة من الجلسات عن زواجه ، وتركه القرية ، وتطليقه لامرأته ، .. وكانت أنعام تعلم ثقة والدها وعمها الكبيرة بالسيد ماهر ، فتشجع الشاب وحدثها أو جس نبضها حول الاقتران بها ، فلم تمانع ولم تنظر للفارق الطبقي بينهم ، إنما طلبت منه أن يكلم والدها بذلك ، وتكلم ماهر مع أبيها بذلك الأمر ، وتزوجا كما قالت أنعام زواجا تقليديا ، وعاشا سعيدين بضع سنوات ، ثم مات بحادث اصطدام مع مركبة كبيرة ، وقدمت الشركة لأهله مبلغا قدره عشرة آلاف دينار مواساة لأبيه وأمه ، وكان راتبه أثناء العمل وراتب أنعام بالكاد يصرف على البيت والبنات الصغيرات ، ووجدوا رصيدا يسيرا في البنك باسمه ، فدفعوه لأهله ، وكان السيد ناجح قد تكفل بأنعام وبناتها ، فهو ينفق عليهن بعدما نقلن لبيته .

ولما نشرت الصحف نعي السيد ناصح وصورته بناء على رغبة مديري شركات ناصح الخابي حتى قبل عودة عمري من إيطاليا ، فهم منذ التقطوا خبر موته الذي كانوا يتابعونه منذ سفره الاخير قاموا بالاعلان عن وفاته وتعزية أولاده في الصحف المختلفة دون مشاورة أسرة عمري،

فصدف أن رأت القروية امرأة ماهر الاولى الصورة الكبيرة في إحدى الصحف بين يدي ولدها رامي ، سألت عمن هو صاحب هذه الصورة ؟ فلما ذكر لها الشاب من هو صاحب هذه الصورة التي تملأ صفحة الجريدة تذكرت هذا الاسم ، وتحدثت عما أشيع عن قتله للسيد ماهر ، ولم تستطع كتم ما اشيع في تلك الايام ، وأخذت تنقل ما سمعته للأولاد عن تلك الحادثة القديمة فاحتدم الغيظ في قلب رامي وأخذته الحمية الريفية ووعد أمه بقتل ابن الخابي الذي تقوم الصحف أو إعلانات النعي بتوجيه النعي له ، ولم تأخذ الأم كلام ابنها بجد واهتمام .. وكان رامي قد فشل في الدراسة ، واتجه للعمل مبكرا فعمل بالقرية حينا من الزمن ، ثم انتقل للعمل في أقرب مدينة لقريتهم ، وكان في بعض الاحيان ينزل العاصمة للشغل أيضا ، فلما سمع قصة موت أبيه فهدد وتوعد ، ولم يكترث أحد ممن سمعه لزمجرته ، واعتقدوا أنه انفعال طاريء بعد أن سمع حكاية أمه والقائها اللوم على ناصح الخابي بموته فنزل الشاب المدينة كالمعتاد ؛ لأنه في تلك الايام كان يعمل مع أقارب له في المدينة ، فأخذ يجمع المعلومات عن أولاد الخابي ، فعلم أن للخابي ولدين فقط عمري وسمري ، وأن سمريا في أمريكا ، فأراد أن يجعل انتقامه ممن حرمه من أبيه من عمري الخابي ، ثم خطط لجريمته فاشترى مسدسا ، وقام بفعل الجريمة كما تحدثنا عنها في صفحات سابقة، ولما أصيب رامي بطلقات الحارس غير القاتلة نقل للمستشفى مصابا في فخذه وساقه ، ولما أفاق بعد الجراحة ، وأصبح قادرا للادلاء بأقواله تحدث بدوافعه للجريمة بدون تردد أو مماطلة ، وانتقل المحققون للقرية، ثم اجتمعوا بالسيدة أنعام إكمالا للموضوع ، ثم تم تحويل أوراق المتهم للنيابة العامة .

ولما علم عمري الراقد على سرير الشفاء هو وسكرتيره الأستاذ أحمد بهذه التفاصيل ، قال عمري لنفسه : حسبنا الله ونعم الوكيل .. قاتل الله الجهل .. لا حول ولا قوة إلا بالله العظيم .. أبي يقتل وأنا أدفع الثمن .. لا بأس .. ماذا سأفعل مع هذا اللعين ؟ ! .. إن عفوت أنا لم أعلم من حقائق فالسكرتير أحمد كيف يعفو ؟ ! .. وهو أخو سهام وأحلام وريهان .. وحسن يحب ريهان أخ ريهان كان يريد قتل والده ! (وابتسم) .. سلم الأمر لصاحب الأمر سبحانك ربي ما أعظمك ارحمنا برحمتك الواسعة يا أرحم الراحمين ولا تكلنا لأحد غيرك .. وقنا شر خلقك وشر أنفسنا

لذلك لما أتت أنعام وزينب يعودانه بعد مقابلتهما للضابط ، حدثته أنعام عن شخصية المجرم

فقال : لا تهتمي يا أنعام أخبرني رجال الأمن

فقالت باكية : أنا والله لا أعرف أن للبنات إخوة .. هو لم يحدثني بأن له ذرية ، وحتى أنا لم أحاول التعرف على أهله خلال مدة الزواج أو بعد موته ، منذ مات لم يصدف أن التـقيت بأحد منهم ، ولا هم حاولوا التعرف على بنات ابنهم .. ماذا أقول للبنات يا عمري ؟! .. هل أقول لهن أن أخا لهن أراد قتل زوج أمهن ؟!

ـ اهدئي لا تنفعلي ستحل هذه القضية .. وسيتـعرف الأخوة على أخواتهم .. وهذا لن يغير من الواقع شيئا .. فبناتك كبيرات وفي سن زواج، وستذهب كل واحدة لبيتها بإذن الله سبحانه ، ولكن لابد من تعارف الجميع والتقائهم لعلاقات الرحم التي بينهم .. أما هذا المعتدي فقد حولت أوراقه للنائب العام لتحويل ملفه للقضاء .. وتأكدي أن هذا الحادث لن يغير من حياتنا كثيرا ..فقد أخبرني صابر أن السيد ماهرا قد قسمت ثروته اليسيرة وميراثه ، وتنازل والدك ناجح عن حصتك وحصة البنات لأهله قديما ، ودفعت لهم الشركة عشرة آلاف تعويضا لما حدث وغير الأموال التي حصلوا عليه من شركات التأمين وصاحب السيارة الصادمة .. ليس لهم عندنا شيء بل نحن الآن لنا عندهم شيء .

*****

لقد وضح وعلم سبب الاعتداء على المدير العام لشركات الخابي الأستاذ عمري محمود ، وتحسنت صحة السيد الخابي والسكرتير أحمد ، فعاد الخابي للفيلا تغمره باقات الدعاء والشفاء والورود والفرح والحب ، ولما استكمل فترة النقاهة رحل للريحانة ، وهناك تفقد دور الأيتام التي كان يرعاها هو وأمه مريم ، وتصدق عليهم ، وتفقد بعض الأسر المعوزة والتي تتلقى إعانات منه ، ومن صناديق الشركات التعاونية ، وزار بعض الموظفين القدماء الذين تركوا العمل لعجز أو مرض أو شيخوخة ، وأهداهم المال والهدايا ، وقضى ثلاثين يوما وهو في هذه الأحوال الروحانية ، ثم أخذ زوجتيه وسافر لجدة ومنها لمكة لأداء العمرة ، وقضى شهرا آخر في ربوع مكة والمدينة ، وبعد استراحته بضعة أيام وليال عاد للعاصمة ثانية ، فزار السكرتير أحمد

ودعا له بالعافية التامة ، وقد وجده قد عاد لصحته ولممارسة العمل ، فعرض عمري عليه عملا آخر مريحا أو تقاعدا في البيت ، وأن يتقاضى راتبه كاملا ، فاختار إدارة دار من دور الأيتام ، فهو يحب هؤلاء الأطفال ، ويرجو الثواب من ربه ، فخطب عمري في ختام الزيارة ابنته لولده أسامة ـ الشاب الثالث في ترتيب أبنائه يصغر عائشة بسنتين ـ وكانت الفتاة التي يريدها لابنه ما زالت طالبة في كلية الإعلام ، فترك أحمد الأمر للشابين ، فاستدعاها عمري ورغبها بالاقتران من ابنه أسامة ـ المهندس في الشركة المعمارية القائمة في مدينة الريحانة ـ فقالت بأدب : الأمر لك يا عماه .. ما رأي أبي في الموضوع ؟

فقال : أنا أحب أباك منذ أيام الريحانة ، وهو من أصدقاء العمر .. ونحن سنغادر هذه الدنيا مع أننا نجينا من هذه الحادثة الرهيبة ، فالموت قادم يا بنية .. وأنا في هذا الزواج لا أريد أن أسدد دينا لأبيك ، إنما أريد أن أزيد أواصر الحب بين الأسرتين أكثر ، وتقوية الأواصر الاجتماعية ، فإذا كان لديك قبول بهذه المصاهرة والنسب فدعينا نتصل بولدي هناك ليأت سريعا ، ويتم كل شيء بمشيئة الله .. فنحن اخوة وأحباب

فقالت : ظل عليّ سنة في الكلية يا عماه

ـ الزواج لن يعيق هذه السنة

ـ أخشى الحمل ومشاكله .. فأنتم تحبون الأولاد بسرعة .. نخطب فقط

ـ أنا لا أحب أن تطول هذه الخطبة يا بنية .. فأنا عندي حسن ابن الثماني عشرة سنة يريد الزواج

فقالت باستغراب : حسن الصغير يريد الزواج !

فقال موجها كلامه لأحمد : يا سيدي يريد ابنة خالته أنعام الصغرى يدعي أنه محب ولهان بها

فقال أحمد : أخشى أن يكون حب صبيان يا عمري

ـ هو فعلا يريد الزواج ، والبنت كذلك ، ولكن هذه الحادثة عقدت الأمور .. فقد ظهر للبنات الثلاثة أخت وأخان .. والمجرم أحد الأخوين

فقالت هند : وهل هذا يؤثر على زواجهما ؟

ـ هو أخوها .. قد لا يؤثر على طباعنا وحياتنا كثيرا ؛ ولكن دينا وشرعا هو أخ لها سوف يزورها

ويتـعرف عليها .. فهي أخته شئنا أم أبينا .. وقد لا يمكث في السجن طويلا قد يمكث بضع سنين .. فها هم أهله وأهل قريته يطلبون ويلحون اللقاء بنا أنا وأبوك للصلح ونحن حائران في ذلك ؛ ولكننا في النهاية سنرضخ لتوسلاتهم وبكاء أمه ، وسيقضى في السجن الحق العام حق الدولة فحسب .. فقد زارت أمه البيت أكثر من خمس مرات ونحن في مكة والمدينة والريحانة

وقال أحمد : وزارني جده وبعض أفراد أسرته وعشيرته ، فقلت لهم لما يرجع أبو محمود نتكلم في الموضوع .. ولكن يا عمري هل يعقل أن يكون والدك قتل زوج ابنة أخيه كما يدعون ويتمتمون ويتهمون ؟ !

سكت عمري لحظات قبل الرد ، ثم قال بعدما مسح جبينه بمنديل قماش : مما علمت فهو قتل بحادث سير ، وقد أثير فعلا حول الموضوع لغط وإشاعات .. هكذا تقول امرأة عمي عزيزة .. ولكن لا يستغرب مثل ذلك عن أبي

ـ أمعقول هذا الكلام ؟ !

ـ أنا لم أعاشر أبي كما تعلم كثيرا .. للأسف كان أبي وحشا في صورة إنسان يا أحمد

فقالت هند : إنك تقول كلاما قاسيا يا عماه في حق أبيك ؟!

فقال : للأسف أقول ما تسمعين .. أبي لم يسجد لله سجدة واحدة ، وهو يموت أحثه على قول لا اله إلا الله فيقول دعني ، فعلنا كل المعاصي وكل الجرائم وتريد أن نقول هذه الكلمة دعنا ليوم الحساب .. أنا خرجت قبل العشرين إلى بريطانيا للدراسة ، ولم نكن نرى الجانب المظلم في حياة ناصح الخابي ، وكنت غارقا في الشهوات والملذات لم أكن أكترث لو سمعت شيئا ..كل شيء مبرر ، ولما عدت بعد سبع سنوات عدت متعبا نفسيا ، لقد خسرت أموالا كثيرة على الموائد الخضراء في باريس ولندن ، فلما تراكمت عليّ الديون والخسائر أتى أبي وسددها عني، وأعادني معه ، وقضيت سنة أو أكثر لا أخرج من البيت إلا للطبيب النفسي ، ثم عملت مع أبي سنتين أو ثلاث ثم سلمني قيادة مصنع للسجاد .. كان الوضع غير طبيعي فيه ، أبي كان يغرق مشاريعه بالجواسيس سواء من العمال أو الإدارة ، لا يثق بأحد ، ومع ذلك كان يسرق ويسلب

فلا أستغرب منه أي شيء يا هند .. كلام مؤلم ولكنه هو الحقيقة .. ثم قدر الله لي الهداية والتوبة ثم الهرب من البيت ...

فقالت : الهرب .. !

فقال مؤكدا : الهرب .. إيه يا هند لقد ذكرتيني بعقود وعشرات من السنوات قد ذهبت

فقال أحمد : كفاك أسئلة يا هند

فقالت هند بحماس : ما رأيك يا عماه ! أن أكتب لك قصة حياتك كما يفعل المشاهير ورجال المال والاقتصاد ؟

فضحكوا لأقتراح هند ، وقال عمري : لا يوجد لي قصة تستحق الكتابة يا ابنة أخي .. لما هربت كان معي أموالي التي كنت أقبضها من أموال الشركة ، فشغلتها بعدة مشاريع في الريحانة وكل مشروع تولد عنه مشروع أو أكثر وهكذا

فقالت : لابد أن هناك لقطات مهمة في حياتك وفواصل

ـ أهم فاصل في حياتي يا حبيبتي التوبة والبداية مع الله سبحانه .. سنحاول تسوية موضوع رامي .. آ .. يا هند هل أتحدث مع أسامة ؟

فقال أحمد باسما وهو ينظر لابنته الوحيدة : اتصل به يا عمري فعيون هند تقول اتصل

فضحكت هند لمداعبة ابيها وقالت : والله عمي عمري لا يكسف ولا يفشل .. نسمع رد أسامة أولا فإذا قبلني زوجة على سنة الله ورسوله فأنا لا أمانع ، أما أن تجبروه على ذلك فلا أقبل .. وأيضا لابد من مشاورة أخي وأمي بذلك

فضحك أحمد : المهم أنت .. حمزة يريد الدكتورة عائشة ، وهو ينتظر إنهاءها الاختصاص وهذا تكلمنا فيه قديما

فقالت : أموافقة عائشة ؟

ـ أبوها الموافق .. عائشة لا ترى مثيلا لأبيها في الدنيا ولا تعصي له أمرا

فتبسمت هند وقالت : وأنا لا أعصي لأبي أمرا .. كلي طاعة لكما

قال عمري : جزاك الله خيرا .. هات الهاتف لتسمعي قول المهندس أسامة عمري

لما دخل عمري للمنزل وتناول العشاء مع أفراد الأسرة ، وأخذ يرشف فنجان القهوة كعادته في غرفة الاسترخاء والجلوس ، وتفرق بعض الأولاد في حجرات الفيلا ، فقد كان أبو محمود يحافظ على مشاركة الأسرة العشاء بالذات ، وكان أفراد الأسرة يحبون الجلوس حوله والسمر معه ،فلما انتهى من شرب القهوة ، سمع زينب تسأل : مالك لا تتكلم ؟! .. منذ دخلت البيت وأنت قليل الكلام .. هل صليت العشاء ؟

ابتسم عمري وقال : صليت العشاء بمسجد قريب من بيت أخي أحمد أبي حمزة .. فقد كنت أطمئن على صحته

ـ ما أخباره وأخبار أم حمزة وهند وحمزة ؟

ـ صحته تمام بفضل الله ، وهو يفكر بأداء العمرة قريبا .. وأم حمزة خرجت مع الأولاد في عيادة أحد اخوتها وكانت هند هناك

فقالت أنعام : إنها فتاة لطيفة وذات مشاعر حساسة ورقيقة كيف هي ؟ .. لقد كانت تبكي يوم الحادث بكاء مزق القلوب

ـ الجميع بخير وقد طلبتها من أبيها ؟؟

فقالت زينب مداعبة لزوجها : لك يا أبا محمود ؟!

فقالت عائشة الصامتة : ليت أبي يفعلها يا أمي لنرى ماذا ستفعلين ؟

فقالت أنعام : أبوك شيخ كبير بعد أنعام لا يفكر بالزواج .. وهو تزوجني على استحياء

فقال حسن مازحا : ربما بعد الحادث دبت فيه قوة الشباب والحياة

فقال عمري وهو يعدل من قعدته : تذكرت أين قمرية ؟

فرد محمد أصغر أبناء عمري : ذهبت عند عمتك رباب .. فقد اتصلت بها عصرا .. طلبت هندا لمن يا أبي ؟

فأجابه عمري ضاحكا : لك يا ولدي .. ما رأيك ؟ !

ـ إنها أكبر مني .. إنها تصلح للمهندس أسامة

فضحك عمري والحضور لأعتذار محمد وقال : أسامة ! .. نعم، هو أسامة يا زينب ، ولما

أبدت الموافقة والرضا تكلمنا مع أسامة من بيت عمكم أحمد ، وقلت له القصة ، فقال هو الآخر إذا هي موافقة فأنا موافق فقلنا على بركة الله سبحانه.. وستكون الخطبة خلال يومين وهو قادم غدا أو بعده فاستعدوا لذلك .. أنا أقدر وأحترم الصديق أحمد ، فهو من أوائل الرجال الذين قامت على أكتافهم شركات عمري محمود وهو رجل فاضل

فقالت زينب : وموضوع عائشة ؟

فقالت عائشة مازحة : أمستعجلة يا أمي على فراقي . ؟! فقالت زينب : دراسة الطب طويلة يا ابنتي .. وأنا في سنك كنت قد خلفتك وأخاك محمودا وأسامة أيضا

فقال عمري : حمزة جاهز .. ينتظر إنهاء الدكتورة الاختصاص .. وهو من الرجال الذين يعتمد عليهم .. وهو ابن أبيه وجراح ممتاز

ولما انتهى التعليق والتعقيب والتبريك والتهنئة ، وقام بعض الحضور للنوم ، التفت عمري لسهام وقال بحب وعطف : ماذا حدث معك يا سهام ؟ ومالك لا تشاركينا فرحتنا ؟

فقالت : إنني فرحة بما أسمع من أخبار يا عمي ! ولكن منالا تقول إن فوازا صرف نظره عن الزواج وانشغل بدراسة الماجستير

فقال عمري : لا تحزني يا بنيتي .. هذا خير لك صدقيني .. هذا من لطف الله بك .. لا يريد لك أن تعيشي في بيئة قد تخلص منها الجميع .. لقد كان منذ البداية مترددا في تحديد الموعد .. فالموعد لا يحتاج لكل هذا الانتظار

وقالت أنعام التي على دراية بذلك : وتسألها منال هذه بتهكم واستهزاء .. هل صحيح أن الذي أطلق النار على زوج أمك أخوك ؟ .. انظر إلى هذا الكلام الجارح والقاسي ممن تدعي أنها صديقة لها ..

أخذت الفتاة تبكي بهدوء فقال عمري : دعي الدموع .. لا تبكي يا سهام ! .. دموعك عزيزة علينا .. ربنا يقدر هذه الأشياء لأشياء خيرا منها .. فلو لم تحدث هذه الحادثة لما عرفت حقيقة هؤلاء الناس .. وما ذنبك بجريمة أخ لك ؟! .. أنت متضايقة من اللباس الشرعي لأنه طارئ عليك، وطبيعة الكلية التي درست فيها كلها سفور وتبرج ، فكنت ترين نفسك شاذة في السنتين

الأخيرتين .. أما الآن بعد تحررك من ذلك الجو الفاسد سترتاح نفسك رويدا رويدا وبعدما ترتاح نفسك فلدي شاب ممتاز ولائق بك وسيسرك الاقتران به .. لن اذكره الآن حتى لا تظني أنني أفرضه عليك .. بس حاولي مع فواز مرة أخرى وأخرى .. وتأكدي أننا نحبك وتهمنا سعادتك .. اذهبي بها يا عائشة إلى حجرتها

مسحت الفتاة دموعها وقالت : لا .. أحب البقاء أنا كما قلت لك يا عمي ليس بيني وبين فواز عهود ووعود .. زمالة كلية وكنت أظنه الرجل المناسب لي ولا أدري لماذا يتهرب ؟!

فقالت زينب : يا ابنتي ! أنت ابنة العائلة .. ولا تهتمي وتتأثري من أخيك رامي ، فهو فتى طائش جاهل .. وستتعرف على هؤلاء الناس وتنصلح الحال .. وهم في حال وأنتم في حال وهو كان يظن أن عمريا كأبيه له يد في موت والده .. وتقاليد القرى والفلاحين فيها نوع من الخشونة والقسوة وروح الثأر والانتقام .. وتربيتهم تقوم على الخشونة والكرامة المبالغ فيها والجاهلية .. فعندما يتعرفون على عمك ستظهر من نفوسهم طيبة الفلاح طيبة القروي .. وهم اخوتك مهما حصل وسيبقون اخوتك ولا تزر وازرة وزر أخرى

فقالت أنعام : أنت طيبة يا زينب ! .. لنا أكثر من عشرين سنة لم نسمع بهم .. أي اخوة وأي أقارب ؟

فردت زينب : زوجك ماهر - رحمه المولى ـ لم يحدثك عنهم فهو المخطئ .. لماذا كتم ذكرهم عنك لما رغب بالزواج منك ؟ ! فقالت بحيرة : لا أعلم لماذا فعل ذلك ؟

ـ ولما مات كان الأولاد أطفالا ، وأخبرتنا أمه أن ابنه فائق ابن ست وعشرين سنة ، وهو سائق في مصنع قريب من البلدة ، والبنت ميسون متزوجة في القرية من قريب لها ، وأما رامي فهو أصغرهم وهو ابن عشرين سنة ، وبينه وبين أخته خمس سنوات ، فيظهر مع احترامي لمشاعر الجميع أنه لم يكن مطلقا زوجته كما قال لكم أو أنه ردها بعد زواجكما ؟!

تمهلت أنعام قبل أن تجيب ثم قالت وكأنها تتذكر تلك الأيام الخوالي : هو كان يحدثنا عن طلاقه قبل أن يفاتحني بالزواج بحكم الزمالة في المكتب والشغل ، ونحن يؤمئذ لم نتأكد من ذلك ؛ لأن الأمر لم يكن يهمنا لا في قليل ولا كثير ، ولما دار الحديث بعد سنوات عن الزواج لم نسأله

عن ذلك للمعلومات السابقة المستقرة في أذهاننا عن طلاقه وهجرته ولحياته في المدينة ولا أنكر أنه كان أحيانا يغيب عن الشغل والدوام بحجة أعمال خاصة يقوم بها لحساب عمي ناصح ووالدي ، لم ادقق في غيابه وتحركاته ، كانت الحياة طبيعية وهادئة ، لم يكن بيننا مشاكل وريب حقيقة أنه كانت هناك حركات غامضة بينه وبين عمي ناصح ، ولما أسال أبي صدفة عن ذلك فيجيب لا تتدخلي فيما لا يعنيك ، فإنها صفقات سرية فاصمتي خيرا لك ولنا فاصمت ، ولا أهتم كثيرا لغيابه لأنني واثقة أنه يعمل لعمي .. وكنت أيضا مشغولة بالبنات والحمل والولادة والطبيبة والعيادة حتى الشغل أيامها أنا كنت أتغيب عنه كثيرا

فقال عمري : سنـعرف عندما يأتي أهل الولد كثيرا من المعلومات عن هذه القضية .. لقد أطلعني والدي في أيامه الأخيرة على أشياء تقشعر منها الأبدان عن النشاطات السرية للشركات وقد ذكر هذا الرجل على لسان أبي أكثر من مرة ، وقد كان شخصا محبوبا من أبي وعمي وإلا لما زوجوكما يا أنعام .. ابنة ناجح الخابي تزوج لفلاح قروي !

فهمست أنعام : هذا ما أقوله ؟! .. لولا رضا والدي وعمي عنه ، لما وافقا على زواجنا بسهولة وخصوصا عمي ناصح .. وأنا لم أر منه سوءا، بل كان نعم الزوج ، ولم أر منه تقصيرا يوما ما ، وحياته الخاصة لم أتدخل فيها هكذا تعودنا ، وسنتـعرف على هؤلاء الاخوة يا سهام

فقال عمري ملتفتا لسهام : لا تجعلي يا حبيبتي ! قضية هذا الأخ قضية كبرى في حياتك وحياة أخواتك ، فهذه الاخوة باقية ، وليست باختيارنا فحتى لو تدابرنا وتعادينا ستبقى الاخوة .. فهي اختيار رباني ، وكل إنسان مسؤول عن نفسه .. فانظرن أنا ابن من ؟ !

قرية ماهر

تنازل عمري ناصح وأحمد عبد القادر عن حقهما في قضية رامي ماهر من أجل خاطر بنات أنعام فقد أتت أم الشاب وجدته وكبار رجال القرية إلى السيدين عمري وأحمد واعتذروا لهم عما سببه لهم الولد الطائش من ضرر وإصابة ، وتحدث جده كثيرا مبديا أسفه على الحادث وقال معتذرا : أم الولد حمقاء يا أبا محمود ويا أبا حمزة ! .. وموت ماهر له سنوات وسنوات فلما شاهدت تلك الحمقاء أم فائق الصورة في الجريدة ، سألت الولد صورة من هذه ؟ فذكر لها اسم الوالد ناصح الخابي ، فتذكرت الماضي وما قيل في تلك الأيام حول الحادث ، وقد كان المرحوم ماهر قبل أن يموت بأيام قد أتى القرية وتحدث أمامي وأمام غيري ، وقال لنا إن حياته باتت في خطر وأخبرنا أنه ارتكب غلطة مع صاحب الشركة فلن تغتفر وأوصاني على الأولاد ، وكان المرحوم قد طلق زوجته صبيحة ، وهرب إلى المدينة ، وبحثنا عنه ، فلم نجده حتى علمنا أنه متزوج من ابنة أحد أصحاب الشركة ، صبرنا إلى حين ، ثم أرسلنا له أخاه وائلا ـ وأشار لرجل في المجلس ـ فتكلم معه وأمره بالعودة للأهل وإلا فضح أمره للسيدين ناصح وناجح .. وكان لا يستطيع الاختفاء من جديد بعدما أصبح من رجال السيدين ناصح وناجح الخابي .. فأتانا وتصافحنا وتصالحنا واتفقنا على أن يتزوج ابنة عمه مرة ثانية ، فبعد تمنع واحتجاج بزوجته في المدينة ، قلنا له لن نخبر أحدا بزواجك .. فبعد ضغط مني ومن عمه والد زوجته عقد عليها من جديد ، وأصبح يتردد على البلدة كلما سنح له ذلك أو كلما كلفه أبوك بمهمة خارج العاصمة ، إلى أن جاء في الأيام الأخيرة له من الدنيا وحدثنا عن الخطر الداهم المحيط به .. وفي الحقيقة لم يكشف سر هذا الخطر وأسبابه، إنما كان يظهر خوفه من ولي نعمته فحسب .. نحن بالطبع لم نأخذ الكلام على شكل جدي للمشاكل التي بيننا وبينه من طلاق ابنة اخي وهربه للعاصمة وعدم الاتصال بنا .. إلى أن جاء الخبر بالحادث المروري ، فقد اصطدم ذات يوم بمركبة كبيرة ادعى سائقها أن عطلا فجائيا حدث لها .. ونحن اتهمنا السيد ناصح بتدبير الحادث للخوف الذي حدثنا عنه قبل موته بأيام ؛ ولكن الشرطة نفت أي علاقة أو معرفة بين صاحب الشاحنة والسيد ناصح ، وقد ثبت أن عطلا فنيا حدث للمركبة .. فنحن في تلك الأيام ظل الشك

مسيطرا علينا ، وذهب دم ماهر غدرا .. والله أعلم بالحقيقة .. وحاولنا الحديث مع بعض زملائه وأصدقائه في العمل فلم نتوصل بطرقنا إلى شيء .. حادث عارض ، وقامت الشركة بدفع أموال لنا ، فاضطررنا إلى اللجوء إلى الصمت حتى تظهر الحقيقة، وقد حاول بعض الأشخاص من معارف والدكم مساعدتنا والتأكيد لنا أن السيد الوالد له يد في حادث السير .. سيارة ماهر بالشاحنة .. ولكنه كلام من غير دليل ، وقد قام السيد ناجح بما يلزم الميت ، ودفع فواتير المستشفى والعزاء وعدنا للقرية ونسينا دم ابننا بعد زمن ، وكبر الأولاد إلى أن دخلت تلك الجريدة البيت ورأتها أم الأولاد ، وسألت عن صاحب هذه الصورة ، فقرأ لها رامي اسم الميت الذي تملأ صورته صفحات الجريدة .. فتذكرت وقصت حكاية الرجل على أبنائها من زوجها الثاني ـ فقد زوجناها بعد ترملها ـ وكان بينهم رامي ابن المرحوم ماهر ، فغضب الولد وهدد وتوعد ؛ ولكنها لم تحمل كلامه محمل الجد .. وهو يشتغل في المدينة ،ولم نعلم بعمله المجنون إلا عندما اتصلت بنا الشرطة .. فهذه هي القصة يا أبا محمود .. ونحن لا ننكر تقصيرنا اتجاه بنات ابننا ؛ ولكننا كنا مطمئنين لغنى والد أمهن وعمها .. والحضانة كما هو معروف من حقها ، وكذلك ابتعادنا منذ البداية عن هذا الزواج ، وعدم معرفتنا به إلا صدفة .. دفعنا للسكوت، وكنا نرى من المستحيل من أن نتمكن من أخذهن للقرية فأهملناهن .. ونحن أيضا لا نريد منهن شيئا سوى التعارف ، ولولا الحادث لظل الأمر نسيا منسيا

فقال عمري : ونحن أيضا نريد هذا التعارف وسوف نسعى إلى تزويجهن ليستقللن في حياتهن وهن لا ينسين اخوتهن وأهلهن وأنا قد أصبحت بمثابة الأب لهن بعد زواجي من أمهن .. واعلموا أن البيت يرحب بكم في كل وقت .. وإذا كانت قريتكم بحاجة إلى مدرسة أو أي مساعدة فأنا جاهز ومستعد لذلك

فانهال عليه الحاضرون بالشكر والثناء والاعتذار ، وتحدث كبير القوم فقال مشيدا بتسامح عمري وأحمد : غمرنا صفحكم وشهامتكم .. بارك الله فيك يا ابا حمزة .. وبارك الله فيك يا أبا محمود .. كفيت ووفيت ووصلت الرحم ولم تقطعه .. وكنا نود أن نتـعرف عليك بظرف أجمل من هذا .. ونحن نعتذر ونتأسف عما سببنا لكم من أذى وإزعاج وأنتم أبرياء من أفعال لم

تعاصروها ، وسيبقى حبل الود متصلا بيننا ، وسنستـفيد من مشاريعك الخيرية وطيبـتك في قريتنا ، فقد علمنا عنكم الشيء الكثير من الخير يا أبا محمود

فقال عمري : نحن نرحب بكم ، وسترون منا ما يسركم بإذن الله .. والبنات الآن قد تعرفن على جدتهن وعماتهن وأختهن ميسون .. فنحب أن يذهب الأعمام وأبو ماهر وفائق لمعرفة بناتهم بهذه المناسبة

وتعهد عمري لأهل القرية ببناء المسجد القديم بعد هدمه بآخر جديد ، وإنشاء دار أيتام ومدرسة لهم بجوار المسجد ، واستعد لإنشاء معصرة زيتون للإنفاق على المدرسة ودار الأيتام فتفاجأ القوم بكرم السيد عمري ناصح ، وتحمس رجال ومختار القرية لدعوته لزيارة بلدتهم فوعدهم بزيارة ، وأنه سيأتي وبناتهم للتـعرف على قرية أبيهم ، ثم أخبرهم بأنه سوف يزوج ابنتهم ريهان لولده حسن ، فغمرهم السرور والفرح ، وظن بعضهم أنهم يحيون في حلم حتى أن بعضهم وسوس له الشيطان أن هذا كلام في الهواء ، واندفع إليه السيد عمري للمشاعر والموقف الذي يحيونه تلك اللحظات ، ولما تناولوا العشاء على مائدة السيد عمري عادوا لقريتهم يلعنون الساعة التي حاول ابنهم فيها قتل هذا الرجل الجواد ، وقبل أن يفيق القوم من الحلم كان فريق من المهندسين وكبار الموظفين لدى شركات الخابي يدهمون بيت المختار في الصباح الباكر .. فتجمع أهل القرية عليهم ، وساقهم المختار حيث يقبع المسجد ، وهو مستغرب من سرعة عمل الخير لدى السيد عمري محمود ، فشاهد القوم المسجد القديم ، فقام المهندسون بدراسة الموقع نظريا ومكان المعصرة .. وتقرر إقامة مكتب لمساعدة الفقراء ومد العون لهم ، وخلال شهر كان المسجد قد شيد مكان القديم ، وتم إقامة دار للأيتام ، وبناء مدرسة للأطفال ، ومكتب مساعدات حول المسجد ، وكان على المختار تدبير الكوادر الذين سيعملون في هذه المرافق ، وكمل ترتيب كل شيء ، وخلال ثلاثة شهور تم إنهاء كل شيء ، وكان الناس يلهجون بذكر السيد عمري ، ويرقبون في شوق زيارته التي وعدهم بها ، ولما زار القرية حل ضيفا على المختار الذي صنع وليمة لأهل القرية جميعهم ، فشكرهم عمري وبارك لهم كرمهم وهنأهم بإتمام المسجد وملحقاته والمعصرة ، ثم أخبرهم برغبته إقامة مشاريع

إنتاجية ، ووقف أرباحها على المسجد والمدرسة ودار الأيتام ومساعدة الضعفاء والفقراء لأن الظروف قد تتغير، والموت قادم ، والأشخاص نفوسهم تتـغير ، ولا يكن الحماس لديهم كحماسه .. فاشترى أراضي شجرية وأوقفها على تلك الأشياء ، ووعدهم بإرسال مهندسين زراعيين لتحسينها ، وتوفير الماء لها بحفر الآبار وتسبيلها ، وقبل مغادرة القرية أخبرهم بقرب قران ابنه حسن من ابنة ابنهم ، وأنهم قد كتبوا الكتاب الشرعي بحضور والد ماهر ، فبارك القوم هذا الزواج ودعوا للسيد عمري بالمزيد من العطاء والعافية ، وعند المساء أخذ البنات وعاد للمدينة ، وقد ترك في قرية والدهن ابتسامة بيضاء وقال : لعل الله سبحانه يغفر لأبي .. فقد اعترف لي بأنه هو الذي دبر مكيدة قتل ماهر خلس .. رحم الله والدي

جرى الاحتفال المتواضع بزواج حسن عمري الشاب الصغير الذي أنهى الثانوية العامة بنجاح على الفتاة الحسناء ريهان ماهر الصاعدة لامتحان الشهادة الثانوية العامة بفيلا الوالد عمري التي أصبحت من حصته بعد تقسيم ميراث أمه ، وقد أعد وهيىء لهم مسكن في الفيلا ، فالسيد عمري بدأ يفكر بإنشاء طابق جديد في الفيلا أو الرحيل للريحانة ، وبعد الزواج بزمن يسير التحق حسن بكلية الشرطة ليصبح رجل أمن في المستقبل حسب رغبته وهوايته .

*****

كانت الشهور تمضي ولا تتوقف وتلد الأيام أحدثا ، وعمري مشغول الفكر والذهن بابنة زوجته أنعام الآنسة سهام ، فكان يسأل أنعام عنها كثيرا ، فلما فرغ من زواج حسن كرر استفهاماته عنها فأخبرته أنها تعيش على وهم وأمل فقال : من الضروري أن تتزوج الفتاة يا أنعام .. فأنا لدي عريس مناسب لها وستجد السعادة معه إن شاء الله تعالى ، وقد تحدثت معه ومع أبيه فسروا بذلك ، وهم ينتظرون إشارة منا .. فقد تزوجت ريهان وأحلام على الأبواب

فقالت بحرقة الأم : تكلم معها أنت .. فعندما أسالها ما أخبار فواز ؟ تلزم الصمت وترد أحيانا قائلة إنه مشغول بالماجستير كما تقول منال أخته فتصدق المسكينة

ـ أعتقد أنه شاب عابث وساخر ، لا يهتم بعواطفها ، إنما كان يسخر من شعورها وميلها نحوه

فقالت أنعام : وأنا مثلك اعتقد هذا الاعتقاد .. فهل صحيح أنك سترحل إلى الريحانة وتستقر

فيها كما تتحدث زينب ؟ !

فقال : أجل أيتها الحبيبة ! .. أمس كنت في زيارة عمتي عزيزة ومعي زينب ، وتحدثت بهذه الرغبة .. لقد فكرت بدلا من البناء وجمع الأولاد كلهم في هذا المسكن الواسع أن أرحل وأسكن في ضاحية الصالح إنني أحن إلى ذلك المكان .. وليس هذا فحسب بل أفكر بتسليم المهندس أسامة إدارة المشاريع ، وأعتكف في البيت وانشغل في العبادة .. فقد زهدت في هذه الدنيا .. فالأحلام قد تحققت والأولاد كبروا .. ونحن كبرنا يا أنعام .. فبعد زواج أسامة من هند سأتخذ القرار الحاسم .. فما رأيك ؟

ـ والبنات يا عمري ؟

ـ أحلام سيتزوجها ابن بدرية كما جرى بيننا من كلام ، والبنت مسرورة بذلك ، ومحمد ابن فائز يكاد يطير من الفرح بموافقتها .. وسترحل معنا إلى الريحانة وتتزوج هناك ، وقد ترحل معنا سهام أيضا إذا أعرضت عن ذاك الشاب ، فنحن لا نريد الضغط عليها .. أما أنت أين ستكونين معها أم معنا ؟ وضحك

فجارته في الضحك وقالت : أنا سوف أكون حيث تكون .. وأعرف أن أمي تنتظر ساعاتها الأخيرة فقد كانت واهنة والطبيب يتردد عليها صباحا ومساء

فقال عمري : إذا رحلنا وأحببت البقاء هنا عند الأولاد عند صهرك حسن فلك ذلك .. حتى يتوفى الله أمك ويتغمدها برحمته .. فلست متضايقا إذا حدث هذا

ـ سوف أنظر في الأمر لما تقرروا الانتقال ، متى سيكون عرس أسامة ؟ ـ عندما تنتهي هند من اختبارات هذا الفصل ، وقد نزوج عائشة في نفس الحفل من حمزة أحمد .. أين زينب ؟

ـ مريضة راقدة في الفراش

فنهض ملهوفا وهو يقول : لم لم تخبروني عندما دخلت ؟ .. ظننت أنها ذهبت لزيارة أمها مع أخيها الحبيب حسن ومحمد

ـ لا ، لم تذهب .. قامت عائشة بتطبيبها ، ثم اتصلت بطبيبة صديقتها .. قامت بفحصها للاطمئنان أكثر ، وقالت بعض الإرهاق والتعب

ـ تعب وإرهاق .. من ماذا ؟ زينب تظن أنها مازالت صغيرة .. تحب العمل

ـ الحبيبة زينب .. ما زالت تعامل الأسرة كأنهم أطفال وصغار ، ولا تركن على طعام أم أحمد تحب الطهو بنفسها

فقال وهو يمشي نحو باب الفيلا : هيا نطمئن عليها .. زينب قصة حياة يا أنعام

فقالت انعام مازحة : أليست أحلى أمراة في العالم ؟! واليست أخت حسن صديق العمر ؟!

تمهل عمري بعدما سمع مداعبة زوجته انعام ، ونظر الى يمينه حيث تمشي زوجته أنعام ، وقال متنهدا : يا الله ! ما أسرع الزمن يا أنعام ! .. حسن كم أحببت هذا الانسان ! .. لما طلبت منه أن يعلمني كيف الصلاة لأول مرة ؟ نظر اليّ دهشا .. وقال مستفسرا ماذا يقصد السيد المدير بكيف الصلاة ؟! .. لي ذكريات جميلة مع حسن أيام مصنع السجاد في حياة والدي - رحمه الله تعالى ـ ومع الشيخ علي الحمد ـ رحمه الله تعالى ـ العمر يسير بنا ركضا .. حسن عندما جئت خفية للعاصمة بعد شهور من الاختفاء جئت لاتزوج أخته .. كان قد شرح لأهله ظروفي لما حدثه الشيخ علي بأمري .. وافق أهله بدون أي شروط أو طلبات .. كان زواجي من ابنتهم يومذاك مغامرة .. مغامرة كبيرة ؟ .. أليس قد يرغمني أبي لوحدث الصلح مبكرا على تركها ؟ أيناسب ناصح الخابي عامل المصنع البسيط .. يا إلهي !

ترك الحديقة ومشى مسرعا نحو غرفة زينب الراقدة من الوجع والألم ، فوجدها ممددة على سريرها والأولاد حولها ، فألقى السلام وتقدم فقبل جبينها وقال : كيف حالك يا زينب ؟ انزعجت كثيرا عندما أخبرتني أنعام بتعبك لماذا لم تخبروني بالهاتف ؟

فقالت زينب بضعف : لم نحب إثارة قلقك وخوفك .. وعكة بسيطة .. تقول الطبيبة إنما هو قليل من التعب ونقص في الأملاح .. انظر إلى الأولاد حولي يريدون أن يشعروني بأنني عجزت وهرمت يا عمري

فقال عمري : لا ، يا زينب ! نحن كبرنا فعلينا مراعاة صحتنا وجهدنا ، من الصباح سنذهب إلى المستشفى وإجراء صور طبية وتحاليل

فابتسمت وقالت : الأعمار بيد الله مولانا العظيم

فقال : المرض يا زينب ليس له دخل بالموت والحياة .. الحياة بيد الله والموت بيد الله .. والعلاج من الأخذ بالأسباب ، والمرض بيد الله وهو الشافي إذا مرضنا ؛ ولكن النبي صلى الله عليه وسلم قد تداوى ، وأعظم الدواء كتاب الله سبحانه .. غدا بمشيئة الله يا عائشة سنذهب سوية .. فزينب أمنا واختنا وحياتنا

دمعت العيون من الجميع ، وقالت زينب : أبكيتنا يا أبا محمود ! .. بارك الله فيك يا عمري أنت نعم الزوج والأهل .. منذ جمع الله بيننا لم يغررك المال يوما ما ، لم يغررك الجاه ، وفي مملكتك آلاف العمال ، منذ عرفتك وأنت عمري .. لقد ثبتت على العهد .. تركت الثروة الكبيرة والملايين لتثبت على الإيمان .. ولتصنع مجدك الخاص .. أعطاك الكريم عطاء الكريم .. ولم يفتنك الدرهم ولا الدينار .. آلاف الدعوات تصعد إلى السماء تبارك لك مالك من أفواه اليتامى والأرامل والأصدقاء

كفكف عمري دموعه وهو يردد : كفى .. كفى يا ابنة الأكارم ! .. فأنت ابنة الأخيار والاجواد فقد ربوك تربية طيبة ، فأنبت نبتة طيبة .. فكنت خير عون في السراء والضراء. . لم أنس دموعك ولهفتك يوم تلقينا رسالة بدرية .. كنت لي نعم الزوجة والأهل .. آه ! كم دعوت للشيخ المرحوم علي الحمد الذي أشار عليّ بهذا النسب ! فكان نعم الاختيار والتوفيق

فتنحنت أنعام وقالت : لا تنسوا أننا هنا يا أهل الخير ..

فقالت عائشة : والله يا خالتي ! إننا نسمع كلاما عظيما اليوم يثير الرهبة في النفوس

فقالت زينب : أنت وردة يا أنعام ! لقد أحببناك في الله .. وكنت نعم الأخت والصديقة .. رائعة وطيبة .. ولم أشعر في لحظة أنك غريمتي أو ضرتي .. أخلاقك رفيعة وطيبة ومنبتك حسن .. وكم أثنيت عليك امام سيدنا عمري ابي محمود !

نهضت أنعام وعانقت زينب وهي تبكي من حرارة ألفاظ زينب وقالت : اسكتي يا حبيبتي ! بل أنت الأميرة .. أنت شيء عجيب .. لا غيرة ولا خوف إلا من الله .. مخافة الله بين عينيك في كل مقام وكلام .. كلك حب وأمل .. الحلال أولا .. الحكم الشرعي أولا .. الثقة الكبرى برضا الله .. الزوج هو الجنة .. الأولاد هم العمل الصالح .. السعادة تغمر الجميع من حبك ودعواتك

الصادقة للجميع

كانت زينب تبكي بحرارة وحرقة من كلام شريكتها في زوجها ، والحاضرون تذرف دموعهم غزيرة لصدق المشاعر التي تتحدث بها الزوجتان .

ابن نوال

شخصية من شخصيات الرواية تركنا الحديث عنها مع أن ظهورها على مسرح الأحداث كان مبكرا ومن بداية القصة ، وهذه الشخصية هي أخت أنعام السيدة نوال ، نحن ذكرنا أنها بعد زواجها بزمن شرعت تطلب الطلاق من زوجها نادر بحجة أنها غير مرتاحة وغير منسجمة معه ، وأنه رجل شراب مدمن خمر ، ولا يأتي البيت إلا مخمورا ، وصاحب ميسر يخسر الكثير الكثير من الدنانير ، ووالده يسدد عنه خسائره ، ووالدها ناجح يرفض طلاقها لصداقته الكبيرة لوالده المليونير، وأخوها صابر بعد وفاة أبيه كان يصر على عدم الطلاق ما دام زوجها لا يريد ذلك ، لها ولد واحد فقط ، أكثر أيامه قضاها عند جدته وجده من أبيه ، وكنا قد اشرنا في صفحات سابقة أنها قدمت شكوى ودعوى وطلبا للمحاكم الشرعية والقاضي الشرعي للتفريق بينها وبين زوجها .. وكان أخوها صابر يعارضها ، وكان القاضي يؤجل البت في القضية ، واستمر هذا الحال أكثر من سنة ، وكانت كل أيامها تقضيها في بيت والدها مع أمها المريضة عزيزة ، فذات يوم اتصل بها ابنها الشاب قائلا : أمي ! أنا في البيت ، وأنا مشتاق إليك لي شهر لم أرك تعالي فزوجك ليس هنا

فردت قائلة : تعال أنت ، أنا لا أحب أن أراه إنه أصبح أقبح مخلوق على وجه الأرض

فقال متوددا : صدقي أنه ليس في البيت ، وأنا أريد أن أتحدث معك بموضوع مهم .. جدتي تريد تزويجي .. ألا تريدين أن تذهبي معي لرؤية العروس ؟ .. وسأقنع أبي برمي يمين الطلاق عليك تعالي بس وسترين ما تحبين

وضعت السماعة وركبت سيارتها وانطلقت إلى بيتها ، فوجدت ابنها الوحيد يجلس مع فتاة ، فلما زالت عنها الدهشة سألت : من هذه يا شادي ؟ !

ـ أهلا أمي .. اجلسي ، هذه ستكون زوجتي يا أمي .. هذه أمي يا لينا

نهضت لينا تتلوى وتتمايل ومدت أطراف أصابعها وصافحت المرأة المكشرة وقالت بهزء : أهلا حماتي .. مرحبا أم شادي

فقالت نوال مخاطبة لشادي : ألم تقل لي إنك ستأخذني لرؤية العروس؟!

فضحك لحظات وقال : العروس جاءت بنفسها يا أمي ! .. كتبنا الكتاب وطلبت مني حماتي أن أعرف لينا الحلوة على حماتها أمي الرائعة

فقهقهت نوال وقالت ساخرة وقد صدمت بالخبر : ممتاز ! .. يعني حماتك هي التي طلبت منك تعريفي على ابنتها .. حماة طيبة ؟

ـ آ .. يا أمي لا تزعلي منا .. أنت تعيشين عند أمك .. وأنا أعيش عند جدتي .. وأبي يعيش مع أصدقائه .. وغدا ستعيش لينا عند أمها .. فنحن عائلة اقتصادية جدا نريد أن نوفر في المصروفات ونأكل من جيوب الآخرين .. أليس كذلك يا لينا الحبيبة ؟

ـ لا يا حبيبي وحبيب أمك .. أنا أرفض هذا التوفير وهذا الاقتصاد .. أنا سأعيش على جيب حبيبي وروحي شادي .. والتفتت لحماتها وقالت : ولم تطلبين الطلاق من عمي يا عمتي العزيزة الغالية؟

فقالت نوال بحدة وغضب : شأن لا يخصك .. إلزمي حدودك

فقال شادي ضاحكا من نفرزة أمه : أم شادي تكره زوجها يا لينا .. لأنه يشرب الخمر ويلعب القمار ويعشق النساء .. كأن أمي لم تكن تشرب الخمر ، وأتت من بيت أولياء .. ولم تلعب القمار مع بنات العائلات .. نسيت أمي كل هذا يا لينا الغالية

فصاحت أمه بحدة : أخرس يا ولد ! .. أنا إذا شربت الخمر لم أشربها بشراهة ووحشية أبيك وأنا إذا لعبت القمار لعبتها للتسلية .. لم أخسر كل أموالي وأعيش على جيب أبي وأمي ولم أعط جسدي للرجال .. أنت ولد فاجر مثل أبيك .. ألا يكفيك عقوقا أنك تتزوج دون أخذ رأيي ولو على التلفون

ـ لا تغضبي يا أمي ! راعِ صحتك .. صدقي أنني ترجيت أبي كثيرا ليطلقك ويعطيك حريتك ولكنه لا يريد أن تصبحي زوجة لغيره فقلت له ليلة كتابة عقدي على لينا الجميلة إن أمي عجوز هرمة ، لا يمكن أن يغامر أحد بالزواج منها بعد ...

فجأة صفعت نوال ابنها على خده ، وهي هائجة ، وقد احمر وجهها غضبا وزاد تنفسها ارتفاعا وهي تقول : إنك ولد فاجر .. مجرم كأبيك .. أيقول ابن عن أمه هذا ؟!

وضع يده على مكان الصفعة ، وقد تفاجأ بالصفعة فهذه أول مرة تمد يدها عليه ، ونظر إلى لينا التي صرخت فزعا ، وقال بصوت مصطنعا فيه الهدوء : يبدو أنني نسيت أن أمي شابة حسناء آلاف الشباب يبتغونها للزواج .. أمي هائجة وغاضبة .. لا أدري كيف صابر أبي على أخلاقـك التعسة ؟! .. إنك امرأة سيئة .. لماذا أنت أمي ؟ !

ارتفع الصياح بينهم واحتد الكلام والسباب ، وبينما هما على هذا الحال دخل الوالد يصيح : ما هذا الصراخ ؟ ! ووقف في فتحة الباب وهو يقول : نوال هنا ! .. ظننتك يا شادي تشاجرت مع فاتنتك لينا .. هل من شيء يا شادي ؟

فقالت لينا : يا عمي .. أرأيت ؟! .. لقد صفعت امرأتك ابنها الوحيد صفعة تألم لها قلبي ـ وأخذت وجه شادي وأشارت لمكان الصفعة ـ وأنا حزينة لم أرى ؟!

فصاح أبو شادي وقد هاج : أتضربين الولد يا مجنونة ؟

ورفع يده ليهوي بها على وجه نوال التي ابتعدت عنه وصاحت وهي تهدد بيدها : أضربه .. وأضربك يا قليل العقل يا فاسد .. ابنك غير مربى ؟

فقهقه نادر وهتف ضاحكا : تربيتك يا هانم

ـ تربية أمك جدته

اقترب الزوج السكران منها وكان يلوح بيديه وقال : أمي تربيتها أحسن من تربيتك ألف مرة ومرة .. لن تفرحي بالطلاق مني يوما ما ، ستبقين ذليلة مهانة .. وهذا ابن عمك المدعو عمري اطلبي منه أن لا يتدخل في قضيتنا ومشاكلنا أحسن أحرقك وأحرقه

فقال شادي : ماذا فعل هذا الرجل يا أبي الحنون ؟

فخفض يديه والتفت لشادي قائلا : تصور يا ولدي الطيب .. أنه أرسل لي محاميه يساومني على طلاق هذه الحمقاء

ـ يساومك ؟!

ـ نعم .. دفع لي عشرة آلاف دينار لأطلق هذه الحمقاء

ـ وهل قبلت يا أبي ؟

ـ لا .. فزادني اللعين عشرة أخرى .. فصممت على لا .. فانصرف وهو يقول العرض سار ففي أي وقت تقرر اتصل بي وترك لي بطاقة عليها أرقام هواتف مكتبه .. تصور يا ولدي يريدون أن يشتروها مني بهذا المبلغ الزهيد

فهاجت نوال وصاحت : حقير .. حقير .. حقير

وأخذت بالبكاء والتشنج بحرقة وألم ، فقال شادي : والله يا أبي لو أخذت الفلوس أحسن لك منها .. هذه امرأة حمقاء خرقاء .. ولن يتزوجها أحد بعدك فهي كبيرة في السن

فقهقه نادر وقال : أتريد أن تضحك عليّ يا ولد ؟ .. أنا منذ ثلاثين سنة .. وأنا أقول لها لن أطلقك .. قلت لها اهربي .. عيشي عند أمك .. ولكنك ستبقين على ذمتي حتى أموت .. فلا تحدثني يا شادي عن طلاقها البتة

ـ يا أبي ! العشرون ألف أفضل منها ، بعها .. أنا لا تعجبني حياتكم .. تستطيع أن تتزوج فتاة صغيرة مثل لينا الساحرة

فقالت لينا مشجعة عمها : نعم .. نعم يا عمي .. عندي صديقة أحلى مني ستقبل بك وستعيد لك الشباب والرونق

ـ لا .. إنني أحبها ، ولا أستطيع أن أضحي بحبي ولو دفعوا لي ملايين الدنيا

أخذت نوال تشتمه وتحتقره وتبصق عليه وعلى جذوره ، فاستشاط غيظا وهجم عليها غاضبا كالثور الهائج وأمسك بكتفيها فدفعته عنها بكل عزم ، فسقط على الأرض ، فازداد غضبا وهو يقول : يا ملعونة تريدين قتلي يا .. تريدين قتلي والخلاص مني .. وتناول تحفة زجاجية كانت على منضدة وسط الغرفة ، وقذفها على نوال بسرعة قبل أن يدرك أحد خطر الرمية ، فجاءت برأسها ووجهها ، وقد تقهقرت للخلف ، وارتطم رأسها بجدار البيت فوقعت ، فصاحت وفقدت الوعي وارتمت على الأرض كأنها ميتة ..

معالجة نوال

نقلت نوال إلى المستشفى ، وسيق الزوج إلى قسم الشرطة ، وانصرف شادي ولينا بعد أخذ أقوالهما إلى بيت جده وجدته ، وحدثاهما بجريمة ابنها ، فطلبت من زوجها أن يتصل بالشرطة لإخراج ابنها من الحجز ، فاتصل الأب بابن له متقاعد من الشرطة ، فذهب شقيق نادر للقسم وحاول إخراج أخيه بالكفالة ، وأن هذه مشاجرة كغيرها من المشاجرات التي تحدث بين الأزواج ، وبين هذين الزوجين بالذات ، فقال ضابط القسم لزميله المتقاعد : عندما ينتهي التحقيق ونرى التقرير الطبي .. فالطبيب يقول أن وضعها صعب ، ولديها مشاكل في الجمجمة والدماغ .. فأخوك ضربها بمزهرية زجاجية ثقيلة ثم ارتطم رأسها بحائط الغرفة .. فوضعها الآن حرج .. فعندما يظهر التقرير الطبي وعلى ضوئه نـقرر قبول الكفالة أم لا .. أرجوك .. أرجوك يا مقدم عزام .. لا داعي للإحراج

ـ كما تشاء يا رائد فراج

قضت نوال عدة أسابيع تعالج من الجروح والصدمة ، ولما خرجت من المستشفى لم يكن وضعها الصحي وحالها الدماغي كما كان سابقا ، فقد تأثر دماغها من الضربة ، فكان لابد لها أن تستمر بالعلاج ، وأخذ العقاقير الطبية ومتابعة الدماغ ، ولكنها بعد هذه الضربة الشديدة حصلت على ورقة طلاقها من القاضي ، بعدما قدمت التقارير الطبية للقاضي ، وتحررت نوال من زوجها بعد ما يقارب ربع قرن من الزواج قضتها في صراع وشجار وغضب ونكد وتعب ، فكانت ترقد على سرير في بيت والدها وحيدة ، أمها عزيزة مريضة ترقد هي الأخرى في غرفتها ، أخوها منشغل بمشاكله ومصنعه ومعه أولاده وبناته ، وكانت لا ترى خلال النهار إلا الشغالة الخادمة تدخل عليها بالطعام والشراب ، وأحيانا تجلس تواسيها وتشد من حيلها في مواجهة صعاب الحياة وهمومها ، ولم ترى ولدها من يوم الحادث ولا زوجته ، وكانت أنعام تتردد عليها كلما زارت أمها المريضة ، فتـقضي بعض الوقت عندها والبعض الآخر عند أمها ، لقد كانت الحالة النفسية لنوال مؤلمة وحزينة ، وقد أصابها الاكتئاب الشديد فأخذت تراود نفسها بالانتحار وتجاهر به ، فتقول لها أنعام : ويلك ألا يكفي شقاء الدنيا .. ولتكوني من الأشقياء في الآخرة ..

لا أريد أن أسمعك تتحدثين بيأس .. لقد وعدني عمري أنه سيرسلك إلى أوروبا أو أمريكا لإكمال العلاج .. ولكنه يتوسل إليك أن تتوبي إلى الله وتحسني من علاقتك مع الله ولا تـفكري بقتل نفسك .. فهناك صديق لأبي محمود خبير في الطب النفسي سيتردد عليك ..

فبكت وانتحبت وقالت : أخي لا يسأل عني ، وأنا أسكن معه في بيت واحد وحتى زوجته تمر أيام ولا أرى وجهها .. أخواتي يحيينني من الباب وهن مارات على أمهن ، ولا يجلسن بجواري بضع دقائق .. أشكرك يا أنعام أنت الوحيدة التي تشفق عليّ .. أنا شغلتك عن زوجك وبناتك

فقالت أنعام : أبدا يا نوال أنت أختي .. حبيبتي .. وعمري عندما أحدثه عنك يتألم وتسقط دموعه حزنا وأسفا لما حل بك من كرب .. وقلب عمري رقيق مع الضعفاء .. ووعدني خيرا بأن يهتم بك .. ولكن عليك أن تنقذي نفسك من النار .. فها أنت قد خبرت الحياة وعرفت تعاستها بدون إيمان وحب وعرفت الناس

فمسحت دموعها وتنهدت وقالت : كلما أتذكر الأيام الخوالي .. أيام خطبتي لعمري تلك الأيام القصيرة أصاب بالجنون .. وأتذكر كلماتك لي بالتحمل والصبر أبكي .. لقد كنت أرى أبي وعمي ملوكا في هذه الدنيا ، وأن السعادة بكنفهم وبجوارهم .. وها هم قد ماتوا وتركونني مهضومة ومكسورة الجناح .. ابني الوحيد منذ دخلت المستشفى لم يطل عليّ .. أنا لا ألومه .. أبغضه كما أبغضت أباه اللعين

قالت أنعام : ادع له بالهداية .. أنت قصرت في حقه يا نوال ! أنت عجولة لاتصبرين ولا تتأملين في العواقب .. وعلى كل ليس هذا وقت الندم .. عليك أن تراعي صحتك ، وتتوبي إلى الله ولا تقنطي من رحمة الله سبحانه .. وإذا أحببت أن أنـقلك لبيتي فأنا مستعدة لذلك

فقالت نوال بعد تدبر يسير : جزاك الله خيرا . دعيني عند أمي .. والخادمة جزاها الله خيرا لا تقصر إنها سيدة محترمة وفاضلة

كان عمري فعلا يفكر بتسفير نوال ابنة عمه إلى أوروبا للعلاج هناك ، وإنما الذي كان يؤجل ذلك هو الرجل المحرم الذي سيرافقها ؛ لأن المرأة في الإسلام لا تسافر إلا بمحرم كزوج وابن وأخ ، فصابر لا يبدي ارتياحا لسفرها ـ رغم نصيحة كبار الأخصائيين في أمراض الأعصاب

بعلاجها خارج القطر ـ أو حتى إرسال أحد أبنائه معها ، ففكر أن يأخذ أنعام وابنا له ، ويسافرون بها ولكن من سيذهب ؟ فمحمود ما زال في الغرب يدرس ويشتغل ، وأسامة سيسلمه إدارة الشركات والمشاريع ، وحسن في الشرطة يتعلم ويتدرب ، ومحمد على مقاعد الدرس ، وكان يستعرض أفراد الأسرة فوصل لرأي أن يعقد اجتماعا لمحارم نوال ، وينظر من يحب الرحيل والسفر معها ، وكان قد كلف عائشة بالاتصال بمستشفيات متخصصة في ألمانيا أو سويسرا ، وهو الذي اقترح على أنعام أن تحضر أختها للسكن معهم في الفيلا لتظل قريبة منها لأنه مدرك لحالتها النفسية المؤلمة بعد الحادث ، وهي رحم بالنسبة له ، فهو يتعاطف ويشفق على الغرباء والأجانب ، فكيف بابنة عمه ناجح ؟ وكان خائفا ومنزعجا مما نقلته له أنعام عن يأسها وتفكيرها بقتل نفسها من الألم والحالة النفسية التي تعصف بها ، فلذلك اتفق مع طبيب نفسي كبير ليهتم بها ويراعيها ، وكان يرى أن الإيمان الصادق يمنعها من الضعف والاستسلام لليأس والانتحار ؛ ولكن نوالا ضعيفة الإيمان ، تكره الصلاة واللباس الإسلامي وغير ذلك .. قضايا كثيرة تهم عمري وتشغله ولكن القضايا الإنسانية تشغله أكثر من قضايا ومشاكل العمل وكان قد اقترب موسم الحج ، وهو يحن ويشتاق لتلك الديار ، ففكر بالحج هذا الموسم ، واعتذرت زينب عن السفر معه ، وكذلك أنعام لمرض أمها وأختها فعرض الأمر على عائشة فوافقت ، فقال : إن شاء الله بعد عودتنا من الحج سنتمم زواجك بحمزة وهند بأسامة

فقالت : إن شاء الله .. ما رأيك أن نأخذ سهاما معنا ؟

ـ حبذا ذلك يا عائشة .. فعندما تتزوج ممن هو في بالي ستحج إن شاء الله .. فسهام طيبة وقد بالغت في حسن ظنها بالمدعو فوازا .. فربما اخذناها عمرة اذا قبلت في ذلك

ـ لم تخبرنا عمن اخترته لها ؟

فقال ما زال عندها أمل في ذلك الشاب ، وكلما اتصلت بأخته اعتذرت لها عنه .. لا يريد الحديث معها .. وما زالت تنتظر

فقالت بشفقة : تكلم معها من جديد يا أبي ؟

فقال سأفعل الليلة .. لقد طال انتظارنا

ـ اذكر لها اسم العريس المختار يا أبي أثناء الكلام .. ربما وجد هوى في نفسها وغيرت أفكارها إنها كثيرة الزعل مع أمي أنعام لا تطيق الكلام معها

ـ أمعقول هذا ؟

ـ أنا أقول ذلك ليس من باب النميمة .. أرجو أن تنهي حزنها يا أبي ليعود الوئام والحب والسلام للبيت ، فأمي انعام متوترة وذهنها مشغول بين أمها المريضة وأختها نوال وابنتها التي تضع اللوم عليها بابتعاد فواز عنها

ـ أمرك .. ما أخبار صهرنا حمزة ؟

ـ بخير ، وكان أمس هنا زارنا وجلس مع أمي ثم غادرنا

ـ أخبري حبيبتي سهام أن لا تنام قبل أن ترني .. لي يومان أسأل عنها فيقال إنها نائمة كأنها تتهرب من اللقاء بي

ـ هي حزينة لعدم اهتمام ذاك الشاب بها كما كان أيام الكلية .. فهي تقول لقد كان يهمس أمامي أن اليوم الذي لا يراني فيه كأنه خسر يوما من عمره أهذا كذب وضحك ؟ !

فقال عمري : أنا متأكد أنه شاب عابث .. لو كان يحبها حقيقة لتقدم إليها على أي صورة كانت وعندما تستـقر في بيته يطلب منها ما يشاء من التبرج والسفور ؛ ولكنه اتخذ ذلك ذريعة للخلاص منها في أي وقت يشاء .. أنا أعرف أن أناسا على هذه الشاكلة يحبون التبرج والسفور والزينة السافرة ؛ ولكنهم لا يطلبون ذلك من الآخرين ، فهذه أمور شخصية وخاصة ، فهو لم يسألها يوما عن الصلاة .. إنما تركيزه على التبرج واللبس .. وأنا راض عنها لأنها لم تعش معنا صغيرة .. فلبست الشرعي خجلا منا ومن أجل أمها .. وليس لي عليها ولاية إلا بالمعروف وحسن الصحبة

بعد أن شارك الأهل طعام الغداء انصرف عمري لمكاتب المجموعة والمشاريع في شارع قطز ، فدخل المكتب والتقى بعدد من كبار الإداريين، وعند العصر غادر الشركة كالمعتاد ، ولم يذهب للبيت كالمعتاد ، إنما أخذ الدكتور يوسف ومشوا إلى السكرتير أحمد أبي حمزة صديقهم الحميم وظلوا عنده ساعة من الزمان ثم ودعوه وقال عمري : ما رأيك أن نزور دار أسامة بن زيد ؟

ـ في مثل هذا الوقت ؟!

ـ في مثل هذا الوقت

ـ ألا يغضب منا مسؤول الدار ؟

ـ ولم يغضب منا مسؤول الدار ؟! .. هو لازم أن تكون الزيارة في أول النهار .. هيا فالأستاذ حابس رشيد رجل محترم يقوم بواجبه خير قيام

مرا على دار أسامة للأيتام ـ كانت الدار ترعى حوالي أربعين إلى خمسين يتيما ، ما بين أكل وشرب ومنام ومدرسة ونظافة ، والدار هذه تأوي الأيتام من سن ثلاث سنوات إلى اثنتي عشرة سنة ثم ينقلوا لمدرسة داخلية متوسطة ـ ومسحا على رؤوس الأيتام ، وتفقدوا الأطفال الصغار ، واطلعوا من القائم على ادراتها الاستاذ المربي حابس رشيد عن المشاكل التي يواجهها هؤلاء الضعفاء .

ضيوف من امريكا

لما رجع عمري بيك للبيت وتناول العشاء الخفيف مع أفراد الأسرة الراغبين في الطعام كعادته في الحديقة ، وخصوصا في ليال الصيف والخريف ، وتحدث الحاضرون بما يحلو لهم من أطيب الكلام ، ثم دخل البعض إلى البيت وبقيت أنعام التي أشار لها بالبقاء وسهام ، وبعد مقدمات سأل عمري : ما آخر أخبار فواز يا بنية ؟

فقالت بانكسار وضيق : لم أتكلم معه إنه مشغول وغير موجود في البيت كلما اتصل بهم ؟

أدرك عمري أن سهام متضايقة من الحديث في هذا الموضوع ؛ ولكنه أصر على الكلام ، فهو يتمنى أن يصحو ويجدها قد نسيت هذا الحلم أو الوهم المسمى فوازا فقال : ولماذا لا يتصل هو ؟ .. ألا تبلغه أخته كثرة اتصالك ؟

فقالت باختصار : لا أدري

فقال : ما الحل في رأيك ؟ ألا تريدين الزواج ؟

ـ لا أفكر فيه الآن

ـ أنا ذكرت لك سابقا أن لدي شابا محترما .. ورجل يحب مصاهرتنا ، وهو مهندس معماري مثل أسامة ، وهو ابن رجل فاضل .. وستجدين عنده الحب والرحمة والمودة والسكن يا بنيتي لا تنتظري سرابا

فقالت بنبرة مرتفعة : دعني يا عمي بحريتي .. عندما أفكر وأقرر الزواج سأصارحكم بذلك ونهضت كأنها محتجة على اسلوب الضغط الذي يمارس عليها ، فقال : لا تغضبي منا .. افعلي ما شئت .. وتأكدي أننا لا نكرهك أو نحب التخلص منك .. فهذا شأن خاص بك .. ونحن ما زلنا نقول أننا لا نمانع بمجيء هذا الشاب لنتعرف عليه ويحصل ما تريدين

فقالت : سلامتكم من التقصير ؛ ولكني متعبة نفسيا .. سامحني يا عمي العزيز

ـ بارك الله فيك

وأتت الخادمة تحمل الهاتف ، ووضعته في مكانه المناسب وهي تقول : فندق النهضة العربية يريد الحديث معك يا أبا محمود

ومشت سهام نحو مدخل الفيلا الداخلي وقد همست تصبحون على خير بعد أن تناول عمري السماعة من أم أحمد وهو يردد السلام عليكم .. فندق النهضة .. نعم أنا السيد عمري الخابي .. شاب أجنبي يريد الكلام معي .. هات

أخذ عمري يتحدث بالإنجليزية بضع دقائق ثم وضع السماعة فقالت أنعام : من ؟

فقال : هذا ابن أخي سمري ينزل الفندق ومعه أخته ، ينزلان منذ يومين .. ويريدان زيارتنا والتـعرف علينا

فقالت مبدية استغرابها من تصرفهما : ولماذا لم ينزلوا البيت منذ جاءوا؟! .. أليس هذا بيت العائلة وعمهم عمري ؟

فقال بحيرة مثلها : لا أعلم لماذا ؟ .. حتى أنه لا يتكلم العربية ولا يعرفها .. وسمري لم يحدثني بنزولهما وخبرهما .. ذكريني في الصباح أن أرسل السائق حمادا وحسنا ليأتيا بهما .. أهنا حسن ؟

ـ نعم ومعه إجازة ثمان وأربعين ساعة

فطلب من أم أحمد أن تأخذ الهاتف ، وترسل له حسنا ، فقالت وهي تبتسم : خرج مع عروسه في مشوار .. وقد يمرا على خالتهم نوال

قالت أنعام : نعم ذكر لي ذلك ظهرا فشجعته لقد نسيت .. سأنتظر مجيئهما وأبلغه رغبتك

وانطلق الجميع نحو الفيلا ، فصعد عمري لغرفته ، ثم توضأ وصلى عددا من الركعات صلاة الليل أو القيام ، ثم دخل غرفة المكتبة فوجد عائشة جالسة فيها تقرأ ببعض المراجع .. فسلم وجلس بعدما أخرج كتابا عن حياة الصحابة ظهر في الأسواق حديثا ، فقلب صفحاته ، وقد طلب من الشغالة كوبا من القهوة ، فقرأ عدة صفحات من الكتاب الجديد ، وكانت الساعة قد اقتربت من نصف الليل عندما انتهى من قراءة تلك الصفحات ، فعاد لحجرته وقرأ بعض الآيات من المصحف ، ثم تمدد على فراشه يذكر أذكار النوم والرقود ثم راح في سبات هادئ .

*****

وعند صلاة الفجر سألت أنعام زوجها متى نرسل السائق للفندق ؟ فقال عمري : هل أخبرت حسنا بذلك ؟

ـ لما مرا عليّ عند عودتهما أخبرتهما ، وستجد حسنا أمامك في المسجد .. ذهب للصلاة في المسجد

ـ إني ذاهب .. السلام عليكم

ولما ارتفعت الشمس عند الضحى ذهب حسن بنفسه للفندق ومن دون السائق ، وخلال نصف ساعة كان يقف أمام مدخل فندق النهضة ، ويدخل صالة الاستقبال ، ويسأل موظف الاستـقبال عن شابين أمريكيين مايكل سمري وروبيكا سمري ، فنظر الموظف في دفتره وقال : نعم هما نزيلان هنا .. ماذا تريد منهما ؟

ـ أنا على موعد معهما .. أخبرهما أن حسن عمري في انتظارهما

وجلس حسن على أحد المقاعد الكبيرة منتظرا مجيئهما ـ مجيء أبناء عمه الذي يسمع به ، ولم يره منذ وجد على هذه الأرض ـ ثم سمع الموظف يخاطبه : إنهما نائمان ، لا أحد يرد .. أتشرب القهوة ؟

ـ ماشي .. ننتظر بعض الوقت .. فأنا ابن عم لهما يا ..

ـ نذير رمح

ـ أهلا أخ نذير .. ومرحبا

ـ قهوة يا حسونة للأستاذ حسن .. أهلا وسهلا بك يا حسن بيك

ـ أهلا أستاذ نذير بيك .. هل هما قادمان من أمريكا مباشرة ؟

ـ لست أدري بالضبط ، ولكن أظن أنهما آتيان من بريطانيا

أتت القهوة ، ورشفها حسن ببطء ، وأخذ يقرأ في صحف الصباح المعروضة على المنضدة ، ثم اتصل بالبيت وأخبرهم بتأخر الضيوف ، فهما نائمان ، وبعد مضي ساعة اتصل الموظف ثانية فردت عليه الفتاة ، ثم وضع السماعة فقال : إنهما قادمان يا سيد حسن

ـ شكرا لك .. سامحنا على الإزعاج يا أخ نذير

ـ أبدا ، هذا واجبنا أيها الأخ المحترم

*****

أقبل الأخوان إلى صالة الاستقبال ، شكلهما وهيئتهما هيئة الأجانب، قميص قصير وبنطال

قصير ، شعر مايكل سمري أسود منفوش وهو طويل القامة ، وأما الفتاة شقراء البشرة عيون زرقاء شعرها يميل للحمرة ممتلئة الجسم بعكس أخيها النحيف الطويل البدن ، فأشار الموظف إلى حسن المستغرق في تقليب وقراءة الصحف ، فاستدارا نحو حسن عمري ـ وقد نهض قائما وقد ترك الصحف عندما سمع همس صوت نذير ـ الذي حياهما وصافحهما وقال معرفا بنفسه وهو يستغفر ربه لمصافحته يد ابنة عمه : حسن عمري الخابي

فذكرا اسميهما ، وقالت الفتاة : أين عمي عمري ؟

ـ إنه في انتظاركما .. أين حقائبكما ؟

ـ في الحجرة

كان كلامهما باللغة الأجنبية ، فهما لا يحسنان اللسان العربي ، وإن كان والدهما عربي ، ربما يرطنان ببعض كلمات عربية تتردد أثناء الحوار ، فتقدم حسن من الموظف ، وطلب منه الحقائب والجوازات ، ودفع فاتورة الفندق كاملة ، وحاول الشابان الاعتراض ، فقال لهما : أنتما الآن في ضيافتنا ، وأبي يغضب إن دفعتما شيئا .. وهو غضبان ومتضايق لنزولكما الفندق قبل لقائه

ذهب الفراش لإنزال الحقائب السفرية ، وكان حسن يقول للموظف : هم أبناء عمي ، ولكن أمهما أمريكية ، فهذه أول مرة أراهما في حياتي .. شكرا

وتقدمها حسن نحو سيارته الرابضة على مدخل الفندق ، ووضع الخادم الحقائب في السيارة ، ونقده حسن ما تيسر من المال ، وركب مايكل بجواره وركبت الفتاة في المقعد الخلفي ، وأخذوا يتحدثون عن جمال هذه البلاد والأماكن التي تفرجا عليها خلال اليومين الماضيين ، وكان عمري في انتظارهما ، واعتذر عن الذهاب للشركة ، ولما وصلت السيارة ، وفتح لهما البواب الباب ، وحيا السيد حسنا وقال : أبو محمود في الانتظار في قاعة الاستقبال

كان الشابان قد اندمجا بالحديث مع حسن رغم صغر سنه ولحسن لغته ، وقد ذهلا عندما علما سنه ، وأنه متزوج منذ عهد قريب ، ولما شاهدا عمها عمريا وجداه صورة قريبة من والدهم ، وتصافح الجميع ، وعتب عليهم لعدم اتصالهم به منذ خرجوا من فيرجينيا ، ولام عمري والدهم الذي لم يعلمهم لسانه اللسان العربي ، وتألم أكثر عندما لم يقابلهما عندما قضى حينا من

الزمن مع أبيه ناصح أثناء مرضه ، سر الشابان من الاستقبال الدافئ ، ولما سأل مايكل عن باقي أفراد الأسرة ، قال عمري : لا يوجد إلا نساء .. والنساء لا ترى هذه العورات وهذا اللحم عيب هذا في ديننا قبل تقاليدنا ـ ضحك الشابان لكلام عمهم وتابع ـ أنتم أكيد لا تعرفون شيئا عن دين أبيكم ؟

ضحكت روبيكا وقالت : أبونا ليس له دين .. الدين عندنا كلمة مجردة فقط .. لا نعرف دين أبينا ولا حتى دين أمنا .. وأنا ما أتيت إلى هنا إلا لأعرف الدين

ـ لماذا ؟

فقال مايكل : روبيكا .. تدرس في كلية علوم الاجتماع وديانات العالم .. فأحبت أن تعرف دين المسلمين لتكتب رسالة الماجستير عنه .. فأرسلها السيد سمري إليكم

ـ وأنت ؟

ـ جئت رفيقا وسائحا وللتعرف على أقاربي

قدمت لهما الخادمة العصير المناسب ، وقال عمري : يا مرحبا بكم .. عندنا النساء لا ترى عورات الرجال والرجال لا يرون عورات النساء .. آنسة روبيكا .. الآن سيذهب بكم حسن إلى معرض الثياب ويشتري لكما الثياب المناسبة لتتعرفوا على باقي أفراد الأسرة .. هكذا اللباس ـ وأشار لثيابه وثياب حسن ـ ما رأيكم ؟

فقالت روبيكا : لا بأس

ـ قبل الذهاب ما أخبار سمري أبيكم ؟

روبيكا ردت : لا نراه كثيرا .. هو دائما في الجامعة .. لا نعرف عنه شيئا

فساقهما حسن مرة أخرى إلى السوق ، وتناول معهم الإفطار في أحد المطاعم ، وكان حسن قد شرح لهم قواعد اللباس في الإسلام وأهمية ستر العورة خصوصا الساق والفخذين ، وأن هذا الثوب القصير غير إسلامي ، وإنما هو تشبه وتقليد للغرب وتقاليدهم ، فاشترى لهم حسن ثيابا مناسبة وأكثر من ثوب ، فاشترى للفتاة عدة تنانير طويلة بعض الشيء ، وبنطالات لمايكل وقمصان وبدلات ، ثم عاد بهم للمنزل ، ووجدا عمهما ما زال في انتظارهما مرة أخرى فلما

لبسا ثيابهما الجديدة أتت البنات والزوجات ، فسلمن على مايكل بالإشارة من غير مصافحة وصافحن روبيكا ورحبن بهم ، فسرت روبيكا وأخوها من عائلة عمهما المحافظة حيث لا ترى أذرعا ولا سيقانا ولا حتى أقداما ولا شعرا .. الوجوه والأكف فقط .. فتعجب مايكل من ذلك الزي ، وظن أنه لا توجد أنثى تلبس هكذا ، فالنساء عندهم عاريات ، وحتى النساء اللواتي صادفهن في الفندق والمدينة أغلبنهن متبرجات وسافرات ويلبسن البنطالات ، فشرح له عمه بإيجاز عن ذلك التناقض بين تعاليم الإسلام وأحوال المسلمين المنفلتين عن تعاليم الدين ، وتناول الضيفان الغداء على مائدة عمهم ، ثم قالت روبيكا لعمها : تكلف أبي بكتابة رسالة لكم

وأخرجت من حقيبة صغيرة بين يديها مظروف رسالة ، فتناوله عمري شاكرا ، وكانت الرسالة مكتوبة بالأمريكية، وكان فيها توصية بالأولاد ومساعدة روبيكا في معرفة الدين الإسلامي ، وأهم المراجع التي تساعدها عن الكتابة عن الإسلام والمسلمين ، ومساعدتهما أيضا في السياحة في البلاد ، فلما استوعب الرسالة أعطاها لعائشة ، وقال موصيا لها : اهتمي بابنة عمك يا عائشة وأما السياحة سأتصل بمكتب شركة سياحية ليرتب لهما رحلة سياحية ممتعة ، ويشاهدا الأماكن الأثرية في البلد والصحراء .. عجيب أمر هؤلاء الأجانب يحبون مشاهدة الحجارة القديمة !

وضحك على التعليق الذي ابداه ، وأبدت عائشة استعدادها الكامل لتعريف ابنة عمها بالإسلام ، ومراجع البحث ، فساقتها للمكتبة الداخلية ، وتبعتها البنات الحاضرات ، وأخذوا يسألونها عن أمريكا ، وكانت سهام تترجم للآخرين عباراتها ، وقد كان وجود هذين الضيفين عند عائلة عمري حدثا مثيرا مع أنهم أبناء أب عربي ، فلا عروبة لديهم ولا إسلام ، ولما سألت عائشة روبيكا عن سبب اهتمامها بالإسلام بالذات .. قالت الفتاة : أصدقك القول ؟

فلما أجابت بنعم قالت روبيكا وقد بدت على ملامحها الجدية : دكتورة عائشة .. قبل أن أتكلم عن السبب الذي دفعني للكتابة عن الإسلام دون الأديان الأخرى ، والمرأة في بلاد المسلمين .. أنا مستغرب مما نسمع عنكم ، وما نقرأ عنكم في كتبنا .. فقد قيل لنا أن النساء العربيات لا يتعلمن ولا يدرسن ويشتغلن بالرعي والحلب والزرع ولا يخرجن من البيوت ..

ولكنك دكتورة .. وسهام كلية الإدارة وأحلام مازالت في الجامعة وريهان في الثانوية العامة ومريم الجميلة في المدرسة .. وعمي عمري كما رأيت رجلا محافظا ومتزمتا في نظرنا .. فكيف هذا ؟ ! كيف سمح لكنّ بالدراسة ؟!

فقالت عائشة بحماس وقوة : الإسلام مشوه كثيرا في بلادكم .. المستشرقون يكتبون عنه بكره وحقد وجهل ولإغراض أخرى .. يدّعون أن الإسلام ضد العلم ، وهو دين العلم والنور ومحاربة الجهل والظلام .. وليس العيب في الدين الإسلامي ذاته ، إنما العيب في الذين يمارسون ويطبقون الدين الإسلامي .. وهؤلاء الناس قد يكون لديهم أعذار في تطبيقه التطبيق الصحيح لانتشار الجهل والخرافة بينهم .. وبسبب ظهور تيارات فكرية ونزعات مختلفة تحمل الإسلام اسما وأفكارها متضاربة ، وفهمها للإسلام متناقض في فكر وعقل وفهم الآخرين .. وقد يكون هذا التناقض والاختلاف متقبلا بين المسلمين للتعايش ، وأيضا لاختلاف الفتوى في المسائل الشرعية لاختلاف الفهم والمكان والأحوال .. وهذا لابد من مراعاته في فهم المسلمين وعاداتهم وتقاليدهم .. وهناك خلط مقصود وماكر بين الإسلام وعادات الشعوب التي اعتنقت الإسلام ومع توالي الأيام صعب التمييز بين ما هو إسلامي وبين ما هو عادات متوارثة وتقليد .. فالإسلام الحق يعرف من مصدريه القرآن الكريم وأحاديث النبي ﷺ وسيرته ﷺ

أبدت روبيكا تفهما لملاحظات عائشة ودفاعها الحق ، وأثنت عليها ثناء حسنا ومشجعا ثم قالت بعدئذ : دكتورة عائشة .. الأمية متـفشية في بلاد المسلمين ، وانتشار التخلف الفكري والاقتصادي والديمقراطي والحرية الفردية .. والنساء عندكم محرومات من كثير من الحقوق الشخصية والاستقلالية .. وعندكم الرجل يتزوج اثنتين وثلاث .. أطفال الأسرة الواحدة كثيرون .. ودخل محدود جدا وقليل يضر بالزوجة ، ويؤثر على رعاية الأطفال بالتغذية والتنمية والمرأة تغمر بدنها من رأسها إلى قدميها .. حتى لا يراها الناس إذا سمح لهن الرجال بمغادرة البيت ، أليس في كل ذلك هضم لحقوق النساء والصغار ؟

ردت عائشة قائلة وهي تبتسم : قضية المرأة ! .. حقوق المرأة العربية والشرقية ! حقوق تحديد النسل ! طفل واحد أو اثنان .. زوجة واحدة .. حقوق اقتصادية .. حق ظهور جسم المرأة ..

هذه قضايا وغيرها مما تثيره جمعيات حقوق الإنسان ، وجمعيات المرأة والأسرة في بلاد المسلمين وغيرهم .. للتحريض ضد الدين والانفلات منه ، وإظهار أن الدين الإسلامي دين قديم دين صحراوي .. هذا أيضا يا آنسة روبيكا جهل بالإسلام ، ومعاداة عن حقد وحسد ، قال الله سبحانه في القرآن { وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ... } .. هل المرأة إذا خرجت عارية أصبحت حرة وديمقراطية ومتطورة ومتقدمة ؟ ! .. هل الحرية التعري والسفور ؟! .. هل هذه هي الحرية التي قامت من أجلها الثورة الفرنسية ؟! .. هل يحق للرجل المسلم أن يخرج عاريا يتمشى في الشوارع مدعيا ذلك باسم الحرية الشخصية ؟!.. فجاء الإسلام بلباس خاص للرجل ولباس خاص بالمرأة ، كل حسب شروط واضحة ، راعاها المسلمون كل القرون بشكل مجمل .. وهناك تفاصيل بين لباس الشرع الإسلامي ولباس العادات والمدن والأرياف والبوادي .. شروط عامة تقوم على ستر البدن والعورة لكل من الذكر والأنثى ، وهذا نتيجته طهارة للمرأة والرجل .. فلماذا تتزين المرأة للآخرين ؟ ! أليس في الزينة إثارة وإغراء ؟! .. فمن تريد المرأة إغراءه ؟! .. أليس الزوج أم كل الرجال ؟! .. فالمرأة المسلمة تتبرج وتتزين إلى زوجها .. أما نساء السفور يتبرجن ويتزين لرجال الحفلات والحانات وللناس شهوات { زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنْ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ } هذا جزء من آية قرآنية من كلام الله .. فهذا اللباس أو الحجاب الخاص بالمرأة حكم وتشريع من خالق هذه المخلوقة ..خالق هذه المرأة العزيز الحكيم الذي يعلم ما يليق بها ويناسبها .. والحديث طويل وذو شجون حول هذه الشبهات الهزيلة التي تثار بين الحين والاخر .. وسأترجم لك فقرات مما رد به علماء المسلمين على شبهات المستشرقين حول التعدد وتحديد النسل وغير ذلك ..

فقالت روبيكا : حديث لا يمل منه .. يكفي هذا اليوم .. هيا نخرج للحديقة نتنزه فيها .. بلادكم شمسها ساطعة

كانت سهام تستمع لحديث عائشة كأنها تسمعه أول مرة ، وفعلا هي أول مرة تسمعه ،كانت مدركة لم تقول عائشة وإن كان باللغة الإنجليزية ومعجبة بدفاع عائشة الهادىء والمنطقي كما

يقال .

شرحت عائشة لابنة عمها الأمريكية نظام الغرف والبيت ، ودلتها على غرفتها التي تستطيع أن تستريح فيها إذا رغبت ، فحقيبتها فيها ، فقالت الفتاة : لا .. أريد أن أرى الحديقة وأشم عبير الأزهار .. الدفء العائلي ممتع لديكم .. فنحن يعيش كل منا وحده .. كل في عمله .. أحيانا نلتقي في مناسبة أو عطلة إن لم يكن أحدنا مرتبا لسهرة .. عزيزتي عائشة .. أنا معي إجازة شهر فأريد أن أعرف كل شيء عن الإسلام وعن المرأة المسلمة ..

ـ أنا سأبذل جهدي معك خلال هذا الشهر رغم زواجي

وحدثتها عن زواجها باختصار فقالت روبيكا : زواج مبارك .. وستساعدني سهام

فقالت سهام مرحبة : أنا تحت الطلب ؛ ولكن ليست لدي الثقافة التي تملكها الدكتورة .. فقراءاتي عن الإسلام ضئيلة ..

لم ؟

تحدثت سهام عن زواج أمها بابن عمها عمري ، وحياتها في بيت جدها ، فقالت روبيكا : لا بأس سهام .. سيسمح لنا زوج عائشة السيد حمزة بالاستعانة بها

قضى الأخوان أسبوعا ممتعا في ضيافة عمري ، وتعرفوا على بعض عاداتهم وأدبهم ، وسمعت روبيكا خلاله كلاما كثيرا عن الإسلام ، وعن رسول الإسلام محمد صلى الله عليه وسلم ، وتعرفت على الحكم والغايات من إباحة الزواج للرجل بأكثر من أنثى ، وعرفت حقوق الرحم والنفقة والرضاعة والسكن ، ومحاربة الإسلام للفقر بفرض الزكاة .. ولماذا يكون الطلاق ؟ وأشياء أخرى كثيرة ، ولما بدأ القوم الاستعداد لحفل الزواج للأخوين أسامة وعائشة، طلبت عائشة من ابنة عمها إجازة ثلاثة أيام فقط ، فقالت روبيكا : جيد .. بعد حضور حفل الزواج سنذهب مدة أسبوع إلى الصحراء لنرى الآثار القديمة والمحميات الطبيعية

وتم حفل زواج الأخوين ، وذهبت عائشة مع زوجها الدكتور حمزة، ورحل أسامة بزوجته هند إلى شقة في إحدى العمارات التي أشرف على تشييدها ، وفي الصباح التالي التحقت روبيكا ومايكل في إحدى شركات السياحة التي حجز لهم فيها عمهم عمري ، ولما ركبوا الباص

السياحي ، وبدأ الدليل السياحي يحدثهم عن مخطط الرحلة فاستمعوا له حتى أنهى كلامه ، فقال مايكل : عمي عمري رجل مؤمن .. متدين يحافظ على الصلاة ويقرأ القرآن ويذهب يوميا للمسجد .. ويقول إنه تعلم في بريطانيا وعاش فيها سبع سنوات درس واشتغل .. وهو صاحب مشاريع كثيرة ويرعى دور أيتام وفقراء

فقالت روبيكا : أسرة عمي متماسكة .. الصغير يحترم الكبير ، بل زوجتاه رائعتان جدا جدا تحبان بعضهما حبا صادقا ومدهشا ، فقد حدثتني سهام ابنة أنعام عن ذلك .. وأن الأولى سعت وشجعت في تزويجه من الأرملة بدون غيرة وخوف .. والله التعدد يا مايكل أحسن من كثرة العشيقات كما هو معمول به عندنا .. ما أكثر الخيانات الزوجية عندنا ! .. لا أظن أن أحدا لم يخن زوجته في بلادنا .. والعكس صحيح .. أسرنا متفككة غير مترابطة تحمل اسم العائلة فقط .. انظر أمك لا تزور والدها إلا إذا احتاجت لشيء منه ، وأحيانا في أعياد الميلاد ونحن نعمل مثلها .. علمت أشياء مهمة عن الإسلام .. نحن نجهل الكثير عن هذا الدين .. ولا نفهمه بطريقة هؤلاء الناس .. إنني أفكر بإضافة شهر آخر للرحلة

فقال مايكل : أما أنا لا أستطيع يا روبي .. زوجتي لا تحتمل أكثر من ذلك .. ابني جاك أنا مشتاق إليه

ـ عد كما تشاء ، سيرحب عمي ببقائي يا مايك .. أرجو أن نـقضي إجازة ممتعة في هذه الصحراء

ولزموا الصمت فقد أخذ الدليل السياحي يخاطبهم ، فأصغيا إليه يتتبعان ما يردده أمام الفوج السياحي ، بعد أسبوع من التـفرج على الأحجار القديمة وآثار الرومان واليونان وغيرهم من الأمم البائدة عاد الأخوان إلى قصر عمهما عمري ، فقام بمرافقتهما في جولة خاصة على دور الأيتام ، وبعض المدارس الخاصة التي يقوم برعايتها ، فتعجبا من قدرة عمهما على إدارة هذه المشاريع والمدارس ، فرأى الشابان الجانب الخيري الكبير من حياة عمها ، وأنه يتعاطف مع الأيتام والفقراء وأصحاب الحاجات والمرضى من غير منة وطلب شهرة ، فاكتشفا أشياء مثيرة للأحاسيس ومشاعر المحبين له وحب العاملين بجواره له ، وقال مايكل لأخته معجبا بحياة عمه وأعماله الانسانية : هذا الجانب الذي يجب أن يركز عليه كل غني ، كل مشروع ناجح

يقابله مشروع خيري وإنساني

ولما علمت عائشة بعودة روبيكا استأذنت زوجها بمصاحبتها حتى تغادر البلد ، فساعدتها بتوفير أهم مصادر العلم الإسلامي من كتب الحديث النبوي والتفسير والسيرة والتاريخ والعقيدة والفقه ، واشترى لها عمها كثيرا من المراجع العربية ، وما وجده من الكتب الإسلامية باللغة الأجنبية ، وشجعها على تعلم العربية حتى تستطيع فهم الدين الإسلامي ، واختارت لها عائشة عددا من المراجع العربية المهمة في اللغة ، ورغبها عمري على العودة ثانية بعد نيل شهادة الماجستير ، وكان يستميلهما للحياة بقربه ليحاول عودتهما لحظيرة الإسلام بعد كل هذه الضياع فهم لا يعرفون عن الإسلام شيئا ، فقد أخبرت روبيكا أن الذي حبب إليها الكتابة عن الإسلام والمرأة المسلمة .. أنها اكتشفت على كبر أن دين والدها الإسلام .. لقد كانت تقرأ في مكتبة الجامعة عن الإسلام فلا تجد شيئا في أسرتها من الإسلام ، وأحيانا عندما تلتقي بوالدها تسأله عن الإسلام ، فلا تجد عنده شيئا إلا بعض الكلمات العامة المبهمة ، والسبب الثاني أن لها زميلات في الجامعة مسلمات وأكثرهن من القارة الهندية وإندونيسيا .. فتلاحظ صلاتهن وصيامهن ولباسهن ؛ ولكن لا معلومات كافية لديهن عن الإسلام سوى طقوس تعلمنهن من أسرهن ، وعندهن القليل من اللغة العربية الركيكة .. وكانت تحاول أن تعرف الإسلام من الدكاترة المختصين في الجامعة ، والمهتمين بالاستشراق والمسلمين ، فاقترح عليها أحد الدكاترة الكتابة لنيل شهادة الماجستير عن المسلمين والمرأة المسلمة ؛ لتتعرف على الإسلام وتكسب الشهادة ، فوافقت وبدأت تعد نفسها لذلك .. فحاولت أن تستفيد من إسلام أبيها ، فوجدته أميا في دينه لا يعرف الصلاة ولا الزكاة ولا الصوم ولا شيء عن الدين ، وأنه كان يعيش في أسرة لا تفقه عن الإسلام شيئا ، ولما أتى هذه البلاد كان فارغا من الثقافة والمعرفة الدينية ، فانصهر في المجتمع الأمريكي انصهارا كاملا ، وبعد زواجه من سيزانا نسي أمته وجذوره ، فلم يفدها سمري بشيء سوى أن نصحها بالسفر إلى بلاد العرب ، ومقابلة عمها عمري شقيقه ، وأن عمها شيخ ويعرف الدين ، فسيفيدها في أطروحتها علميا وعمليا ، وشجعها مدرسوها على هذه الخطوة ، وقالوا لها : ترين المسلمات على أرض الواقع .. فكانت هذه الرحلة ، وكانت

تسمع من عمها ، ومن عائشة كما ذكرنا ، وساقها عمها إلى بعض المنتديات العلمية والمفكرين الإسلاميين ، وقامت بزيارة لبعض الجمعيات المختصة بالنساء والأسرة ، ورافقتها عائشة إلى بعض الجمعيات الإسلامية وكانت تقول لعائشة بعدئذ : إسلام متناقض في بلادكم .. ولما تسألها لم ؟! فتقول : الناس يجهلون الإسلام .. فعندما ندخل جمعية مهتمة بالمرأة وأحلامها وتحريرها وحقوقها .. تجديهن يتكلمن عن الإسلام بعموميات .. الإسلام مع حرية المرأة .. الإسلام مع استقلال المرأة .. الإسلام مع عمل المرأة .. ويرددن ما نقرأه عنكم في الغرب .. القوامة والتعدد الحجاب والميراث الكبت الجنسي العقد النفسية .. وعندما أجلس مع امرأة مسلمة محجبة مثقفة أجد لديها دفاعا جيدا ومقنعا لهذه الطروحات المختلفة وما تسمونه الشبهات .. ويقلن أن طبيعة المجتمع المسلم يخالف طبيعة المجتمع الكافر المجتمع الغربي .. وهذه الأعمال منسجمة - في رأيهنّ - مع طبيعة المجتمعات الإسلامية ولا يوجد اضطهاد للمرأة أو احتقار أو نقص من كرامتها أو عقلها وجمالها .. فيحق لها التملك والعمل والعلم واختيار الزوج المناسب الكفء كما هو عندنا .. وتجدينها موظفة وعاملة في المكان الذي يناسبها فسيولوجيا ونفسيا .. وعندنا النساء تعمل في المكان المناسب والذي ترغب ؛ ولكن هناك إشكاليات في النظام الاقتصادي عندكم ، فعندنا الربا مباح والاحتكار وكل ما يباح بالقانون فهو مشروع .. وعندكم النظام الاقتصادي مهلهل بين الرأسمالي والاشتراكي والإسلامي

قالت عائشة : نحن الممنوع عندنا حق لله ولرسوله .. فما أحله الله وأجازه الله فهو المباح ، وما حرمه الله فهو حرام .. مهما تحايل الناس على تحليله .. فهو حرام .. فأيهما خير قانون الله خالق الإنسان أم قانون البشر الذي هو مخلوق زائل ؟! .. وهل يكفي يا روبيكا أن نتحدث عن عدالة وجمال الإسلام ولا نطبقه ؟! .. فنساء الجمعيات في بلاد المسلمين أي المتخصصة بالمرأة ووضع المرأة يأخذون من الإسلام ما يوافق هواهم لدعم مقولاتهم في الندوات والمحاضرات ، ويأتون بشواهد شرعية في قضايا معينة ، والشاهد للأسف بعيد عن ذلك الاستدلال ..فأصحاب الهوى هكذا يطبقون القضية أو الشيء ثم يأتون بما يناسبه من الكلام العام .. مثلا قضية الحرية الشخصية يأتون بأقوال إسلامية مأثورة لا إكراه في الدين فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر

للتدليل على حرية الدين والعبادة .. وينسون أنه محرم على المسلم تبديل دينه .. وقيسوا على ذلك مسألة السفر والمحرم ، فيدّعون أن هذا ضد الحرية الفردية ، ولم يبحثوا بالحكمة والفائدة من وجود المحرم أثناء السفر .. الإسلام دين كامل متكامل .. جماله وحسنه في ممارسته .. ممارسة الصلاة تغطي جانبا مهما من حاجات الإنسان البدنية والروحية ، وقبل ذلك طاعة لله الآمر بها والزكاة طاعة أولا وثانيا تسديد حاجة الفقراء والضعفاء، ولها حكم أخرى من طهارة النفس ونمائها وتزكيتها ، وحتى لا أطيل عليك فخذي إقرئي قصة هذه الفتاة العالمة في الذرة وهي فتاة إنجليزية ، وكيف اعتنـقت الإسلام .. فقصص المهتدين فيها لطائف جميلة ومثيرة

أخذت روبيكا الورقة المطبوعة من يد عائشة وأخذت تقرأ قراءة ذاتية صامتة :

((قصة إسلام الدكتورة كريستين جاك هيلين عالمة الذرة البريطانية

ولدت هذه العالمة الانجليزية لأسرة نصرانية ثرية ، ألحقها والدها بأرقى المدارس .. ، وهذه الطفلة التي ولدت ، وتربت في مجتمع نصراني ، لم تعلم شيئا عن الدين الإسلامي دين الله الخالد ولكن قدرة الله تعالى وعنايته ورعايته شاءت أن تذهب هذه الطفلة الجميلة ـ وهي دون العاشرة من عمرها ـ في رحلة سياحية إلى بلاد الهند التي تلتـقي في أراضيها أكبر مجموعة من الملل والنحل ، بلاد كانت تخضع لبريطانيا العظمى ، علمت أن هناك دينا عالميا اسمه الإسلام يعتنقه ملايين الناس ، وشدها ما رأته من وجود علاقات من نوع فريد تربط بين الأسر المسلمة .. الود والإخاء ، ومع حداثة سنها أدركت الفرق بين مجتمعها النصراني والمجتمع المسلم المتماسك ، وكان أكثر ما شدها ، وقوفهم في صفوف متراصة في سكون وخشوع حين يؤذن المؤذن للصلاة وأحست كريستين في قرارة نفسها أن هذه الطقوس التي يمارسونها غير غريبة عنها ، وأنها تعرفها منذ ولادتها ، ووجدت نفسها منجذبة إلى تعلم صلاة المسلمين ، وتؤديها معهم كأنها واحدة منهم ، وبدأ كأن نداء خفيا يدعوها للتردد على المساجد التي تعلق بها قلبها دون أن تدري سر هذا التعلق ، والأسرة أسرة كريستين عدت ذلك شقاوة أطفال ولعب ولهو أو هواية يمارسها طفل ، ولكن حب الإسلام تغلغل في أعماق الفتاة الصغيرة ، فلما شبت عن الطوق أخذت تسعى إلى معرفة هذا الدين القيم ، فأخذت تقرأ عنه ، وبدأت تدرك أن دين الإسلام هو

الدين الحق ، وأن الله اختاره لعباده .

عندئذ أحست الأسرة وأدركت أن ابنتهم تجاوزت مرحلة اللهو ، وأن تعلقها بالمساجد الاسلامية ليس هواية بل صار عقيدة تؤمن بها ، فتملك الأسرة رعبا وخوفا أن تهجر الفتاة دين آبائها وأجدادها وتعتنق هذا الدين الوافد من الشرق .. دين أهل الصحراء والبادية ، فهنا عمد الأهل إلى إقناعها بتحويل دراستها الجامعية إلى الجانب العلمي البحت ظنا منهما أن دراسة العلوم بما فيها من جفاف مادي ربما يبعد بابنتهما عن متابعة التعلق بالجانب الروحي للإسلام ، وينأى بها عن خطر التحول عن دينها النصراني ، وهذا التوجيه من الوالدين لم يجد معارضة لدى كريستين لأنها في أعماقها كانت تحب العلم ، وأن طلبها له لم يكن ليعارض ميولها ، لمعرفتها من خلال قراءتها أن الإسلام يدعو إلى العلم ويحث عليه ، فاستجابت لتوجيه الوالدين بسرعة فاستراح قلباهما وابتساما ابتسامة رضا ظنا منهما أنهما نجحا واستطاعا أن يبعدوا بها عن الإسلام .

لكن العلوم العلمية ساعدتها كثيرا في معرفة الله تعالى ، فوجدت نواحي العظمة والإعجاز في خلق الكون ... وزادها ذلك قربا من الله تعالى ، وحين رأت الأسرة أن سعيها قد خاب وأن كريستين زاد قربها من الإسلام بدراستها العلمية ، فحاولوا بشتى الطرق أن يعيدوها للظلمات ثانية ؛ لكن هيهات أن يدع القلب المؤمن النور إلى الظلمة مرة أخرى .. وكمحاولة أخيرة لردها عن الإسلام ، أحضرت الأسرة لها شابا نصرانيا ليتزوجها لعل في زواجها منه ما يردها إلى عقيدة النصارى ؛ لكنها رفضت الشاب بشدة ولم تقبل الارتباط به ، وسعت لأن تجد زوجا مسلما يحمي روحها من الردة ، فجاء ذلك على يد شاب مسلم هندي ، تزوجته على سنة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وأشهرت إسلامها ، وغيرت اسمها إلى أمينة محمد كيرال .

أمينة محمد كيرال تحيا اليوم حياة زوجية آمنة مطمئنة ، وتنعم روحها بالسلام والهدوء والسكينة وقد أنعم الله عليها وعلى زوجها بثلاثة ذكور أسمت أولهما محمدا وثانيهما عمر والثالث عبد الله وحرصت هذه المرأة المسلمة على تربية أولادها على قيم الإسلام وتعاليمه ، وهذه قصة إسلام عالمة الذرة البريطانية الشابة الدكتورة كريستين جاك هلين .. والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء

وهو الهادي إلى سواء السبيل))

كانت عائشة وسهام ترشفان الشاي ، ويتتبعان حركات وتفاعلات روبيكا المسلمة بالاسم لقصة كريستين النصرانية التي دخلت في دين الله الخالد الإسلام ، فلما أنهت الفتاة قصة عالمة الذرة وضعت الورقة على الطاولة التي يجلسون حولها ونظرت للفتاتين وقالت : قصة عظيمة يا عائشة ! .. واعلموا أيضا أن من أسباب اهتمامي بالإسلام .. إسلام أحد دكاترة الجامعة أستاذ كبير في الفلسفة .. فبهرني ذلك لأنني أعرفه شخصيا ، فقلت لنفسي الكفار يسلمون ، ونحن نبتعد عن الإسلام .. لماذا؟ هل من جواب يا عائشة ؟!

أخذت سهام الورقة المكتوبة بالإنجليزية ، فقالت لها عائشة : أنا ترجمتها عن مجلة عربية لتقرأها الأخت روبيكا .. فهي موجودة باللغة العربية يا سهام

قالت سهام باسمة : سأقرأها أنا أعرف الإنجليزية جيدا

ـ إقرئي يا حبيبتي

فقالت روبيكا وهي تشير لسهام التي أخذت الورقة وابتعدت عنهما : إنها فتاة ساهمة حائرة هل من شيء يقلقها ؟ .. أراكم بيتا مسلما نموذجيا طيبا رائعا .. لا أقول ذلك مجاملة

تبسمت عائشة وقالت : هل لاحظت ذلك على سهام ؟

ـ أجل

ـ لا يخلو إنسان من مشاكل وهموم ، مع ما فيه من السعادة والنعيم .. كيف عرفت ؟

ـ إنها تتحدث بمواضيع متقطعة .. نتكلم بموضوع ثم تنتقل لغيره .. فهذا يدل على انشغال البال .. فالانتقال من موضوع إلى آخر بسرعة وبدون أن ينتهي الأول يدل على عدم التركيز وانشغال الذهن

ـ ملاحظة مهمة !

الريحانة من جديد

عقد السيد عمري اجتماعا كبيرا ومهما حضره كبار رجال مجموعة عمري محمود في قاعة الاجتماعات في بناية الشركة في شارع قطز ، وقد أطلعهم على رغبته بالاعتزال والتقاعد وترك الإدارة والعودة للريحانة والاستقرار فيها والتفرغ للعبادة فيما بقي من سنوات العمر ، وأعلمهم أنه سينقل كل صلاحياته الإدارية والمالية لابنه المهندس أسامة عمري ، وحثهم على التعاون الصادق معه كما تعاونوا معه هو شخصيا لتستمر هذه المشاريع في العطاء والإنتاج ، وشكرهم وحثهم على الوفاء لابنه ، وطمأنهم بأنه رغم تخليه عن المسؤوليات الهامة فإنه سيكون قريبا منهم بوجدانه وملاحظاته ، وبعد خطابه المتواضع صافحهم فردا فردا ، وتم نـقل الإدارة والقيادة للمهندس الشاب أسامة الذي وقف أمامهم شاكرا لوالده على ثقته الكبيرة به ، ووعدهم بأن يظل وفيا لمبادئ وسياسة والده في السخاء والعطاء وزرع الخير في كل مشروع ومؤسسة .. وأن الحلال الطيب والأخلاق الحسنة من أهم مقومات النجاح ، وأن رضا الله سبحانه أهم من رضا العبيد وإغراءات المال والدنيا ، وأن العفو والمسامحة من طباعه كما كانت من طباع والده الفاضل ، وأمل أن لا يجدوا تغييرا كبيرا في تسلمه لمنصب والده ، وشكرهم وحثهم على التعاون على البر والتقوى كما تعاونوا مع أبيه بصدق وإخلاص ، ثم تناول الحاضرون ما أعد لهم من طعام وحلويات بمناسبة وداع رفيقهم ومديرهم عمري ، وصعد أسامة إلى مكتبه في الطابق السابع ، ومر عمري على المكاتب مودعا للموظفين ، ثم خرج مع سائقه مودعا مكاتب مجموعته التجارية والاستثمارية ، وكله أمل باستمرار أسامة بقيادة السفينة بنجاح وتقوى ، ولما وصل البيت ودع الحارس والسائق وأكرمهما ببعض المال ، ووصاهما على ولده أسامة ، فبكى الرجلان من حسن معاشرته لهمـا خلال السنوات الماضيات ، ووعداه أن يكونا عند حسن ظنه مع فلذة كبده المهندس أسامة .

ولما دخل البيت وجد مايكل وشقيقته روبيكا يستعدان للسفر بعدما أمضيا شهرا في حضن عمهما الدافئ ، فقال لهما : ألا ترغبان بالبقاء في بلاد الآباء حيث الدفء العائلي والإسلام والحب ؟

فقال مايكل ضاحكا وغامزا : لا أرى اختلافا كبيرا بين مسلمي بلادكم عن إسلام مهاجريكم إلى الغرب ، فكثير ممن التقت بهم روبيكا من رجال الجمعيات ونسائها لا يعملون بطقوس الإسلام .. يريدون تحرير الناس ، وهم لا يمارسون الإسلام العملي .. وتقول حتى أنهم لا يعرفون مبادئ الإسلام الأساسية .. وتـقول أن الداخلين في الإسلام في أمريكا ربما يكونون أفضل منهم ، فهم يمارسون شعائر الإسلام بحرارة ، ويدافعون عن الدين أكثر منهم .. أما هؤلاء فهم المسيئون إليه بجهلهم وظنهم أن لسانهم العربي يظهرهم حملة لدعوة الإسلام .. ولكنها مسرورة منك ومن أسرتك يا عمي .. وشتان بينك وبين أبينا ، فهو رحل للغرب ، ولا يحمل شيئا من دين الآباء .. لا صلاة ولا صوم ولا إيمان .. هذه أعمال لم نعرفها إلا هنا خلال هذا الشهر .. حتى بدأنا نـفكر بدخول الإسلام من جديد يا عمي

ـ ادخلوا ولماذا لا تدخلون ؟ ! .. المفروض ألا يسافر للغرب إلا من كان مسلما حقيقيا ليؤثر في الآخرين ؛ ولكن أكثر المسلمين يذهبون إلى هناك وهم عصاة في بلادهم وغايتهم المال أو الشهادات العلمية وتعويج اللسان بلغة هؤلاء يا ولدي .. وفاقد الشيء لا يعطيه .. فوالدك ذهب للدراسة كما ذهبت أنا من قبل لبريطانيا ، ولم أكن أنا ولا هو عندما سافرنا نعرف شيئا عن الصلاة .. فلم نسمع أن والدينا ذاك الزمان صليا لله ركعة أو سجدة .. فماذا سنعطي من نجلس معهم هناك من ديننا ؟ .. بل عشقنا النساء والعبث ، فأنا عدت وبعد ضياع تبت ، وأخذت أتعرف على ديني ، ووفقني الله سبحانه بفضله وكرمه .. وأما سمري فانغمس في حياة الأمريكان وأعجب بها وغرق في العمل والمحاضرات .. كما تعرفون .. ولم يفكر يوما بدينه وتعاليم دينه وقيمه .. فعلا يا أبنائي أنتم محتاجون للدخول في الإسلام من جديد .. ذكرتموني بقصة هندوسي متزوج من مسلمة وهذا حرام شرعا .. المهم أن الرجل أسلم وأعاد زوجته للإسلام

فقالت روبيكا : أنا سعيدة بكم يا عمي ! ولسوف أفكر بما قلت وقلتم .. فالتخلص من رواسب الماضي وعادات اكتسبناها ليس بالأمر الهين .. سنبقى على اتصال دائم ، وأنا قد أعود إليكم ثانية يا عمي بعد إنهاء أطروحتي .. فقد أحببتكم وأحببت أخلاقكم .. فأريد أن أتعلم

لغتكم ، لا أدري لماذا لم يحاول أبي تعليمنا لغته العربية ؟! .. لقد انصهر انصهارا كاملا في مجتمع الغرب .. حتى اللسان الأمريكي أخذنا أكثره من المربية الأمريكية التي كنا نقضي معها أكثر الوقت .. فلم نكن نسمع ألفاظا عربيا لنفكر بالعربية والعرب ، لقد كان أخوك جاحدا للغة الأجداد .. فهناك من الطوائف والملل في أمريكا رغم العقود التي مرت عليهم ما زالوا يحافظون على لغتهم الأصلية فيما بينهم يتعلمونها ويتكلمون بها .. وحتى بعض الجاليات العربية تفعل ذلك

وتناولوا العشاء الأخير مع الأسرة ، ولما اقترب موعد الطائرة عانقت الفتاة عمها وقبلت يده كما يفعل الأبناء ، وسلمت على نساء عمها وعلى عائشة وأحلام وسهام وريمان ومريم وهند وحيت الدكتور حمزة والمهندس اسامة ، وعانق مايكل عمه ، ودعاه لزيارة أمريكا ، وصافح ابن عمه اسامه وقبله ، وفعل مثل ذلك مع صهرهم حمزة وعانق محمدا ابن عمه ، وحيا النساء والبنات ، وكان حسن في انتظارهم بسيارته أمام مدخل الفيلا ـ وكانت عائشة قد أرسلت الكتب التي اشتراها والدها لروبيكا بطرد كبير إلى فيرجينيا قبل السفر إلى عنوان روبيكا ، وكانت روبيكا ومايكل قد قبلا الهدايا التي قدمها لهم عمهم وأولاده وبناته ، لهم ولوالدهم ولأمهم ولزوجة مايكل وابنه الصغير جاك ، ووضعت الحقائب بما فيها من أوراق وكتب قليلة في صندوق السيارة ـ وسار بهم حسن نحو المطار ، ولما جاء موعد ركوبهم الطائرة ، ودعهم حسن وتمنى لهم رحلة سعيدة ، وحثهم على العودة في أقرب فرصة ، وودعوا حسنا ، ودعوه لزيارتهم في أمريكا ، فقال : قد يحصل هذا .. ولكن بعد إنهاء الدراسة

*****

بعد مغادرة الضيفين خاطب عمري أفراد العائلة الحاضرين وأطلعهم على رغبته بترك العاصمة والعودة ثانية للريحانة والاستقرار فيها ، فهو قد أحبها وبدأت حياته الحقيقية منها ، وما زال لها محبة في قلبه ، وما زال يتردد عليها بين الحين والآخر ، ويقضي بين ربوعها عددا من الليالي والأيام ، وكانت زينب وأنعام على علم بهذا القرار آنف الذكر ، وكان الترتيب أن تبقى مريم ومحمد في الفيلا تحت رعاية الشغالة أم احمد ، وأيضا تحت حماية الأخوين أسامة وحسن ،

فأسامة سوف يرحل للحياة في الفيلا ، ولم يكن هناك إلا مشكلة سهام ، ولكن سهام ماهر حسمت الأمر ووافقت على الرحيل معهم ؛ لأن بقاءها قد يؤدي لبقاء أمها ، وأما أحلام فهي في الأيام الأخيرة من الجامعة ، وخطيبها ينتظرها في الريحانة مع أمه بدرية .

رجع عمري بعد أكثر من عشر سنين قضاها في العاصمة ، عاد إلى المدينة التي بدأ منها حياته العملية ومشاريعه التجارية والخيرية ، واستقر في الفيلا التي بناها في ضاحية الصالح ، وكان العمال قد نظفوها وأعادوا صيانتها ودهانها من جديد وهيئوها لعودة السيد الكبير ، وكان في استقبالهم أختيه قمرية وولديها وبدرية وأولادها وأزواجهما ، واحتفل القوم بعودة خالهم احتفالا متواضعا ، وسر عمري بعودته للريحانة للبقاء فيها حتى النهاية ، فكان يستيقظ في جوف الليل ليصلي عددا من الركعات تهجدا لله وشاكرا لأنعمه سبحانه وتعالى ، ثم يرقد حتى توقظه زينب أو أنعام لصلاة الفجر ، فينهض ويتوضأ ثم يسير ومعه الخادم أو الحارس أبو خالد نحو المسجد الذي لا يبعد عن البيت أكثر من مائتي خطوة ، فعمري يحب مجاورة المساجد ، فيصلي مع الشيخ الإمام ، وإن جلس المصلون لصلاة الضحى والشروق جلس ، وإن انصرفوا انصرف ، فإذا عاد للبيت يجلس لتلاوة القرآن ، وأحيانا يستمع لتلاوة المشايخ من جهاز التسجيل ، ثم يصلي ركعتي الشروق ، وتحضر زوجتاه أو إحداهما للحديث معه ، ويشربون اللبن الحليب أو القهوة ، ثم يدخل المكتبة للقراءة أو يدخل حجرة النوم فينام ساعة أو ساعتين ثم يصلي الضحى ويجلس مع زينب أو أنعام حتى الظهر فينطلق لصلاة الظهر ثم يعود للبيت ويعود للقراءة في كتب التاريخ والسير .

كانت حياة صديقنا الاستاذ عمري هادئة طيبة كما رسم وخطط ، وفي المساء يسير حول الفيلا أو داخلها أو يقوم بزيارة لصديق أو صاحب، وبعد صلاة العشاء يجلس في الحديقة إذا كان الطقس دافئا ومنعشا ، ويتعشى عشاء يسيرا مع زوجتيه وسهام أو ضيوفه من أخوات وأصهار وغيرهم ، ولقد كان سعيدا وفرحا بحياته هذه وشاكرا لله وراجيا منه سبحانه دوام العافية والغنى ويسأله حسن الختام ، وكان يدعو الله من أعماق قلبه أن ييسر لابنة أنعام زوجا صالحا ليرتاح ضميره وقلبه ، وذات مساء عندما أتت أحلام من العاصمة ، وأتى زوجها محمد الذي

لم يدخل بها بعد ـ فكتابهما الشرعي قد كتب في العاصمة ، ولم يبق إلا تحديد يوم الزفاف فقد أنهت أحلام اختبارات الفصل الأخير ، ولم يبق إلا الحصول على الدرجات وترك العاصمة ـ أتى محمد وأراد أن يخرج بخطيبته زوجته للعشاء في أحد المطاعم البحرية ، وبينما هم يأخذون الأذن من السيد عمري والسيدة انعام ، أحبت سهام أن تخرج معهم ، فرحبا بذلك وفرحا بهذه الرغبة ، وركبوا سيارة محمد وتجولوا في شوارع المدينة ساعة من الزمن ، ثم اتجهوا إلى أشهر مطاعم المدينة وأكبرها وتحت شجرة على مائدة جلسوا ينتظرون الطعام الذي طلبوه ، ولما بدأوا يأكلون لمحت سهام على مائدة قريبة فتاة كانت تدرس معها في الجامعة اسمها فايزة ومعها فتاة أخرى ، ولما أتمت أكلها استأذنت من زوج أختها لتسلم على زميلتها في الجامعة ، ولما رأتها فايزة دهشت بداية ثم عانقتها عناق الأحباب والأصدقاء بعد طول غياب ، وفايزة كانت من زميلات سهام ورفيقاتها في الكلية وفي المناسبات والرحلات ، ولقد كانت تعرف ما بينها وبين فواز من الود ، بل كانت من الصديقات المقربات لفواز ومنال ، فكان فرحها كبيرا بلقائها ، فبعدما انتهت المجاملات والابتسامات ، وعرفتها فايزة على الفتاة التي معها فهي قريبة لها ، وأشارت سهام لأختها وزوجها بعروسين ينتظران ليلة العرس ، وشرعن يتذكرن أيام الكلية والزملاء وأخبارهم حتى وصلت سهام إلى الذي تريده ، فأتت على سيرة فواز فقالت مظهرة عتبها ولومها على فواز : رغم ما كان بيننا من الانسجام والود يا فايزة .. ولكن منذ تخرجنا لم أره .. ما أخباره هذه الأيام ؟

ضحكت الفتاتان ، وقالت فايزة : هو بخير يا حبيبتي .. هو التحق ببرنامج الماجستير كما كان يحدثنا ، ووالده أصر على دراستهما للماجستير هو ومنال .. ومنال تريد أن تصير دكتورة وكذلك فواز .. هكذا رغبة الوالد

ـ أنا أحيانا أتصل بمنال .. وكلما أحاول اللقاء بها تتـعذر بمشوار والعمل

ـ هي بخير ، وقد تخطب قريبا .. فهناك شاب من العائلة راغب بالاقتران بها .. وقد يحدث ذلك قريبا

ـ رغم اتصالي بها من فترة يسيرة لم تخبرني بذلك .. ثم جاءت للسؤال الخطير وقالت :

وفواز ألم يتزوج أو يخطب ؟

فكان الجواب قاسيا ومؤلما وقالت فايزة ببرود : تقريبا تزوج

فايزة تعلم ما كان بين فواز وسهام ، فلذلك لم تستغرب من تلون وجه سهام ، بل ربما كانت مشفقة عليها في تلك اللحظة وهي تصارحها بذلك ، ولما قالت سهام : كيف تقريبا هذه

حركت فايزة خاتما بإصبعها أمام عيني سهام ، وقالت بهدوء مفتعل وهي تنظر في عيني سهام : نحن خطبنا يا سهام .. وأنت ألم تخطبي ؟

بلعت الفتاة ريقها وهمست : أنتم خطبتم ؟!

ـ أجل ، ولم أنت مستغربة ؟ .. لقد كنا متـفقين على ذلك من أيام الكلية

فقالت باستغراب واضطراب : متفقون من أيام الكلية ! .. هذه أخبار جديدة ؟

تبسمت فايزة وقالت : أنت طيبة يا سهام .. فواز كان يعبث بعواطفك كان يخبرني بذلك كان يحب السخرية من البنات ، فكان يقول لي إن سهام متعلقة بي وتظن أنني قد أتزوج فتاة مثلها ويأخذ بالسخرية من ملابسك الطويلة والغريبة

ـ إنك كاذبة يا فايزة

ـ أنا أعرف بكثرة اتصالاتك بمنال ، وطلبك من فواز أن يسعى لمقابلة زوج أمك وأمك .. ولكن تردده وعدم تلبيته لهذا الطلب كان يجب أن ينسيك يا سهام .. أنا أتكلم معك بهذه الصراحة لتنسي ولا يبقى عندك الأمل والوهم .. وأنا لمت فوازا كثيرا ، وطلبت منه من أيام الكلية أن يصارحك بحقيقة مشاعره

ذرفت سهام الدموع وقالت كأنها ما زالت متشككة بما تسمع : أين الألفاظ والكلام الذي كان يسمعني إياه ؟! .. وما دام بينكم حب كما تدعين لماذا تسمحين له بذلك ؟

ـ لم استطع منعه .. كنا طلابا ، والظرف لا يسمح لي بتحديه وتحدي رغباته ونزواته .. ولم يكن بيننا عقد زواج أو خطبة ، إنما هي وعود كالتي كان يوحي بها لك ولغيرك

ـ لماذا لم تقولي لي ذلك ؟!

ـ كان يهددني بالتخلي عني .. أنا آسف وأنا أقول لك ذلك ، وكان عليك أن تدركي أنه غير

جاد معك .. ألا ترينه يكون معي وعندما يراك يستأذن وينصرف وهو يتوعدنني

ـ وأخته منال ؟

ـ لا أدري ماذا أقول لك ؟! ولولا هذه الصدفة وسؤالك عن ذلك لما تكلمت ، لنا أكثر من سنة متخرجون ..ولم يظهر لك ودا ، ويتهرب من هواتفك، ألم تقتنعي بعبثه وسخريته ؟!

ـ لا أدري ، يبدو لي أنني حمقاء ساذجة ، ولا أعلم أن في العواطف سخرية ومقالب

ـ أنا أعجب من تعلقك به .. فصدقي أنني أكثر من مرة قلت له كفاك استهزاء بسهام فإنها رقيقة لا تعرف اللف والدوران فلم يقتنع بل ادعى أنك تعرفين عبثه

مسحت الدموع المتساقطة وقالت : أشكرك يا فايزة .. أشكر الله أن سخر لنا هذا اللقاء لأعرف الحقيقة التي كان يجب أن أدركها قديما ؛ ولكنكم ظلمتموني .. أنت ومنال شريكتان في المؤامرة لماذا سكتم كل هذه السنوات ؟

ونهضت وقبل أن تنصرف قالت بغيظ وحزن : الله يقتص من الظلمة ومن الذين يعبثون في عواطف البسطاء

ـ أنت مسكينة جدا يا سهام .. قد يأتي فواز واسمعي منه .. ولا تظني أنني مغرمة به ، قد تكونين أنت مغرمة به أكثر مني .. ولكني أعرفه قبل الجامعة فوالدي صديق والده .. ولم تتم هذه الخطبة بسبب ما يدعيه من الحب .. فواز لا يعرف الحب الحقيقي هو عابث ، وكان يجب أن تظل الفتيات حوله في الجامعة وأمام الزملاء .. وصدقي لو تقدم لي شاب غيره لقبلته ورفضت فوازا غير مأسوف عليه .. ولكن إرادة ورغبة الأسرتين .. لا تدعي عليّ يا سهام

فقالت سهام : إنك صريحة جدا

ـ اتصلي بمنال وخذي الحقيقة منها

فقالت سهام : لا داعي للحديث مع منال .. تجربة مؤلمة .. ولكن الحمد لله على كل حال .. فحياتكم كلها عبث .. وتؤكد لي أن أفكاركم وهم في وهم .. كان يريد مني أن أتبرج وأخلع ثياب العفة ليتفرج على محاسني ويلهو بي .. لقد تغير حقا لما بدأت ألبس الجلباب .. كان يظهر الاشمئزاز والنفور من ثياب البدو والتخلف .. أشياء كثيرة الآن فهمتها .. لعنه الله ، قولي له

إنني سوف ألعنه وألعنه .. العابث بمشاعر الناس وأحاسيسهم والمخادع والممثل .. إنني ألعنه

وانصرفت باكية تمسح دموعها ، ولما عادت حيث تجلس أختها أحلام وزوجها محمد لاحظا الدموع على وجهها فاستغربا ذلك ، فقالت أحلام : أنت ذهبت تتحدثين مع زميلتك فعدت باكية .. هل من ميت ؟!

وقال محمد قلقا : سهام .. أقلقتنا ما سبب هذا البكاء ؟

جلست وأخذت تبكي وتتنهد ثانية وقالت : أريد العودة للبيت .. إنني أحس بدوار في رأسي وصداع

فذهب الشاب نحو البنات بسرعة وقال : مساء الخير .. معذرة .. لماذا تبكي سهام ؟

نظرن إليه بدهشة وقالت فايزة : لا شيء

ـ كيف لا شيء ؟ ! .. هل يبكي الإنسان بدون سبب ؟!

ـ ألم تقل لكم شيئا ؟

ـ لم تقل شيئا

وكانت سهام وأحلام قد تبعتا محمدا وقالت سهام : هيا يا محمد .. دعك من البنات .. آسف جدا يا فايزة

ـ ولا يهمك .. نحن أيضا آسفون

وأخذت سهام وأحلام محمدا وخرجوا بعد أن ترك محمد مبلغا من المال على مائدة الطعام وهو يقول : لماذا لا تريدين الكلام يا سهام ؟

فقالت وهي ما زالت تمسح دموعها وتشرق بنفسها : أمر خاص يا محمد أرجوك

فقالت أحلام : يبدو يا محمد أن فايزة هذه أتتها بخبر سيئ عن صاحبها فواز

فصاحت سهام بحدة وضيق شديد : أرجوك يا أحلام أن تصمتي .. شيء لا يخصك ولا يعنيك فواز أو الشيطان لا دخل لكم

أخذ محمد يتعذر لها ويهدئ من روعها ويقول : نحن آسفون ، حقك علينا .. لا تغضبي منا

ولما وصلوا الفيلا والصمت قد خيم عليهم طول الطريق ، كان عمري وزوجتاه ما يزالون

يجلسون في الحديقة يتسامرون ويأكلون الفواكه ، فأتت إليهم أحلام ومحمد ، ودخلت سهام إلى حجرتها ، فلما ألقيا السلام وجلسا ، سألهم عمري عن سهام لماذا لم تأت معهم ؟ فقال محمد : لسنا ندري .. كنا نتعشى في المطعم البحري وأثناء الأكل شاهدت فتاة قالت أنها زميلتها أيام الجامعة والكلية وبعد الطعام مشت إليها وجلست معها ، وبعد حين عادت إلينا باكية ، وحاولنا أن نعرف السبب ، فلم تتكلم، ومنعتنا أن نعرف من تلك الفتاة .. وادعت أنها مريضة لا أدري يا خالي ما حكاية هذه البنت

فقالت انعام : هل عرفت شيئا يا أحلام ؟

ـ لا يا أمي .. ولكن يبدو أن هذه الفتاة المسماة فايزة .. تعرف ذاك الشيطان فوازا

فقال عمري : هونوا عليكم .. سهام أحاسيسها مرهفة ومشاعرها رقيقة .. اذهبي يا أنعام وتكلمي معها .. أصحاب الحس المرهف يتأثرون بسرعة ويبكون لأي خدش يلمس مشاعرهم

فنهضت أنعام وقالت زينب : لا تتأثروا بما صار .. متى سنفرح بكم يا محمد ؟

فقال : أمي مستعجلة .. ونحن ننتظر تحديد خالي لليلة الزفاف

فقال عمري مبديا عجبه : أنا .. ولماذا ؟!

ـ هكذا تقول أمنا الغالية .. أنت كبير العائلة الآن

ضحكوا لهذا الوصف ، وقالت زينب : متى تحبان أن يكون ؟ .. نهاية هذه الأسبوع يوم الجمعة ما رأيك يا عمري ؟

فقال عمري : أحلام ماذا تقول ؟

فقالت أحلام : أنا علمت أن محمودا قادم من أوروبا ، فقد أنهى الاختصاص كما علمت من أمي زينب ، فعندما يصل بالسلامة نحتفل بالزواج

فقال عمري : الجمعة إن شاء الله ؛ لأن محمودا قد ينزل النمسا لقضاء عدة أيام هناك ويقابل بعض الأطباء الكبار في فينا .. الجمعة مناسب يا محمد ؟

فقام فرحا يعانق خاله وهو يقول : الآن سأذهب وأخبر أمي وأبي .. السلام عليكم .. احلمي أحلاما سعيدة يا أحلام

في الصباح التالي تلقى عمري رسالة محمولة إليه من العاصمة ، وكانت رسالة من ابن أخيه مايكل وشقيقته روبيكا ، وكان فيها سلام وأشواق وشكر وإعجاب شديد به وبأسرته صغارا وكبارا ذكورا وإناثا ، وكان فيها أنهما التحقا بمعهد لتـعلم اللغة العربية ، فضحك عمري من ذلك ، وقال معلقا أهل اللغة يتعلمون لغتهم ! قاتلك الله يا سمري .. جنيت على نفسك وعلى وذريتك ثم تابع القراءة ، فقرأ أنهم يرغبان بعد إنهاء الدراسة في المعهد السفر إليهم والحياة بينهم لإتقان اللغة العربية ، وأن زوجة مايكل الأمريكية جان سمري متحمسة لذلك ، وأنها تحب الآداب العربية وقد تجعل رسالتها في الدكتوراه حول الأدب العربي القديم ، وفي الرسالة أيضا أن روبيكا قد تتقدم قريبا لمناقشة رسالتها وربما تأتي مع مايكل .

فكتب إليهم عمري رسالة مرحبا بهم وبمجيئهم في أي وقت ، وأنه سعيد بقدومهم جميعا ، ولا حرج ولا ضيق لديه من مجيئهم ، ثم اطلع على باقي الرسائل والبرقيات والمراسلات من الأصدقاء والأحباب .

ولما دخلت عليه زوجتاه يشربون معه القهوة ، حدثهم عن رسالة مايكل سمري وأخته روبيكا ثم سأل أنعام عن سهام فقالت بحزن : أمضيت ساعة أو أكثر أراودها فيها أن تتكلم عما جرى بينها وبين فايزة والفتاة الأخرى .. فتصرخ فيّ وتطلب مني الصمت وعدم حشر نفسي فيما لا يعنيني .. تصور أن حياتها لا تهمني ولا تعنيني ولا تخصني .. أنا يوم المنى عندي عندما أراها عروسا في بيت زوجها .. من هو الشاب الذي حدثتنا عنه مرة يا عمري

فقال بأسف : للأسف طال الانتظار فتزوج ، كان يحب الارتباط بأسرة الخابي من أي جهة كان النسب .. إنه المهندس وائل ابن الدكتور يوسف حسان .. شقيق امرأة محمود

فقالت بدهشة وربما صاحبتها حسرة : المهندس وائل ! .. وصديق أسامة الحميم .. كان كثيرا ما يكون مع أسامة إنها تعرفه

ـ أجل يا أنعام ! لما عرضت الموضوع عليه وعلى أبيه كادوا يطيرون من الفرح فاستمهلتهم إلى حين ، ثم قلت لهم بعدئذ إن الفتاة مضربة عن الزواج فتزوج وفقه الله سبحانه

فقالت زينب : قدر الله وما شاء فعل ، كل شيء نصيب مقدر .. نحن يجب أن نعرف ما حدث

لها مع تلك الفتاة الزميلة فايزة .. تكلم معها يا أبا محمود

فقال : أنا لا أحب أن تتحدث بشيء بالحياء والخجل يا زينب .. دعوها بضعة أيام .. اتصلت عائشة تقول أن أوراق خالتها التي أرسلتها لبعض مشافي ألمانيا وسويسرا قد جاءت الردود عليها .. فهناك مستشفى في إحدى ولايات سويسرا يرحب بمتابعة مرضها وعلاجها وأرسلوا لنا تكاليف العلاج التي يتقاضاها المستشفى والمصحة التابعة للمستشفى فماذا تقولين يا أنعام

ـ لا أعلم ما أقول .. يقول صابر إن حالتها النفسية تزداد سوءا وتدهورا .. وآلام الرأس تشتد عليها حتى تدفعها لخبط رأسها بالحائط ، ونقلها إلى إحدى المستشفيات فقضت سبعة أيام حتى هدأت ثم عادت للبيت .. وأمي هي الأخرى متعبة لآخر درجة .. وزواج أحلام على الأبواب بعد يومين .. وسهام أيضا .. استغفر الله .. حسبنا الله

فقال عمري مواسيا : أكثري من الاستغفار .. فالاستغفار رحمة وفرج .. سأتحدث مع الدكتور فائز صهرنا الحبيب إذا سمح لابنه محمد بقضاء رحلة مع حماته أنعام في ربوع سويسرا .. تذهبين أنت وأحلام ومحمد وسهام إذا أحبت .. فمنها تشرفون على متابعة حالة نوال وتتفرجون على تلك الجبال والأنهار والثلوج .. ومحمد شاب ذكي ويحب الحركة ونشط وتعلم في أوروبا

فقالت : وأمي ؟

فقال حازما الأمر : بقاؤك هنا لا يقدم ولا يؤخر على صحة أمك .. بعد الزواج سيكون السفر بإذنه تعالى .. اتصلي يا زينب بعائشة واطلبي منها أن تحول المال المطلوب إلى المستشفى وتؤكد الحجز لمدة ثلاثة أشهر .. وتوكلوا على رب العباد

فقالت أنعام : ثلاثة أشهر وقت طويل

ـ احتسبي ذلك عند الله .. قد نطل عليكم أنا وزينب بعد عودتنا من العمرة .. وقد نذهب إليكم من هناك

فتبسمت أنعام وقالت : الآن أنا متشجعة على السفر .. أنا لا أحب فراقك يا عين أنعام

فتبسم الجميع على غزل أنعام ، وقال عمري : نحن كبرنا يا أنعام على هذا الكلام .. والفراق قادم .. وكأس الموت لابد من شربه أيتها الحبيبة

ـ الحبيبة .. وأمام زينب يا عمري

فتبسموا مرة أخرى ، وقالت زينب : أنعام تحبك كثيرا يا عمري .. فهي تقول إن اليوم الذي يمر ولا ترى فيه عمريا أو تسمع كلامه تحس أنها خسرت يوما من عمرها وحياتها .. وتقول أن اليوم الذي ألزمها والدها بالزواج منك كان يوما مباركا ، ومن أفضل أعمال أبيها رحمه الله

وضحكوا قليلا وقال عمري : هذا من فضل الله سبحانه علينا مع أنها تزوجتني عجوزا

فقالت أنعام : والله إنني أحبكما جميعا .. فزينب سيدتي وأميرتي وملكتي .. هي أحلى امرأة في العالم يا عمري ! .. لم أشعر يوما أنها تغار مني وأني لها ضرة .. فقلبها أبيض وقانعة بالحياة قنوعا جميلا وعجيبا .. ولكنه الإيمان الذي يملأ قلبها .. وحبها لله سبحانه وحبها للرسول صلى الله عليه وسلم والسيرة العطرة .. وأنا لست مثلها

فقالت زينب وهي متاثرة بكلام شريكتها في زوجها : بل أنت الخير والبركة .. والسعادة بالإيمان والتفاهم والحب الشرعي .. وزوجنا رجل واعي وواسع الصدر

فقال عمري مقاطعا : دعونا من هذا الكلام المثير للمشاعر .. واستعدوا للعرس ..هل اشترت أحلام كل ما يلزمها ؟!

فقالت أنعام باسمة ومسرورة : أحلام !.. أختك من قبل تحديد العرس اشترت لها كل شيء الذهب واللؤلؤ والثياب .. والشقة جاهزة تنتظر العروس .. الله يديم النعم على الجميع فلم يبق إلا الاتفاق مع فتاة الصالون حتى تأتي للبيت كما تريد يا أبا محمود .. وقد أضعف لها محمد الأجر حتى قبلت بالمجيء لتزيين العروس صباح الجمعة

ـ ولم صباحا .. ألا تريد الصلاة ؟ .. بعد الظهر أفضل

ـ لا تقلق سندبر الأمر .. هل هي أول عروس ستتزوج ؟

وقالت زينب : سأقوم لاتصل بعائشة وأسمع صوتها فلها يومان لم تتكلم معي

دعي الأهل والأصدقاء والأحباب إلى منزل الدكتور فائز لطفي ، وفي حديقة القصر تم الاحتفال بليلة الزفاف ، وانتقلت أحلام إلى بيت زوجها محمد .. وحمدوا الله على هذه الخيرات والنعم وسألوه المزيد منها ، وأكثروا من الشكر لله .

وكان من عادة عمري إذا زوج ولدا أو بنتا يخصه يتصدق بآلاف الدنانير بهذه المناسبة على الضعفاء والأيتام والمحتاجين ، فيحب أن يدخل عليهم البهجة والفرح ليفرحوا كما هم يفرحون .. وليس سرا أن نقول إنه لم يقصر يوما في مد يد العون لكل شاب يتصل به محتاجا للنكاح ، فيمده بالمال أو الأثاث،ولا يحب أن يطلع أحد على ذلك العون ، فكان ماله وأرباحه يحب أن يشاركه فيها ضعفة المسلمين عن طيب نفس، فهو قد ورث عن أمه وأبيه كثيرا من الملايين ، ولم يبخل يوما بإخراج الزكاة في وقتها كما هو معلوم ، فصاحبنا عمري لا ينسى حق الله ولا حق العباد المستخلف فيه { آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ } .. و يذكر آية القصص { وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنْ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ } .. فكان له أسوة بعثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف وأبي الدرداء رضي الله عنهم ، ولما تم الفرح واطمأنت أنعام على ابنتها الوسطى ، أخذوا يترقبون موافقة السلطات السويسرية لدخلوهم أراضيها للسياحة والعلاج ، وكانت أحلام وبعلها محمد قد وافقوا على هذه الرحلة التي أبى الدكتور فائز إلا أن يساهم فيها بنفقات العروسين، فبعد رفض رضخ عمري ووافق ، وأحب فائز وزوجته أن يسافروا معهم للعمرة ويرافقوهم لمشاهدة جبال الألب وأوروبا البيضاء .

وبينما هم ينتظرون ـ وقد وافقت نوال على هذه الرحلة العلاجية بعد تمنع شديد من الذهاب للعلاج في أوروبا بعد أن قبل ابن شقيقها صابر علي على الرحلة معها بناء على طلب من أبيه وقريبه عمري ـ أتت مكالمة لعمري من العاصمة فيها خبر صغير ، وهو أن ابن ماهر خلس السجين قد خرج من السجن ، وتطلب منه الشرطة الحذر من هذا الولد ، رغم العفو الذي قدمه عمري فقد كان الشاب داخل السجن يتهدد ويتوعد وتأخذ الشرطة حمقه بجد .. بل شرطة الريحانة اتصلت بالسيد عمري من أجل هذه القصة ، وكان عمري منذ تقاعد من أعمال الشركات قد صرف السائق الخاص والحارس الخاص ، فما كان رده على ذلك التحذير إلا أن قال : توكلنا على الله سبحانه .. لا مهرب للإنسان من قدره

بل قدم لزيارته في الريحانة المختار ووفد من رجال القرية يحذرونه من طيش ابنهم وجنونه ، فقال لهم عمري شاكرا حبهم : يفعل الله ما يشاء .. ولا يصيب الإنسان إلا ما قدر له .. وإذا عدد سنين سجن لم تفعل به شيئا ماذا أفعل له أنا ؟! .. حسبنا الله ونعم الوكيل .. أنا على وجه سفر لأوروبا وإلا ذهبت معكم والتـقيت بهذا الشاب وحاولت تعقيله

فقال المختار : هدده أخوه وأخته وجده وحتى اخوته من أمه وأنا ، ولكنه راكب رأسه كما يقولون .. يتهدد ويتوعد .. ونحن يا سيد عمري نتمنى لك العافية والحفظ ، وأحببنا أن تتأكد من صدق حبنا لك ، والحمد لله أياديك البيضاء وإحسانك السخي يملأ البلدة .. فالمزارع تشتغل وتنتج، والمعصرة على خير ما يرام ومزارع العجول .. كله تمام وأفكارك كبيرة ونيرة .. نسأل الله تعالى أن يحميك .. هذا ولد أحمق نخشى أن يفسد علينا صحبتكم

قال عمري : الحماية والحفظ من الله سبحانه .. فالمال مال الله يا أبا عمر.. والخير من فضل الله وأي شيء تحتاجونه فولدي أسامة هو أنا ..

ـ هو ابن أبيه ، شاب فاضل .. ما أرسلنا إليه شابا من البلدة إلا يسر له عملا كما يحب .. حقيقة جهودك خيرة ومباركة بفضل الله .. هكذا يجب أن يكون أصحاب الأموال .. في مالهم نصيب للخير .. ليس الربح والزيادة فقط .. زيادة الأرصدة في أوروبا وأمريكا

ـ أصلح الله الجميع

وتناول الوفد الطعام على مائدة الشيخ عمري ناصح محمود ، ولما أرادوا الانصراف عرض عليهم المبيت ، ولما اعتذروا عن ذلك أوصاهم برامي خيرا ، فهو أخو البنات ، وطلب منهم أن يحثوه على التوبة والتردد على المسجد ، ويتعاونوا مع الشيخ في إصلاحه ، وإذا كان بحاجة لزوجة وبيت ومال فمروا على أسامة ، وسيحقق له ذلك وأعطاهم شيكا بخمسمائة دينار لرامي ، ففرحوا بكلام عمري ، وأخذوا هداياهم كما عودهم ، وقفلوا لديارهم شاكرين يدعون له بظهر الغيب أن يزيده الله من نعيمه .

ولما أتت موافقة المستشفى السويسري النهائية وتأشيرات السفر سافرت أنعام مع زوج ابنتها أحلام محمد وأختها نوال وابنتها أحلام وعلي ابن صابر ، فأمضوا يوما في العاصمة ، ثم ركبوا

الطائرة إلى أوروبا ، وكانت عائشة قد رتبت أمر الفنادق التي سينزلون فيها ، ولما وصلوا للمطار في بال كان في استقبالهم مندوب المستشفى ، وبعد التعارف ساقهم لأحد الفنادق للاستراحة ، ووعدهم بالعودة لنقل المريضة إلى المستشفى الخاص .

زواج سهام

وبعد أسابيع من سفر القوم للعلاج أخذ عمري زوجته زينب وابنة أنعام سهام وصهره الدكتور فائز وأخته بدرية وعشرة أفراد من قرية ماهر خلس ، من بينهم زوجة ماهر وزوجها وابنها فائق ووالده ومختار القرية وآخرين في رحلة العمرة هذه على نفقته الخاصة ، وسافروا للحجاز بالطائرة فنزلوا جدة أولا ، ثم هبطوا مكة لأداء مناسك العمرة ، ثم زاروا مدينة الرسول ﷺ المدينة الشريفة .

وكانت سهام ـ التي وافقت لأول مرة على الذهاب معهم لأداء العمرة والتعرف على هذه العبادة ـ تحلق بالخيال البعيد أثناء وجودها بمكة .. فلما لامست حرارة مكة وشمسها ، تذكرت دعوة النبي (ﷺ) وسيره ومشيه على هذا التراب المبارك في عز الحر يدعو قومه إلى لا إله إلا الله وأنه رسول الله .. تذكرت ما قرأته عن بلال العبد الحبشي مبطوحا على رمضاء مكة وعليه الصخرة وجلادوه يضربونه بالسياط ليكفر برب محمد ، ويعود لعبادة الأوثان والأصنام التي كانت حول الكعبة .. كانت قرأت أن حولها ـ الكعبة ـ أكثر من ثلاثمائة صنم كيف ذلك ؟ كيف كان هؤلاء العقلاء يعبدون الأحجار ؟! تخيلت المكان الذي قتلت فيه سمية بنت خياط أم عمار وزوجة ياسر .. تذكرت صراع الصحابة الكرام ـ الذين آمنوا بربهم وبهذا الدين الجديد الذين تركوا دين الآباء ـ مع صناديد الشرك والكفر بمكة .. وكيف تحملوا الأذى والعذاب الشديد للثبات على دين الإسلام .. رأت أبا جهل سيد قريش وصنديدها يعذب هؤلاء وهؤلاء على رمال وبطحاء مكة .. رأت الأمهات تحبس الأبناء لتفتنهم عن دينهم الجديد .. رأت أم أنمار تعذب خبابا وتطفئ الحديد المحمى في ظهره وبدنه رأت الرسول (ﷺ) يدب على أرض مكة المباركة يطوف حول الكعبة ويصلي .. يدافع عن الدين ، ويحرر الناس من عبادة العباد الى عبادة رب العباد ، صور كثيرة من السيرة التي قرأتها مرات قبل سفرها تتخيلها .. تخيلت الشاب الجميل فتى مكة مصعب بن عمير الذي كانت تقف حسناوات قريش لمشاهدته عندما يخرج لشوارع مكة .. ويستنشقن أريج طيبه .. الشاب الزاهد السفير الأول لأهل المدينة .. جاهدت أن تعيش روحانيات جميلة وبراقة .. أحبت الفتاة مكة رغم حرها وصيفها .. ورأت أن الحياة

زائفة وخداع وكذب .. أربع سنوات وهو يطمعها بالزواج وهي مصدقة .. يتسلى بها وبعواطفها .. يلعب عليها وعلى فايزة وربما أخريات .. ثم اختار فايزة الجارة ونسيها .. لقد صدق عمري عندما حدثها أن الأيام ستنسيه ذلك .. وأن حب المدرسة أو الجامعة حب أطفال وصور عابرة .. طردت هذا الخيال ، وعادت تحلق في سماء مكة في الجاهلية وأول الدعوة ، حيث بدأت دعوة النبي (ﷺ) على جبل الصفا .. وصلت لجبل النور حيث غار حراء .. غار الوحي والرسالة .. صعود متعب إلى ذلك الغار .. ولكنه بعيد عن أهل مكة وتجارتهم وقوافلهم ثم رأت بعين الخيال عمر بن الخطاب يريد قتل النبي (ﷺ) ثم يسلم ثم يصبح خليفة للمسلمين أبو بكر صاحب رسول الله وصاحب الغار .. حاولت تذكر كل الصحابة الأوائل .. عبد الله بن مسعود يجهر بالقران أمام الملأ من قريش .. أبو ذر الغفاري يجهر بالإسلام .. حمزة بن عبد المطلب يشج أبا جهل لاعتدائه على ابن أخيه محمد (ﷺ) .. مشاهد مثيرة ترسمها بعين الخيال هذه هي مكة وجبالها مهبط الوحي التي يحبها الله .. وفي هذا المكان عاش إبراهيم وإسماعيل وأمنا هاجر .. إبراهيم ترك فلسطين الجميلة الأرض الخضراء أرض بيت المقدس أرض الأنبياء ليسكن ولده في هذه الجبال القاحلة .. مشاهد عظيمة .. إسماعيل الصغير عطشان هاجر تركض بين جبل الصفا وجبل المروة .. يا إلهي إن هذا لشيء عجاب ! .. صغير يريد الماء .. لا ماء .. لا ناس .. ولكن تخرج زمزم بمشيئة الله .. زمزم الباقية آلاف السنين .. ما زالت ليومنا هذا لا تنضب ويزيد الشاربون منها .. إنها آية .. آية من آيات الله سبحانه .. يا عماه .. إنك تعيش في هذه السعادة الكبيرة .. آه يا دنيا كم أنت فاتنة؟! .. الناس تحج إلى أوروبا وأمريكا والثلج والمطر وهنا تهوي أفئدة الصالحين والمسلمين من جهات الأرض الأربعة .. إليها يتوجهون بصلاتهم مكة أو الكعبة المعظمة بأمر الله .. الحجر الأسود .. من زمن إبراهيم وهو قرين زمزم .. إلهي تب عليّ واجعلني من القانتات الصالحات .. إلهي اصلح لي دنياي وآخرتي .. إلهي لا تتركني لهواي ونفسي .. أحبك يا الله يا خالق الكون والأسرار .. ارحم يا الله أمتك سهام التائهة الحائرة ذرفت دموع التوبة والندم عند الكعبة عند البيت العتيق .

ولما نزلوا المدينة لزيارة مسجدها.. رأت المسجد النبوي .. حيث كان المسجد القديم .. حيث

الروضة الشريفة حيث كان أيام النبي ﷺ والصحابة الطاهرين .. هنا كان العلم والجهاد والحب محمد مشى على هذه الأرض .. الصحابة دبت أقدامهم على هذه الأرض ..هنا صلوا هنا عاشوا هنا ماتوا .. الله أكبر الله أكبر .. هذا بقيع الغرقد حيث دفن عدد كبير من الصحب الطيبين .. سلام عليكم يا أسيادنا سلام عليكم يا من علمتمونا الإخاء والحب .. أنتم الأسوة الحسنة لمن بعدكم .. أنتم نجوم الهدى .. أنتم الذين بايعتم محمدا ، وحفظتم لنا الإسلام والقرآن والسنة والسيرة .. وتلك قباء التي كانت أول مكان وطئه محمد عند دخوله المدينة حيث استقبله الأنصار ـ رحمهم الله ، وغفر الله لهم ـ .. طيبة الطيبة .. هنا كان يجلس أمير المؤمنين عمر يستقبل بشائر الفتح من الشرق والغرب .. هنا كان يتربع الرجل الزاهد الفاتح العظيم رحمهم الله كانوا خير سلف لنا .. اللهم احشرنا معهم ..آمين .

لقد كانت سهام سعيدة برحلتها الأولى للحجاز ، لقد صممت أن تبدأ حياة جديدة .. حياة كلها طاعة لله .. فلماذا تشذ عما هيئه الله لها من أهل طيبين أخلاقهم إسلامية .. أحكام الشرع مقدمة على كل شيء .. لماذا تترك هذا الخير لتعود للجهل والهوى .. فهذه هي النعمة الحقيقية العظيمة ؟ !

فالإنسان عندما تتهيأ له فئة صالحة بيئة طيبة ، فهذا من نعم الله تعالى ، فعليه أن يشكره على هذه النعمة الكبرى .. حمدت الله سبحانه على عدم ارتباطها بفواز .. كان يريد أن يعيدها لحظيرة الجاهلية والتشبه بالكفار والفجار .. فسألت الله وهي تصلي في مسجد رسول الله (ﷺ) أن يهبها زوجا صالحا تقر به عينها .. يعينها على اجتياز هذه الدنيا بسلام إلى الدار الباقية ولا يفتنها عن طاعة ربها سبحانه .

لذلك لما عادوا لجدة كانت سهام قد صممت على تغيير نفسها وعاهدت الله على التوبة النصوح وسافر ضيوف السيد عمري إلى وطنهم ، واستعدوا هم للسفر لسويسرا قال عمري لرفيقتهم في العمرة الآنسة سهام : كيف كانت الرحلة يا أميرة ؟

فأخذت يده وقبلتها وقد تساقطت بعض الدموع وقالت : يا عمي .. أنا أسعد مخلوقة في العالم اليوم .. لقد عشت في عالم آخر خلال هذه الأيام .. نسيت الماضي كل الماضي .. نسيت أيام

الكلية .. أنا ولدت حديثا .. أنا كنت بحاجة لهذه الرحلة .. السعيدة .. عندما ترى هذا المكان العظيم .. تتذكر الرسول والصحابة وإبراهيم وإسماعيل وهاجر .. وترى هذه الوجوه القادمة من بقاع العالم .. والألسن المختلفة .. يطوفون عن طيب خاطر .. يسعون عن طيب خاطر .. رجال نساء .. أطفال شيوخ .. شيء عظيم .. كل هؤلاء يحبون الله ..

وأخذت تتحد عن إعجابها بمكة والمدينة والطواف والسعي ومسجد الرسول محمد ﷺ بقلب منشرح فرح ، فقال عمري وقد انبهر فعلا من تأثير العمرة والأماكن المقدسة على مشاعر سهام : لو كنت أعلم أن هذه الرؤية والزيارة ستفعل بك ما نسمع في هذه اللحظات العظيمة لفعلنا ذلك منذ سنوات .. ولكنها مشيئة الله سبحانه .. أنا فرح بما أسمع يا ابنتي العزيزة .. بعدما تعودين من رحلة سويسرا .. سأذهب بنفسي لفواز هذا وأجبره على الزواج منك

جفلت سهام لذكره وقالت : لا يا عمي .. مات فواز في قلبي قبل صعودي الطائرة .. هذا أول مخلوق نسيته .. كما أحببته يوما ما وتمنيت الاقتران به فأنا اليوم أبغضه

ـ المؤمن لا يبغض ولا يحب إلا بالله .. دعيه للخالق .. لا يجب أن ينشغل قلبك بحب زائل هل حدث منه شيء نحوك لتبغضيه ؟

فقالت : علمت أنه قد خطب

ـ خطب ! .. هل هذا ما قالته لك تلك الفتاة قبل زواج أختك بأيام ؟

ـ نعم يا عمي .. في تلك الليلة عرفت بخطبة فواز .. وكانت تلك الفتاة زميلتي في الكلية وصديقتنا .. فاعترفت لي بكل شيء ، فقد كانت على علاقة عاطفية بفواز ، وأنه كان يمثل عليّ دور العاشق الولهان فارس الأحلام ، وكان يسخر من عواطفي بمساعدة أخته منال .. ولما انتهت الدراسة خطبها فهذا ما أبكاني تلك الليلة .. أرأيت خداع البشر ؟

ـ الحمد لله على كل حال .. أنت تستحقين زوجا خيرا من فواز .. ولكن هل تأكدت من صدق معلوماتها ؟

ـ بالتأكيد هي صادقة لقرائن كثيرة كنت أراها أيام الكلية ؛ ولكن لم أرها بعين السخط فأتجاهلها ، وثانيا تهربه من الكلام معي منذ تخرجنا ودهلزات أخته ، وثالثا ليس بيني وبينها

شيء لتكذب عليّ .. وإنما كان قصدها إراحة نفسي من الوهم ، وقد تقابلنا من غير ميعاد .. والحمد لله على هذه الزيارة لمكة والمدينة ، فقد أعادت اليّ الاتزان لنفسي وروحي

ـ هنيئا لك هذه العودة الطيبة .. وأنت تعلمين مقدار حبي لك ، وإذا قبلت أن تتزوجي على طريقتي يا سهام ستجدين ما يسرك .. الحب ليس بالضرورة أن يسبق الزواج ، فكل الناس أو أغلبهم يتزوجون بدون سابق معرفة وحب ، ويأتي الحب والشوق فيما بعد .. القليل من الناس من يتزوج عن حب وعشق كالذي تشاهدونه في الأفلام والقصص والتلفاز .. وأكثره بعيد عن واقع الناس .. وما هو إلا لإتمام الحبكة والدراما .. أنا لا أنكر أنه قد يحدث مثل ذلك ولكنه القليل ولا يقاس عليه .. قد يرى إنسان فتاة في شارع أو حديقة أو حفلة .. ويحبها ويتـقدم لأهلها وينتهي الموضوع إذا قبلوه زوجا .. وإذا لم يقبلوه يبحث عن غيرها .. فالحب عاطفة سامية تكون بين الناس ، وبينهم وبين الله سبحانه يحبهم ويحبونه

فقالت سهام بشجاعة : أنا موافقة على الاقتران بمن تختاره لي وعلى طريقتك يا عمي .. أمي تنظر مني هذه الكلمة

ـ كلنا ننتظر يا أميرة هذه الموافقة .. يقال خير البر عاجله .. عندما نستقر في الفندق في بال سويسرا ، سأرتب لك من هناك من ستدعين لعمك طول عمرك باختياره لك .. وأمك تحب لك الخير والسعادة، وإن بدا منها الجفاء في بعض الساعات .. الزواج سنة الحياة ، وهو حاجة ضرورية للإنسان العاقل سواء الرجل أو المرأة ، وإن ينصرف بعض الناس عن الزواج ، فهذا لظروف فردية خاصة بهم ، وهو في الإسلام ستر وعفة وطهارة وقناعة وذرية إذا شاء الله .. واختيار الزوج الصالح مهم ، كما هو اختيار الزوجة الصالحة مهم .. وكل أم تحب أن ترى ابنتها في بيت زوج حتى تطمئن عليها ، لئن الموت ذاهب بالجميع الكبير والصغير .. رضي الله عنك يا فتاتي

وصلوا سويسرا ، وكان محمد في انتظارهم بمطار العاصمة وركبوا معه السيارة حتى الفندق فرحبت بهم أنعام وأحلام وعلي صابر ، وحمدت الله على وصولهم سالمين ، وبعدما سمعوا منهم أخبار نوال الطيبة سرهم ذلك ، انصرف محمد واحلام مع الدكتور فائز وقرينته بدرية بعد

سماعهم اخبار نوال ، واستاذن الشاب علي بالخروج في مشوار خاص ، ولما بقي عمري وزوجتاه وسهام ، بشر عمري أنعام بآخر أخبار سهام ، فلما سمعت منه تلك البشرى قامت وعانقت ابنتها البكر مرة أخرى ، وغمرها الفرح وطفرت الدموع من عينيها وهي تقول: الحمد لله رب العالمين ، لي سنوات انتظر هذه الكلمة منها .. لو كنت أعلم أن العمرة ستفعل بك ذلك لأعمرناك منذ زمن

فقالت زينب وهي تشاركهم فرحهم بسماع آخر أخبار سهام : كل شيء بقدر يا أنعام .. هنيئا لك يا سهام التوبة الصادقة الآن أنت ابنتنا حقيقة

فقالت سهام باسمة : وهل لم أكن ابنتكم قبل ذلك ؟

ابتسمت زينب وقالت : ليس ذاك أقصد .. أنت ابنتا الآن وقبل.. ألم تسمعي قول الله لنبيه نوح إنه ليس من أهلك .. لأننا كنا خائفين عليك من الضياع والعودة لحياة السفور والتبرج هذا قصدي يا حبيبتي ، واحتضنتها وقالت : ألم تعلمي كم أحبك ؟

ـ أعلم يا أمي حبك الكبير لي ولأختاي ولأمي ولكل البيت .. وأنا أفهم قصد كلامك وفرحتك لي ومشاعرك الكبيرة نحونا

ـ أحسنت يا ابنتي العزيزة .. صدقي أنني منذ عرفتكم أحببتكم كأبنائي ، ولم أفرق بينكم في معاملة أو قول .. وأكيد وعدك عمك عمري بعريس جميل مثلك رقيق المشاعر والأحاسيس

وكان محمد رجع اليهم لحاجة يسأل عنها ، فسمع كلام امرأة خاله الاخير ، وأحس بمشاعر الفرح التي عمت القوم فعلق باسما وهو يحدق النظر في سهام شقيقة زوجته ثم يحوله لخاله قائلا : آ.. يا خالي من هو الفارس الجميل الذي سيصيد هذه الحمامة أو الغزالة ؟

تبسم القوم لمداعبة محمد وقال عمري : سأستعرض أبناء العائلة، وأحباب العائلة المقربين و ستفرحون جميعكم لسهام إن شاء الله تعالى

*****

خضعت السيدة نوال للعلاج البدني والنفسي في المستشفى ، ثم نقلت لمصح لقضاء فترة النقاهة وقضى الدكتور فائز شهرا بصحبتهم ، ثم عاد لأرض الوطن ومعه بدرية قرينته ، ولما مضت

الشهور الثلاثة استأذن عمري وزينب بالعودة وخيرت سهام فاختارت السفر معهم ، وكان الأطباء يعتقدون أن ثلاثة أشهر كافية للعلاج ، فمددوها ثلاثة أشهر أخرى ، فوافق محمد وأحلام وأنعام وعلي على البقاء حتى تنتهي فترة العلاج ، وإن نصحهم الأطباء بالسفر فربما يطول الوقت ، فاستجابة المريضة للأدوية ضعيفة ، بل وجدوا ضعفا شديدا في الذاكرة ، فشجعهم عمري على البقاء ثلاثة شهور أخرى ، وإذا لم تتحسن شيئا ـ فلا حول ولا قوة إلا بالله ـ ستنقل بطائرة طبية إلى الوطن ، ويتابع علاجها فريق من أطباء البلاد ، وكان الألم يعصر قلب عمري على ابنة عمه .

ولما وصل عمري البلاد وجد أن زوجة عمه ناجح قد رحلت منذ شهر ، ولم يرغب الأهل بإخبارهم ريثما يعودون حتى لا يؤثروا عليهم ، و يضطروهم للعودة خصوصا أنعام ، فشكرهم عمري على هذا التـفكير والتصرف وقال : خطوة جيدة .. رحم الله أمنا عزيزة ثم زار قبرها ودعا لها الله سبحانه أن يتغمدها بالعفو والصفح والرحمة ، وتصدق عنها ثم عاد للريحانة وبصحبته زينب وسهام ، وبعد أن قضوا في الفيلا عدة أيام يستريحون من آثار السفر انشغل عمري بالعريس الذي وفق لاختياره لسهام ، ولقد كان السيد عمري قد رتب الأمر مع صديقه حسن أخو زوجته زينب والذي يعرفه القراء في أوائل القصة ، فقد كان لأخي زينب الصغير أحمد ولد متدين ، وقد تخرج من كلية الطب ، ويعمل في مستشفى الدكتور فائز في الريحانة ، فلما تحدث عمري مع حسن في أمر زواج سهام بنت أنعام رشحه حسن ، فتحدث حسن مع أخيه أحمد الأصغر في الموضوع ، فأبدى الوالد أحمد ترحيبه وموافقته على الفور ومن غير تردد ، ثم زار الريحانة وتحدث مع ولده الدكتور هشام ابنه ورد خبرا بالموافقة لأخيه حسن فلذلك لما وصل عمري المدينة واستراح بضعة أيام ، قام بزيارة خاصة لهشام في المستشفى ، وخلا به بعض الوقت ، ولما تأكد أنه لم يتعرض لضغط من أبيه وعمه حسن دعاه لزيارة عمته زينب ولرؤية الفتاة بدون مـقدمات ؛ كأن اللقاء حصل عرضا ؛ فإن استحسنها جرى ما بعد الرؤية من خطبة وقران .

وذات ليلة حضر الدكتور هشام زائرا لعمته من غير ميعاد معها ، وهشام كان من الشباب

الذين يرون أن السيد عمريا نموذج للرجل الغني المسلم الحي الذي يجعل المال في خدمة الأمة والناس .. فكان ينظر إليه أنه رجل موفق مبارك ، فالزواج عن طريقه ويده يراه من سعادة المرء وبركته ، وهو زوج عمته زينب السيدة الطيبة ذات الحـنان والقناعة والزهد رغم ما لديها من أموال وأرقام من مال زوجها .. زينب لم تعلم القصد الخفي من زيارة هشام ، فكانت تظنها بمناسبة عودتها من العمرة ومن أوروبا فأولاد اخوتها يودونها باستمرار ، ويظهرون لها إمارات التقدير والحب .. فسلم هشام وقبل يدها ويد السيد عمري زوجها فقد اعتاد على ذلك منذ الصغر ، ولا يرى في ذلك غضاضة رغم أنه طبيب ماهر ، وكانوا يجلسون في الحديقة كعادة عمري ، ولما شربوا القهوة أرسل عمري وراء سهام فأتت ملبية لنداء عمها عمري ، فلما رأت الضيف كادت ترجع ، فنادها عمري فقال لها : تعالي يا سهام .. هذا ابن أخ زينب الدكتور هشام

سهام تعرف هشاما ، فهي تسمع باسمه يتردد داخل البيت ، وهو يتردد على البيت لزيارة عمته والسمر مع عمها عمري ، أما الجلوس معه فهذا لم يحدث ، لذلك ارتبكت واستغربت من تصرف عمها لأنه لا يحب الاختلاط ، ولكنها اقتربت وهي مترددة وألقت التحية فقال لها عمري مرة أخرى : الدكتور هشام مهتم بمرض خالتك نوال .. وكلفته بالاتصال بعدد من الأطباء الماهرين في جراحة الدماغ وعيوبه .. فغدا اتصلي بأمك واسأليها عن آخر أخبار خالتك اجلسي

فجلست باستحياء وقالت : أهلا بالدكتور هشام

ـ أهلا آنسة سهام .. الحمد لله على سلامتك .. عمرة مقبولة إن شاء الله .. كيف حال خالتك

ـ بخير .. كان الله في عونها .. كيف أنت وكيف الأم والوالد ؟

فقال هشام بجرأة : الحمد لله كلهم بخير .. يا عمتي العزيزة .. أمتزوجة هذه الحسناء ؟

احمر وجه الفتاة لجرأة الشاب أمام زوج عمته ، ولم تستطع رفع بصرها عن الارض حياء ، فقال عمري بفرح : أموافق يا هشام ؟!

فقال هشام بفرح وبابتسامة : يا أبا محمود .. هل يرفض أحد اختيارك المبارك ؟ .. أرجو أن

تقبل بي هي

نظرت زينب لعمري وقالت : هل هناك مؤامرة ؟؟

فقال هشام : أبدا يا عمتي ..أتاني أبي الفاضل خصيصا من العاصمة ؛ ليقول لي أن زوج عمتك وجد لك عروسا جميلة .. فكما وافق أبي قبل أن يأخذ رأيي ، أنا أيضا وافقت على الفور ومن غير تردد .. فالأستاذ عمري رجل مبارك وأنا أحبه وأقدره ؛ ولكنه أصر على النظرة فقال زرنا وانظر الفتاة نظرة الخطيب ، فأتيت وكلي شوق وهوى بابنة عمتي أنعام .. لم نسمع قول العروس يا عمتي تدخلي ؟

نظرت سهام لعمها عمري بامتنان وتقدير وقالت بشجاعة وقد خف ارتباكها وأدركت المقصود من هذه الزيارة : فكما وافقت أنت على اختيار عمي عمري بسرعة فأنا راضية وموافقة على اختياره .. عمي سريع في عمل الخير

فنهضت زينب فرحة واحتضنت سهام وقبلتها عدة مرات وهي مسرورة وهي تقول : ألف مبروك وألف بركة .. جزاك الله خيرا يا أبا محمود .. مبارك يا ابن أخي

وقبلت ابن أخيها الشاب المرح ، وبارك لهم عمري ، وشكراه وقال عمري فرحا : على بركة الله سبحانه .. أم تحبون التفكير قبل الاندفاع وراء العواطف والمشاعر ؟

فقال هشام : أنا راض بكل مشاعري وعقلي وأفكاري

وقالت سهام فرحة : وأنا دعوت الله ونحن بالمدينة المنورة أن ييسر لي زوجا صالحا يسعدني وأسعده السعادة الدائمة .. فأنا أيضا موافقة على الدكتور هشام بعقلي ووجداني .. وأشكرك يا عمي الشكر الجزيل

فقال عمري : مبارك لكما مرة أخرى ونحن سعداء بما يجري ، والآن قومي اتصلي بأمك واسأليها عن خالتك وأخبريها بهذا الاختيار لتكسبي منها دعوة صالحة

فحيت الفتاة المنفعلة وانطلقت بفرح وعجلة للاتصال بسويسرا ، وأخذت زينب تشكر زوجها وتحدث ابن أخيها عن مشاعر سهام المرهفة وتوصيه بها خيرا فقال هشام : هي في قلبي وعيناي يا عمتي .. وأرجو من الله أن يوفقني إلى تحقيق السعادة لها والمحافظة على مشاعرها الرقيقة

فقال عمري : ستتم الخطبة قريبا وقبل عودة أمها ؛ لأن أمها قد تمكث ثلاثة أشهر مع أختها وهناك مشوار إلى قرية أهلها لإخبار أخيها الأكبر وجدها من أبيها .. قد تضطر للنزول إلى العاصمة لتحقيق ذلك يا دكتور هشام

ـ لا بأس يا سيدي .. أنا جاهز

فجاءت سهام بعد قليل تقول : السلام عليكم .. أمي على الهاتف يا دكتور هشام تريد أن تبارك لك

فقال عمري : اذهب يا هشام ! فحماتك تريد أن تظهر لك مشاعر الحب والفرح

فقال هشام : عمتي أنعام على سلامتها .. هي سيدة محترمة وفاضلة وملكة لفؤادي

سارت زينب خلفهم وتحدثت زينب مع أنعام التي شكرتها على مباركتها لهذا الزواج ، فتمنت أنعام لو أنها معهم في هذه اللحظة لتشاركهم فرحهم ، وتحدث هشام مع أنعام التي دعت له وباركت له ، وأظهرت له حبها وامتنانها وسعادتها بزواجه من ابنتها البكر ، فأثنى عليها وأخبرها بأمر الخطبة وكتابة الكتاب قريبا ، وسألها مباركتها ففعلت، وطلبت منه سهام التي كان البشر والفرح ظاهرين على محياها الباسم ، وتناولت السماعة من هشام بلطف ، واستمعت لنصائح أمها ودعواتها لهما بالتوفيق والهناءة الزوجية ، ثم وضعت السماعة وقالت وهي تنظر في عيني هشاما : قبل أن نتزوج أمي توصيني عليك ، أرأيت كيف الحموات يا دكتور هشام ؟

ـ الله يحفظ لي حماتي وعمتي زينب ، وإن شاء تعود أمك بالسلامة وحفظ الله تعالى .. عمي ظل وحده في الحديقة .. هيا بنا إليه نشرب الشاي معه من أيدي ساحرة القلب والفؤاد .. ما رأيك يا عمتي ؟

فقالت سهام : فورا أيها العزيز

سارت سهام نحو المطبخ ، وهي تكاد تطير من الفرح ، وخرج هشام وعمته نحو الحديقة وهما فرحان بما تم هذه الليلة من الخير ، ولما وصلا إلى الحديقة وجدا السيد عمري مغمض العينين ، ويجلس أمامه شاب منكوش الشعر نحيف البنية بين يديه مسدس .. فنظرا إليه باستغراب وقال هشام : من أنت ؟ !

فقال الشاب بهدوء : اسمي رامي ماهر خلس

فقالت زينب بصوت هلع : هل قتلته ؟!

فقال بصوت هادئ : لم تستطع يداي فعل ذلك .. إنه رجل صالح .. استيقظ يا عماه

فتح عمري عينيه ، لقد غفي عند ذهابهم للحديث مع انعام ، وقال : عدتم .. من هذا الشاب ؟

ردت زينب : هذا أخو خطيبتك يا هشام

ماذا قلت يا عمتي ؟ !

تمت الرواية بفضل الله تعالى

صدر عن دار المأمون

- ربنا وتقبل دعاء
  - خولة بشير عابدين
  - ٢٠٠٥/١٤٢٦
- الموت وأحكامه/ أحكام الجنائز والعدة
  - خولة بشير عابدين
  - ٢٠٠٥/١٤٢٦
- تفسير سورة الكهف
  - خولة بشير عابدين
  - ٢٠٠٥/١٤٢٦
- تفسير سورة الفاتحة
  - خولة بشير عابدين
  - ٢٠٠٥/١٤٢٦
- معجم ابن بطوطة في رحلته
  - د. مأمون فريز جرار
  - ٢٠٠٥/١٤٢٦
- حوار الإسلام والغرب
  - د. عبد الله أبو عزة
  - ٢٠٠٦/١٤٢٧
- السياسة الاقتصادية للخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز
  - بشير كمال عابدين
  - ٢٠٠٦/١٤٢٧
- محجّبات ولكن !

- د. مأمون فريز جرار
- ١٤٢٧/٢٠٠٦

• ذكريات الوطن والغربة
- حسني أدهم جرار
- ١٤٢٧/٢٠٠٦

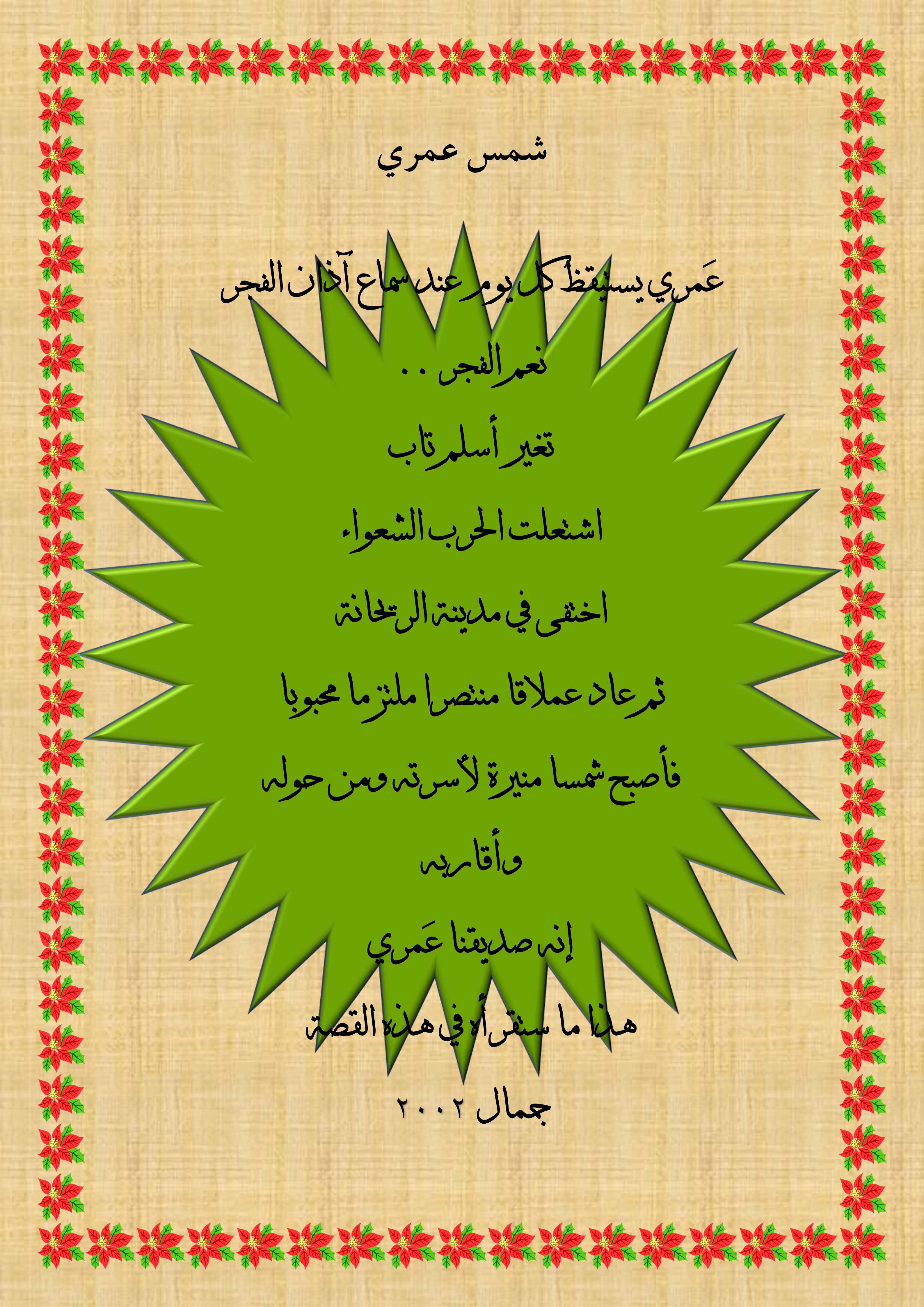
• السلاسل المضيئة للشفاء
- زهرة مصطفى الزيات
- ١٤٢٧/٢٠٠٦

• أحاديث الفتن والفقه المطلوب
- د. مأمون فريز جرار
- ١٤٢٧ / ٢٠٠٦

• **THE UNSOLD COMMODITY** / ديوان شعر
- أمين محمد حماد
- ١٤٢٧ / ٢٠٠٦



١	ليلة العرس	٢	شمس عمري
٣	أيتام خليل	٤	صديق أمي
٥	الأخ شريف	٦	أستاذ الفرنساوية
٧	غربتي وابنتي	٨	حي أبو خروف
٩	الشقق السوداء	١٠	حياتي قبل الحياة
١١	الحفل بالقط الأسود	١٢	امرأة نزيه
١٣	رهاب الطلاق	١٤	


شمس عمري
عَمري يستيقظ كل يوم عند سماع آذان الفجر
نعم الفجر ..
تغير أسلم تاب
اشتعلت الحرب الشعواء
اختفى في مدينة الريحانة
ثم عاد عملاقا منتصرا ملتزما محبوبا
فأصبح شمسا منيرة لأسرته ومن حوله
وأقاربه
إنه صديقنا عَمري
هذا ما ستقرأه في هذه القصة
جمال ٢٠٠٢